معذبو الأرض

ترجمة
الدكتور سامي الدروبي
الدكتور جمال الأتاسي

تأليف فرانز فانون



دار القلم - بيروت لبنان

معذبو الارض

Frantz-Fanon

Les Damnés de la Terre

تأليف فرانز فانون

معذبو الأرض

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي   الدكتور جمال الأتاسي

دار القلم

بيروت - لبنان

مقدمة

في المقدمة التي وضعها جان بول سارتر لهذا الكتاب ، أهاب بالأروبيين ان يقرأوه ، رغم أنه ليس موجها اليهم ، نعم ، ان المؤلف لا يتوجه بكلامه الى الأوروبيين • انه لا يريد ان يفضح الاستعمار للمستعمرين ، كما فعل ذلك قبله عدد من المؤلفين المستعمَرين ، الذين هضموا ثقافة المستعمِر ثم رؤوا ما هنالك من تناقض بين الدعوى الانسانية التي تدعيها أوروبا وبين جرائمها في حق الانسان • ان فانون لا يطمع في أن يحاور أوروبا ، أن يخجلها من نفسها ، ان يعري كذبها • انه يعلم ان الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالاقناع ، وان التحرر من الاستعمار لا يكون الا بالعنف • انك لا تستطيع أن تصفي الاستعمار الا بحمل السلاح ، باسالة الدماء • ان فانون يائس على ان تثوب أوروبا الى رشدها • وهو لذلك لا يتحدث اليها ، وانما يتحدث الى اخوته الذين حملوا السلاح وأخذوا يسيلون الدماء فعلا ، فاذا الاستعمار مكره على أن ينسحب من أراضيهم بخطوات ما تنفك تزداد سرعة • ولكن فانون يعرف ايضا ان الاستعمار قد يخرج من الباب ليعود من النافذة ، لابسا ثوبا جديدا ، مبدلا ملامح وجهه ، مغيرا معالم صورته • لذلك يقبض فانون عليه ، ويسلمه الى جماهير الشعب التي أخرجته من ديارها ، لتصفيه • ان فانون يفضح الاستعمار الجديد • يفضح البوجوازية « الوطنية » التي لم تشارك في ثورة الشعب مشاركة صادقة ، ولا أهابت بالجماهير يوما الى النضال المسلح والكفاح العنيف ، وكانت لا تزيد على أن تقوم بمناورات سياسية من أجل أن يتصدق عليها المستعمر ببعض الامتيازات • ان فانون يبين لنا كيف تحاول هذه البورجوازية « الوطنية » ان تسرق ثورة الشعب في لحظة النصر ، وان تنسبها اليها ، وان تتسلم مقاليد السلطة من يد المستعمر لتحل محله ،

لتنوب عنه في استغلال الشعب واستثماره واضطهاده ، وكيلة عن الاحتكارات الاستعمارية الكبرى ، عميلة لها ، شريكة معها في الغنائم • ان فانون يفرق بين الاستقلال الحقيقي والاستقلال الكاذب ، ويصف تواطؤ البورجوازية الوطنية ، ويفضح عجزها عن ان تكون بورجوازية خالقة ، ويبين أن البلاد المتخلفة يجب ان تستغني عن المرحلة البورجوازية ، وان تنتقل رأسا الى بناء مجتمعها الاشتراكي •

نعم ان فانون لا يحاور أوروبا ، بل يخاطب الشعوب التي شهرت السلاح ، وأخذت تنتزع استقلالها بالقوة ، فمنها من ظفر بسيادته ومنها من لا يزال يقاتل • انه يتحدث الى اخوته المجاهدين •

* * *

هو زنجي من المارتينيك ، من مستعمرة يحمل سكانها الجنسية الفرنسية • عانى في بلده شعور المذلة والهوان من وجود الاستعمار الفرنسي • ولكن أفقه الواسع وعقله النيّر وثقافته الغنية ، كل ذلك جعله لا يحقد على الاستعمار في وطنه فحسب ، بل في العالم كله • حتى أنه لا يتصور زوال اللاانسانية التي تزودوا فيها •جاء الى فرنسا طالبا ، فدرس الطب في الاستعمار تشفيا من المستعمرين ، بل خلاصا لهؤلاء المستعمرين أنفسهم من مدينة ليون ، فأظهر في حياته الدراسية من التفوق والنبوغ ما خطف الأبصار، فكان طالبا مرموقا بين زملائه واساتذته • وكان أثناء دراسته يقوم بنشاط سياسي : يشارك في أعمال طلبة المستعمرات، ويتصل بالمناضلين السياسيين• حتى اذا تخرج متخصصا في الطب العقلي عين طبيبا للامراض العقلية بمدينة بليدة بالجزائر • وهناك عمق شعوره الثوري ، وأدرك أن الاستعمار واحد ، وعرف من دراسته لمرضاه من الجزائريين ان الاستعمار يشوه الطبيعة الانسانية ، يضيع الانسان • ومن مراقبته للثورة رأى كيف تحمل الى النفوس البرء والتطهر ، وكيف تغسل المجتمع الثائر من أدران الجمود والتأخر ، فتبعث في الحياة اندفاعة جديدة ، وتحمل الى الثائرين قيما جديدة ، وتعتقهم من قيود العادات البالية التي كان تمسكهم بها قبل ذلك صورة من صور المقاومة للاستعمار وقيمه وأخلاقه وحضارته • وهذا ما سجله في كتابه « العام الخامس للثورة الجزائرية » • لقد كان فانون طبيبا لامعا من أطباء الامراض النفسية يشار اليه بالبنان ، وهو ما يزال في ريعان الصبا ، حتى لقد نشرت له بحوث دلت على احاطة نادرة وحدس قوي ومنهج سليم في البحوث والتقصي • وكان الى ذلك انسانيا رحيم القلب فياض العاطفة رقيق

الشعور ، فهو يعايش مرضاه حياتهم الداخلية ، ويتعاطف معهم ، وينفذ الى أعماق نفوسهم ، فيدرك بوجدانه من أمر مشكلاتهم ما يعجز عنه التحليل النظري وحده • ولكن عاطفته الرقيقة هذه مع المرضى والمتعبين والمعذبين كانت تقابلها في نفسه ثورة عارمة عنيفة على الاضطهاد والاستغلال والغطرسة العنصرية ، فكان في سلوكه من العنفوان والاباء والجموح مع الذين يمثلون الروح الاستعمارية أو لا يتنكرون لها ولا يقاتلونها ما حمل بعض السطحيين من الاوروبيين على القول بأن في الرجل « عقدة نقص » ، فهو يكره البيض لانه أسود • والواقع أن فانون لا يكره البيض ، وانما يكره الاستعمار الذي يمارسه البيض ، وهو على كل حال لا يدع لعاطفته الفردية إن تملي عليه سلوكه ، وأن تكون ينبوع تفكيره • وهذا ما يشير اليه سارتر في مقدمته ، وهو ما يظهر لنا من اصرار فانون في غير موضع من كتابه ، على ان تستمد الثورة عقيدتها وروحها وخطتها من التحليل العقلي والادراك الموضوعي ، وان تستند دائما الى وعي واقعي وتنظيم عملي ونظرية متكاملة • وعن هذا انما تحدث حين عقد فصلا من كتابه « معذبو الأرض » للكلام عن مواطن الضعف في الانطلاق العفوي •

رافق فانون ثورة الجزائر منذ بدايتها • وآمن بأنها ثورة جذرية ، ثورة انسانية أصيلة تنحصر في أرضها ، وشعبها • بل ستردد أصداؤها في افريقيا كلها ، وفي جميع البلاد المستعمَرة المتخلفة ، وستكون نداء واهابة، مثالا وقدوة • وآمن فانون بأن الثورة هي الطريق الوحيد الى تحرير الانسان ، وبأن العمل الثوري هو السبيل الى أن يتجاوز الانسان وضعه ، والى أن ينتقل من العبودية والضياع الى الوجود الحر الكريم الخصب •

وقرر فانون أن ينضم الى صفوف الثائرين ، أن يشاركهم الكفاح مشاركة فعالة ، أن يخوض هذه المعركة التي تخوضها الجزائر بكل ما أوتي من قوة • حقق فانون في نفسه وفي سلوكه الانسجام بين القول والعمل • أدرك هذا المثقف المستعمَر رسالة المثقف المستعمر ، فأبى أن يعيش حياة فردية ، أبى أن يستسلم لمغريات المعيشة السهلة التي يرضاها لأنفسهم مثقفون مستعمَرون أصبحوا بلا جذور تربطهم بشعبهم ، فضنوت نفوسهم وجف ماؤهم ، وصوحت شجرة حياتهم فهي لا تعطي جنى بل تتساقط منها ثمار كاذبة • أدرك فانون أن على المثقف المستعمر أن يحارب مع شعبه بعضلاته قبل أن يتصدق عليه بفضلات يسميها انتاجا أدبيا ثقافيا أو فنيا أو علميا • فلا ثقافة لأمة الا في اطار حريتها وسيادتها •

ففي عام ١٩٥٧ قدم فانون استقالته من منصبه كرئيس لمستشفى الأمراض العقلية ، في رسالة رائعة تصف جريمة الاستعمار الغربي الذي يضيع الانسان ويقتل انسانيته • لقد رأى فانون أن إستمرازه في العمل الطبـــي والعلمي يصرفه عن الواجب الأكبر الذي تصغر ازاءه كل الواجبات الأخرى ، فاستقال من وظيفته ، وانخرط في ثورة الجزائر انخراطا كاملا • واستقبلته ثورة الجزائر باسطة له ذراعيها فاتحة له قلبها ، وأسندت اليه مهمات شتى ، منها تمثيل ثورة الجزائر في كثير من المؤتمرات الدولية رئيسا لوفودها ، فكان في هذه المؤتمرات فكرا ناصعا ونارا مشبوبة وحركة لا تهدأ ، واشتهر خاصة بالخطاب الرائع الذي ألقاه في مؤتمر تضامن الشعـــــوب الآسيويـة الافريقية الذي عقد بمدينة أكرا ، وفيه عبر فانون عن ايمانه بأن العنف هو السبيل الوحيد التي يجـب ان يسلكهـــا المستعمَرون للتحرر من السادة المضطهِدين المستغلين الذين يتشدقون بالكلام على الحرية وعلى الانسان وهم يذبحونهما حيثما وجدوا •

قلنا ان هذا المثقف المستعمَر قد أدرك ان على المثقف المستعمَر أن يقاتل مع شعبه بعضلاته أولا وقبل كل شيء • وقد حارب فانون بعضلاته فعلا ، حارب بجسمه ، مثلما حارب بفكره وقلمه ، ولكن جسم فانون لم يسعفه الى آخر الشوط ، بل تداعى في منتصف الطريق • لقد اضطر فانون الى الانسحاب من المعركة التي يستعمل فيها عضلاته ، الى معركة لا يستطيع فيها أن يستعمل الا فكره الذي تخصبه ثورية باسلة ، وتغذيه ثقافة قوية ، وترفده قدرة فذة على الملاحظة والتتبع والاستدلال • وفي هذه المرحلة من حياته انما وضع كتابه « معذبو الأرض » بينما المرض الخبيث يأكل دمه • فانظر الى الشجاعة : كان فانون « الطبيب » يعرف أن الموت يهم به في كل لحظة ، وأن سرطان الدم لن يمهله الا بضعة أشهر في أكثر تقدير ، فأخذ يغذ خطاه ليفرغ من وضع كتابه قبل ان يستقبل الموت راقداً في فراشه لا واقفا على قدميه • لقد ألف كتابه « العام الخامس لثورة الجزائر » قبل ان يستفحل الداء ، حتى اذا استشرى مرضه أدخل أحد مستشفيات سويسرا ، ثم نقل من سويسرا الى مستشفى بواشنطن ، وهناك أنجز كتابه « معذبو الأرض » •• وفي السابع مـن كانون الأول عام ١٩٦١ نفذت برودة الموت بخطى بطيئة الى قلب فانون ، ولفظ الرجل آخر أنفاسه ، ولم يتم الأربعين من عمره • وحملت الطائرة جثمانه الى تونس، ومن هناك اخترق المجاهدون بنعشه الحدود مكفنا بالعلم الجزائري ، ليدفنوه في تراب الجزائر عند مرابض المقاتلين كما أراد • كذلك مــات فـــانون

المارتينيكي الأصل الجزائري النضال ، الانساني التفكير ، تاركا في جسم المستعمرين آثارا من خدش أظافره ، وتاركا في ربوع الوطن الجزائري أنوارا من دفق عقله وقلبه ، حتى قال عنه بن بيلا : « لم يكن فانون رفيقا في المعركة فحسب ، بل كان مرشدا وموجها ، لأنه ترك لنا من انتاجه الفكري والسياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية » ٠

هناك دروس كثيرة استخرجها فانون من مشاركته في ثورة الجزائر ، ومن تتبعه لسائر الثورات التحريرية التي شبت في افريقيا خاصة ، وفي العالم الثالث عامة ٠ ولا نريد في هذه المقدمة العجلى ان نلخص هذه الدروس، فهي مبسوطة للقارىء في الكتاب الذي نضعه بين يديه ، وانما نريد ان نضع خطا تحت فكرة أساسية بين أفكاره تطل على ثورتنا العربية الراهنة ، وهي الفكرة المتعلقة بدور البرجوازية ٠ وربما كان من الواجب ان نشير قبل ذلك الى صفة يتسم بها كتاب فانون ، تجعله ذا طابع أصيل ، كما تجعل استخراج خطوطه الأساسية وأفكاره الموجهة أمرا ليس على قدر كبير من السهولة ٠ ان فانون لا يعرض آراءه عرضا تعليميا ان صح التعبير ٠ انه لا يقرر مبادىء معينة ثم يروح يستخرج من هذه المبادىء ما يترتب عليها ، ويتفرع عنها مستمدا من التجربة والواقع أمثلة توضحها ، كما يفعل ذلك مؤلف تصفح الوقائع أولا ثم استخرج قوانينها ، حتى اذا أراد بسط النتائج التي خلص اليها ، ابتدأ بعرض الأفكار العامة ، كاسيا اياها بالملاحظات العيانية بعد ذلك ، وانما هو يشرك قارئه رأسا في ملاحظة الواقع نفسه ، نافذا الى أعماقه متسللا بين ثناياه متعرجا في منعطفاته ، مدركا اياه بالملاحظة القوية والعاطفة المتقدة في آن واحد ٠ ومن هنا ينشأ ما قد يضيق به القارىء من تكرار حينا ، ومن تناقض ظاهري حينا آخر ، ومن قفز ووثب وتدفق وجريان سريع قد لا تستطيع مجاراته بغير لهاث في أحيان أخرى ٠ ولكن لعل هذا الذي قد يبدو آنة من ناحية ، هو من ناحية اخرى ميزة كبيرة ، ففي الفكر الثوري يجب ان يتعانق العقل والواقع هذا التعانق ، فما يغيب الواقع الثوري المتأجج وراء المعاني المجردة الباردة ، وانما يجيء في الصورة من الغليان مثل الذي في الأصل، وتحمل الصورة من الألوان مثل الذي في الأصل ٠ ان في كتاب فانون فكرا وشعرا معا : فيه الى العقل الذي يحلل خفق جناح يشب ، وأنغام موسيقى تدوي ٠

***

ان الفكرة الأساسية التي يدور عليها كتاب فانون « معذبو الأرض » هي

ان العنف هو السبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار • ان هذا العــــالم الاستعماري الذي قام على العنف لا يمكن الخلاص منه الا بالعنف • والجماهير المستعبدة تشعر بهذه الحقيقة شعورا قويا ، ولكن شعورها هذا لا يصير الى كفاح مسلح فورا • ذلك ان الأحزاب السياسية البورجوازية تستبعد فكرة العنف بل تخشى العنف • هي عنيفة في أقوالها معتدلة في مواقفها ، لا يزيد نشاطها على مقالات وخطب تتحدث عن حقوق الانسان وتقرير المصير • ان هذه الأحزاب لا تدعو الى العنف لأنها لا تهدف الى قلب الأوضاع التي أنشأها الاستعمار رأسا على عقب ، ولا تطمع في أكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمر • كل ما تريده هو أن تفاوض المستعمِر وتنتهي معه الى تسوية • ان البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن لجوء الشعب الى العنف ، تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن هذا الاعصار الجبار ، تخشى أن تكنسها هذه الريح العاصفة فلا تفتأ تقول للمستعمرين « ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة ، ، فالجماهير ما تزال تثق بنا ، فاسرعوا اذا كنتم لا تريدون أن تعرضوا للمخاطر كل شيء » • هكذا تصبح الأحزاب البورجوازية وسيطا بين المستعمِر والمستعمَر ، وسيطا بين الطرفين يعرض عليهما المصالحة وينصحهما باللاعنف • ان الأحزاب البورجوازية ما أن تر الشعب يتحرك لمواجهة الاستعمار بالعنف ، حتى تهرع الى المستعمرين قائلة : « الأمر خطير جدا • وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي هذا كله • فلا بد من ايجاد حل ولا بد من ايجاد تسوية » • ان البورجوازية التي تسمى وطنية لا تزيد في الواقع على ان تتواطأ على الشعب مع جلاديه في مرحلة كفاح التحرير ، حتى لكأن مهمتها هي أن تحول دون سير الكفاح الى آخر مداه ، وان تجعلـــه يجهض في منتصف الطريق بتسوية تحقق مصالح فريقين أحدهما الاستعمار والثـــــاني هو البورجوازية الوطنية ، وعلى حســاب الشعب انما تضمن مصالح هـــذين الفريقين ، على حساب السيادة الوطنية والاستقلال الحقيقي • لـــو أراد فانون ان يستشهد على هذه الحقائق بأمثلة مستمدة من غير حركات التحرير التي شبت في افريقيا خاصة في السنين الأخيرة ، لو أراد ان يستشهد بحركات التحرير الوطني التي قامت في البلاد العربية مثلا ، لذكر تآمر البورجوازية الوطنية في سورية حين تنازلت للاتراك عن لواء الاسكندرون في سبيـــل الوصول الى تسوية ١٩٣٦ ، لذكر المؤامرة الكبرى التي حبكتها بورجوازيـة البلاد العربية مع الاستعمار ، وأخرجتها في تلك التمثيلية الرهيبة التي أدت الى احتلال فلسطين ، وتشريد أهلها ، وارتكاب جريمة من أكبر الجرائم التي عرفها التاريخ •

ولكن تواطؤ البورجوازية مع الاستعمار لا يستطيع ان يقف حائلا دون لجوء الشعب الى العنف وانتزاع استقلاله بيده •

فما هو دور البورجوازية بعد الاستقلال ؟ ان البوجوازية الوطنية التي تتسلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري هي بورجوازية متخلفة• قوتها الاقتصاديةتكاد تكونصفراء، أو هيعلىالأقللا تقاسابدا بالقوةالاقتصادية التي تملكها بوجوازية البلاد المستعمرة التي تريد هذه البورجوازية الوطنية ان تحل محلها • تظن البورجوازية الوطنية لغرورها أن في وسعها أن تحل محل بورجوازية الإستعمار ، وان تكون خيرا منها • ولكن الاستقلال ما يلبث ان يضعها في مآزق حرجة ، فاذا هي تلجأ الى الدولة التي كانت تستعمر البلاد ، وترتمي في أحضانها •

ان هذه البوجوازية الوطنية عاجزة • ان نشاطها لا يتعدى التجـــارة والزراعة البدائية والمهن الحرة ، فليس بينها أناس من رجال الصناعة الذين يمتازون بالاقدام • ان البورجوازية في البلاد المتخلفة ليست متجهة نحـــو الانتاج والابتكار والبناء والعمل • وانما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع الوساطة • ان نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية سماسرة • لا نفسية رواد ومجددين • انها تكتفي بأن تكون وكيلة • وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة بل جعل نفسها وسيطا بين البلاد وبين رأسمالية متخفية ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد • ان البورجوازية الوطنية عاجزة عن النهوض بالدور التاريخي الذي نهضت به البورجوازية الأوروبية • فما عرفت به بورجوازية أوروبا من انها كانت نشيطة رائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لا نرى مثله لدى هذه البوجوازية الوطنية العاجزة التي دلفت الى الشيخوخة قبل ان تمر بعهد مراهقة جريئة مبدعة • وقل مثل هذا وأكثر من هذا عن الاقطاعية المتفسخة التي لا تقوم بأي عمل ايجابي • فلا تجديد في أساليب الزراعة ، ولا خطة للتنمية الاقتصادية ، ولا مبادهات فردية • ان البورجوازية الزراعية في البلاد المتخلفة بورجوازية كسولة ، ليس لها من هم الا تكديس الأرباح ، والتمرغ في الشهوات ، واقتناء الأشياء التي يدفع الى اقتنائها حب الظهور من سيارات فخمة ، وفيـــلات باذخة ، ومظاهر لاحظ علماء الاقتصاد أنها من مميزات البورجوازية المتخلفة •

هذه على الصعيد الاقتصادي ، فماذا على الصعيد القومي ، صعيد الوحدة القومية ؟ ان من المعروف ان البورجوازية الوطنية في أوروبا هي التي حققت الوحدات القومية فيها • فما هو دور البورجوازية المتمثلة في رسالة

التوحيد القومي هذه ؟ يقول فانون : « ان البورجوازية الوطنية ، لأنهـا منكمشة على مصالحها المباشرة ، ولأنها لا تنظر الى أبعد من أطراف أظافرها . تتكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية ، عاجزة عن بناء الأمة على أسس خصبة وطيدة مثمرة » • وقد بين فانون كيف ان البورجوازية الوطنية في البلاد الافريقية التي استقلت حديثا قد أيقظت الخلافات الاقليميـة ، والمنازعات القبلية ، وفتتت الوحدة القومية لحرصها على منافعها ، وتفضيلها هذه المنافع على المصلحة القومية والوحدة القومية • انها تحول دون كل جهد تبذله شعوب افريقيا من أجل تحقيق وحدتها • ان البورجوازية الوطنية التي تسارع اقليما بعد اقليم الى تشييد كيانها الخاص ، والى اقامة نظام وطني استغلالي ، تنشىء الحواجز من أجل الحيلولة دون تحقيق « حلم » الوحدة • ان البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة ، قد قررت ان تسد الطريق أمام هذا الجهد المتسق الذي يقوم به مائتان وخمسون مليونا من البشر ، في سبيل تحررهم وتحقيق انسانيتهم « لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة الافريقية لا يمكن أن تتحقق الا باندفاع الشعوب ، أي رغم أنف البورجوازية ومصالحها » • لئن ضرب فانون أمثلة مستمدة من أفريقيا على كون البورجوازيات الوطنية تحـارب الوحدة القوميـة ، فلقد كان في وسعه ، لو شهد نكسة الانفصال التي مني بها الشعب العربي ، أن يضرب مثالا فذا بين الأمثلة على تآمر البورجوازية الوطنية مع الاستعمـار على الوحدة القومية في سبيل مصالحها • ولو نظر الى واقع البلاد العربية التي تحكمها بورجوازيات وأوتوقراطيات مستغلة ، لكان له في منظر هذه الأقطار أوضح مثال على ما أراد بيانه • ان البورجوازية حين تحكم لا يمكن الا أن تضعها مصالحها في صف الانفصالية ، مهما تتظاهر بغير ذلك • هل من المعقول أن يقبل الوحدة عن رضا أولئك الذين يستأثرون بالانتفاع بثروات البترول لأشخاصهم ؟ ان الوحدة القومية لا يمكن أن تقـوم الا على أساس ازاحـة البورجوازيات المتحكمة ، وفسح مجال اللقاء للشعب في جميع أقطـاره على صعيد المصلحة الشعبية والبناء الاشتراكي • ولا يكون ذلك الا بنضال شعبي موحد في جميع الأقطار يهيىء لانقضاض الشعب على بورجوازيته الحاكمة ، وازاحتها وتدميرها • في البلاد المتخلفة يجب ان لا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والتحكم • ان على البلاد المتخلفة أن تثب فوق المرحلة البورجوازية ، لأنها مرحلة عقيمة ، ان بورجوازية كالبورجوازية التي نشأت في أوروبا قد استطاعت ان تضع أيديولوجيا • ان تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة

قد قامت بدور ما . أما في البلاد المتخلفـــة فليس هنـــــاك بوجوازية تشبه البورجوازية التي نشأت في أوروبا ، بل هناك فئة محتكرة طويلة الأنياب ، نهمة ، شرهة ، تسيطر عليها فكرة الربح التافه ، عاجزة عن تمثل أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار . انها لا تقوم بأي دور وليس لها أية فائدة . انها تافهة ، وان كانت تحجب تفاهتها بمظاهر شتى : من أبنيـــة فخمة ، وسيارات أمريكية . انها لا تستطيع أن تحقق النمو والازدهار . أن على البلاد المتخلفة ان تسير رأسا في طريق الاشتراكية .

حين نرى ثورة الجزائر تقفز الآن فوق المرحلة البورجوازية ، وتمضي قدما الى بناء المجتمع الجزائري الاشتراكي ، وتدرك مصيرها العربي فتربط بين الجزائر وبين سائر الأقطار العربية برباط الوحدة القومية العربية ، فاننا نفهم عندئذ معنى قول بن بيلا عن فانون : « لم يكن فانون رفيقا في المعركة فحسب ، بل كان مرشدا وموجها ، لأنه ترك لنا من انتاجه الفكري والسياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية » .

* * *

تصدير

بقلم : جان بول سارتر

منذ زمن غير بعيد جدا ، كان عدد سكان الأرض مليارين ، منهم خمسمائة مليون من البشر ، ومليار وخمسمائة مليون من « السكان الأصليين » • فالأولون يملكون « الكلمة » ، والآخرون يستعيرونها • وبين هؤلاء وأولئك يقوم بدور الوسطاء ملوك صغار مشترون ، واقطاعيون ، وبورجوازية زائفة ملفقة تلفيقا • وكانت الحقيقة في المستعمرات تبدو عارية ، وكانت عواصم « البلاد المستعمرة » تؤثرها مكسوة ، وكان على السكان الأصليين في البلاد المستعمرة ان يحبوا هذه العواصم ، كما يحبون أمهاتهم ان صح التعبير • وشرعت الصفوة الأوروبية تصنع صفوة من السكان الأصليين • أخذت تصطفي فتيانا مراهقين ، وترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادىء الثقافة الأوروبية ، وتحشو أفواههم بأشياء رنانة ، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان ، ثم تردهم الى ديارهم بعد اقامة قصيرة في العاصمة وقد زيفوا • ان هؤلاء الأفراد الذين هم أكاذيب حية تسعى ، قد اصبحوا لا يملكون ما يقولونه لاخوتهم ، لأنهم لا يزيدون على ان يرجعوا ما يسمعون ، فمن باريس ولندن وامستردام كنا نحن نهتف قائلين : « بارتينون ، أخوة » فاذا بشفاه تفرج في مكان من الامكنة بافريقيا أو آسيا ، لتقول : «بينون ! •• خوة ! •• » وكان ذلك هو العهد الذهبي •

وانتهى ذلك العهد ، وأخذت الأفواه تنفتح من تلقاء ذاتها • وظلت الأصوات الصفراء والسوداء تتحدث عن نزعتنا الانسانية ، ولكنها أصبحت تفعل ذلك لتأخذ علينا أننا غير انسانيين • وأصبحنا نصغي الى تلك الآراء اللبقة التي تعبر عن المرارة ، دون ان نشعر بالاستياء • لقد أحسسنا في أول

الأمر بدهشة يمازجها كبر : كيف ؟ أيتكلمون من تلقاء أنفسهم ؟ أنظروا مع ذلك ماذا خلقنا منهم ؟ وكنا لا نشك في أنهم يقبلون مثلنا الأعلى ، ما داموا يتهموننا بأننا لسنا أوفياء له • وآمنت أوروبا عندئذ برسالتها : لقد حملت الثقافة الاغريقية الى الآسيويين ، لقد خلقت هذا النوع الانساني الجديد ، نوع الزنوج الاغريق ــ اللاتين • وكنا نضيف الى ذلك سرا فيما بيننا : دعوهم يعوون ، فذلك يسري عنهم • ان الكلب الذي ينبح لا يعض •

وجاء جيل جديد نقل المسألة الى أفق آخر • لقد حاول كتاب هذا الجيل وشعراؤه ان يشرحوا لنا ، في كثير من الصبر ، أن قيمنا لا تناسب حقيقة حياتهم ، وأنهم لا يستطيعون ان ينبذوها نبذا كاملا ، ولا ان يهضموها • وكان معنى ذلك على وجه الاجمال هو هذا : انكم تشوهوننا ، فالمذهب الانساني الذي تأخذون به يدعي أننا وسائر البشر سواء ، وأعمالكم العرقيـــة تفرق بيننا وبين غيرنا • وكنا نصغي الى كلامهم في كثير من الاسترخاء : ان حكام المستعمرات لا تدفع لهم أجور من أجل ان يقرأوا هيجل ، وهم لذلك لا يقرأونه كثيرا ، ولكنهم ليسوا في حاجة الى هذا الفيلسوف لكي يعرفوا أن هذه الضمائر الشقية المعذبة تربكها تناقضاتهم • ولا جدوى • فلنجعل شقاءهم اذن يستمر ، فلن يخرج من ذلك الا هواء • وكان الخبراء يقولون لنا : اذا كان في تأوهاتهم هذه ظل من مطمح ، فهو التوق الى الانضمام • ولا مجال طبعـــا لمنحهم هذا الانضمام : والا كنا نهدم النظام الذي يقوم على زيادة الاستغلال كما تعلمون • ولكن يكفي ان ندع هذه الجزرة ماثلة أمام أعينهم حتى يركضوا• أما أن يثوروا فذلك ما كنا مطمئنين الى أنه لن يكون : أي واع مـــن هؤلاء السكان الأصليين ان يمضي الى قتل أبناء أوروبا الحسان لأن غايته الوحيدة هي أن يصير أوروبيا مثلهم ؟ لقد كنا اذن نشجع تلك الألوان من الأسى ، وفي ذات مرة لم نجد ضيرا في ان نمنح أحد الزنوج جائزة جونكور : وكان ذلك قبل عام ٣٩ •

١٩٦١ • اسمعوا هذا الكلام : « علينا أن نضيع الوقت في ثرثرات عقيمة أو في لغو يبعث على الاشمئزاز • فلنترك هذه الاوروبا التي لا تفرغ مـــن الكلام عن الانسان وهي تقتله جماعات حيثما تجده ، في جميع نواصي شوارعها، وفي جميع أركان العالم • لقد انقضت قرون •• وهي تخنق الانسانية كلهـــا تقريبا باسم « مغامرة روحية مزعومة • » • ان هذه اللهجة جديدة • من ذا الذي يجرؤ أن يتكلم بهذه اللهجة ؟ انه افريقي ، انسان من « العالم الثالث » كان مستعمرا • وهو يضيف الى ذلك قوله : « ان أوروبا قد بلغت من الجنون

والاضطراب في سرعتها أنها ماضية الى الهاوية .. التي يحسن الابتعاد عنها» . وبتعبير آخر : انها قد أفلست . هذه حقيقة لا يجمل قولها ـ أليس كذلك يا أعزائي أهل أوروبا ؟ ـ ، ولكنها حقيقة نحن جميعا مقتنعون بها في قرارتنا ، بين اللحم والجلد منا .

على أن هناك تحفظا لا بد من ذكره . حين يقول فرنسي لفرنسيين مثلا: « لقد أفلسنا » ـ وهذا ما أعرف أنه يحدث كل يوم تقريبا منذ عام ١٩٣٠ ـ فهو انما يلقي خطابا يفيض بالعاطفة ، خطابا تضطرم فيه نيران من الحنق والحب ، والخطيب هنا يضع نفسه في المغطس مع جميع أهل وطنه . ثم انه يضيف على وجه العموم قوله « اللهم ولا أن ... » . ومعنى ذلك واضح ، فهو يريد ان يقول : علينا أن لا نقترف بعد الآن خطيئة واحدة . فاذا لم تتبع وصاياه بحذافيرها فعندئذ ، عندئذ فقط ، تنهار البلاد . ومعنى ذلك ان ههنا وعيدا يعقبه نصح ، وكلام الخطيب لا يؤذي سامعيه ما دام يصدر عن الذاتية القومية المشتركة . أما حين يقول فانون أن أوروبا ساعية الى حتفها ، فهو لا يصيح صيحة من ينبه الى الخطر ، وانما هو يشخص الداء . ان هذا الطبيب لا يدعي أن أوروبا مائتة لا محالة ـ فقد رأى الناس معجزات ـ لا ولا يقدم لها وسائل الشفاء ، وانما هو يلاحظ انها تحتضر . ويلاحظ ذلك من خارج ، معتمدا على الأغراض التي استطاع أن يجمعها . أما ان يعالجها فلا . أن في رأسه هموما أخرى . انه لا يعنيه ان تفطس أو أن تعيش . وكتابه لهذا الذي يقدمه لنا ! » غابت عنكم الطبيعة الحقيقية للفضيحة : ذلك ان فانون لا « يقدم » اليكم شيئا البتة . ان كتابه الذي يراه الآخرون كاويا يظل عندكم صقيعا . ان مؤلف هذا الكتاب يتحدث عنكم في كثير من الأحيان ، ولكنه لا يتحدث اليكم أبدا . انتهى عهد جوائز جونكور السوداء وجوائز نوبل الصفراء لن يعود زمن الحائزين على الجوائز من المستعمَرين : « أيها السكان الأصليون في جميع البلاد المتخلفة ، اتحدوا ! » . يا له من سقوط ! لقد كان الآبـــاء لا يتحدثون الا الينا ، فاذا بالأبناء اصبحوا يرفضون حتى ان يعدونا أهلا لأن يخاطبونا . والكلام يدور علينا . صحيح ان فانون يذكر في عرض الحديث جرائمنا المشهورة : صطيف ، هانوي ، مدغشقر ، ولكنه لا يضيع وقته في استنكارها ، وانما هو يستعملها . ولئن كان يفضح أساليب الاستعمار ، ويحلل ما هنالك من حركة معقدة في العلاقات التي تجمع وتفرق بين المستوطنين وبين « سكان العاصمة الأوروبية » ، فهو انما يفعل ذلك لأخوته ، لأن هدفه هو ان يعلمهم كيف يحبطون مؤامراتنا .

وخلاصة القول ان « العالم الثالث » يكتشف نفسه ويخاطب نفسه بهذا الصوت • ويعلم الناس أن هذا العالم ليس متجانسا ، فما نزال نجد فيه شعوبا مستعبدة ، وأخرى نالت استقلالا كاذبا ، وأخرى تقاتل من أجل ان تحصل على سيادتها ، وأخرى فازت بحرية كاملة ولكنها تحيا مهددة بعدوان استعماري تهديدا دائما • ان هذه الفروق قد نشأت من التاريخ الاستعماري ، أي نشأت من الاضطهاد • ففي بلد من البلدان اكتفت العاصمة الاوروبية بأن تشتري عددا من الاقطاعيين ، وفي بلد آخر خلقت من هنا وهناك طبقة بورجوازية من المستعمرين ، عاملة على أن تفرق لتسود ، وفي بلد ثالث ضربت ضربة مزدوجة ، فجعلت المستعمَرة استثمارا واسكانا في آن معا • وهكذا أكثرت أوروبا الانقسامات والتعارضات ، وصنعت طبقات ، وخلقت في بعض الاحيان نزعات عرقية ، وحاولت بجميع الحيل ان تولد وأن تزيد انقسام المجتمعات المستعمرة الى طبقات • وان فانون لا يخفي شيئا : ان على المستعمرة أن تناضل ضد نفسها من أجل أن تناضل ضدنا ، أو قل ان هذين النضالين ليسا الا نضالا واحدا • ينبغي لجميع الحواجز الداخلية أن تنصهر في نار المعركة ، وعلى البورجوازية العاجزة التي تتألف من أصحاب أعمال ومن مستخدمين لدى الأوروبيين ، وعلى عمال المدن الذين ينعمون دائما ببعض الامتيازات ، وعلى الشغيلة المتكدسين في المعسكرات ، على هؤلاء جميعا أن يصطفوا في مواقع الجماهير الفردية التي هي الينبوع الحقيقي للجيش الوطني الثوري • فان الفلاحين في هذه المناطق التي تعمد الاستعمار أن يعطل فيها التقدم ، سرعان ما يكونون هم الطبقة الراديكالية اذا هم ثاروا ، ذلك انهم يعرفون الاضطهاد عاريا ، ويقاسون منه أكثر كثيرا مما يقاسي عمال المدن ، ومن أجل أن تحول بينهم وبين الموت جوعا لا يكفيك الا أن تهدم جميع الأنظمة • ومتى انتصرت هذه الطبقة كانت الثورة القوية اشتراكية • ومتى أمكن وقف اندفاعاتها فتسلمت البورجوازية المستعمرة زمام السلطة ، بقيت الدولة الجديدة في أيدي الاستعماريين رغم السيادة الصورية • وذلك ما يدل عليه مثال كاتانجا دلالة واضحة • وهكذا فان وحدة العالم الثالث لم تتحقق ، وانما هي مشروع يمضي في سبيله الى التحقيق ، مارا باتحاد جميع المستعمَرين تحت قيادة طبقة الفلاحين في كل بلد من البلدان بعد الاستقلال أو قبله على السواء • ذلك ما يشرحه فانون لاخوته بأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية : اما ان نحقق الاشتراكية الثورية معا في كل مكان ، واما ان يصرعنا ، واحدا بعد واحد ، الطغاة الذين كانوا يحكموننا • ان فانون لا يخفي شيئا : لا يخفي

ضروب الضعف ، ولا أنواع الشقاق ، ولا ألوان التزييف : هنا انطلقت الحركة انطلاقة سيئة ، وهناك أخذت تفقد سرعتها بعد انتصارات مدوية ، وهنالك توقفت فاذا أريد لها أن تستأنف كان لا بد للفلاحين من أن يلقوا بورجوازيتهم في البحر • ويحذر المؤلف قارئه من أخطر أنواع الضياع : الزعيم ، عبادة الشخص ، الثقافة الغربية ، وكذلك عودة الماضي البعيد من الثقافة الافريقية: ان الثقافة الحقة هي « الثورة » • ومعنى هذا ان هذه الثقافة تنشأ والنار حامية • ان فانون يتحدث بصوت عال • وفي وسعنا نحن الأوروبيين أن نسمعه : والدليل على ذلك انكم تمسكون الآن بأيديكم هذا الكتاب • ترى ألا يخشى أن تستفيد الدول الاستعمارية من صراحته ؟

لا ، انه لا يخشى شيئا • لقد أصبحت أساليبنا رثة بالية : قد تستطيع أن تؤخر التحرر في بعض الأحيان ، ولكنها لن توقفه • ولا تتخيلن ان في وسعنا أن نعدل طرائقنا : ان الاستعمار الجديد ، هذا الحلم الكسول الذي تحلمه عواصم أوروبا ، ليس الا هواء • ان « القوى الثالثة » لا وجود لها ، أو هي البورجوازيات العميلة التي جعلها الاستعمار في الحكم • ان أساليبنا المكيافلية ليس لها سلطان كبير على هذا العالم الذي تيقظ تيقظا قويا وفضح أكاذيبنا واحدة بعد أخرى • وليس للمستوطن المستعمر الا ملجأ واحد هو القوة ، حين يبقى له من شيء • وليس للساكن الأصلي الا اختيار واحد ، هو الاختيار بين العبودية والسيادة • هل ينفع فانون أو يضره أن تقرأوا كتابه أو لا تقرأوه ؟ انه لاخوته انما يفضح أساليبنا الماكرة العتيقة ، موقنا بأننا لا نملك لها بديلا • لاخوته هؤلاء انما هو يقول : لقد وضعت أوروبا أرجلها على أراضينا ، فينبغي لنا ان نظل نجرحها الى أن تسحبها • واللحظة مؤاتية ، فما من شيء يحدث في بنزرت أو في اليزابث فيل أو في مجاهل الجزائر ، الا وتعلم به الأرض قاطبة • والكتل متعارضة ، ويتهيب بعضها بعضا ، فلنستفد من هذا الشلل ، ولندخل في التاريخ ، وليكن دخولنا المفاجيء هذا عاملا يجعل التاريخ عاما لأول مرة • لنقاتل • وحسبنا الخنجر الصابر سلاحا اذا أعوزتنا أسلحة اخرى •

أيها الأوروبيون ، اقرأوا هذا الكتاب ، أدخلوا فيه • فبعد ان تسيروا بضع خطوات في الظلام ستجدون أناسا أجانب قد تحلقوا حولنا النار • اقتربوا منهم ، وأصغوا اليهم : انهم يبحثون في المصير الذي يهيئونه لوكالاتكم وعملائها الذين يحمونها • قد يرونكم ، ولكنهم سيستمرون في التحدث حتى دون أن يخفضوا أصواتهم • ان عدم اكتراثهم هذا يحز في

القلب : ان آباءهم الذين كانوا مخلوقات تعيش في كنفكم ، مخلوقات أنتم خالقوها ، ان آباءهم أولئك كانوا نفوسا ميتة • كنتم تغدقون عليهم النور ، وكانوا لا يتجهون بالحديث الا اليكم ، وكنتم لا تكلفون أنفسكم عناء الرد على هؤلاءالبدائيين • ولكن الابناء يجهلونكم : انهم يستضيئون ويستدفئون بنار ليست ناركم • ولسوف تشعرون • وأنتم منهم على مسافة تهيبا ، أنكم متخفون متسللون في الظلام خائفون • لكل دورة ، وفي هذه الظلمات التي سينبجس منها فجر جديد ستكونون أنتم البدائيين •

لعلكم قائلون : ما دام الأمر كذلك فلنرم هذا الكتاب من النافذة • لماذا نقرؤه اذا لم يكن مكتوبا لنا ؟الحق ان هناك باعثين يجب ان يدفعاكم الى قراءة هذا الكتاب : أولها أن فانون يشرح أمركم لاخوته ، ويحلل لهم أنواع الضياع التي تعيشها : فاستفيدوا من ذلك لتكشفوا لأنفسكم عن انفسكم من حيث أنكم في حقيقتكم أشياء • ان ضحايانا يعرفوننا بواسطة جراحهم وأغلالهم: وهذا ما يجعل شهادتهم صادقة لا ترد • يكفي ان يظهرونا على ما صنعناه بهم حتى نعرف ما صنعناه بأنفسنا • أهذا مفيد ؟ نعم ، لأن أوروبا مهددة ان تموت تهديدا كبيرا • قد تقولون أيضا : ولكننا نعيش في أوروبا ونستنكر الافراط • صحيح : انكم لستم مستوطنين في البلاد المستعمَرة • ولكنكم لستم خيرا من اولئك المستوطنين • انهم روادكم ، أنتم أرسلتموهم الى ما وراء البحار ، وقد أغنوكم • .لقد أنذرتموهم ، قلتم لهم انكم ستنكرون أعمالهم من أطراف الشفاه اذا هم أسرفوا في سفك الدماء • مثلكم في ذلك مثل دولة ــ أية كانت هذه الدولة ــ تغذي في الخارج جمهرة من المثيرين والمحرضين الجواسيس ، فاذا قبض عليهم أنكرتهم • انكم وأنتم من أنتم تحررية وانسانية وحبا للثقافة الى حد التصنع ، تتظاهرون بأنكم تنسون أن لكم مستعمرات ، وان هناك أناسا يقومون بأعمال القتل الجماعي باسمكم • ان فانون يكشف لرفاقه ــ لعدد من رفاقه خاصة ، هم الذين ظلوا مغالين بعض المغالاة في غربيتهم ــ يكشف لهؤلاء الرفاق تضامن « سكان أوروبا » مع عملائهم في المستعمرات • تسلحوا بالجرأة وأقدموا على قراءة هذا الكتاب ، لهذا السبب الأول وهو أنه سيشعركم بالخجل ، والخجل كما قال ماركس عاطفة ثورية • ها أنتم أولاء ترون أنني أنا أيضا لا أستطيع ان أتخلص من الوهم الذاتي • انا أيضا أقول لكم : « لقد ضاع كل شيء ، اللهم الا ان •• » • أيها الأروبي ، انني أسرق كتاب عدو فاتخذه وسيلة لشفاء أوروبا من دائها • انتفع بهذا الكتاب •

* * *

واليكم السبب الثاني : اذا تركتم جمجمات سوريل الفاشية وجدتم أن فانون هو أول من يعيد مولدة التاريخ الى النور بعد أنجلز • ولا يذهبن بكم الظن الى ان دما مسرفا في الغليان أو الى ان اشقاء الطفولة هو الذي جعله يحب العنف حبا خاصا : ان فانون يشرح الموقف لا أكثر من ذلك • ولكن هذا يكفي لأن يصور ، مرحلة مرحلة ، ذلك الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبرالي ، والذي أنتجنا كما أنتجته •

لقد كانت البورجوازية ، في القرن الماضي ، تعد العمال أناسا حسودين قد أفسدتهم شهوات فظة ، ولكنها كانت تحرص على أن تحشر هؤلاء الجفاة المتوحشين في عداد نوعنا الانساني : والا فكيف يمكنهم أن يبيعوا قدرتهم على العمل بيعا حرا اذا هم لم يكونوا بشرا ؟ كانت النزعة الانسانية في فرنسا وانجلترا تدعي انها تساوي بين جميع أفراد البشر •

ولا كذلك في العمل الاكراهي • ان العمل الاكراهي لا يقوم على تعاقد ولا بد عدا ذلك من التخويف • وهكذا ظهر الاضطهاد • ان جنودنا فيما وراء البحار ينبذون فكرة المساواة بين البشر ، ويطبقون على النوع الانساني مبدأ « العدد المغلق » : اذ لما كان لا يستطيع احد ان يسلب رزق أخيه الانسان أو ان يستعبده أو أن يقتله الا ويكون قد اقترف جريمة، فقد أقروا هذا المبدأ وهو ان المستعمَر ليس شبيه الانسان • وعهد الى قوتنا بمهمة احالة هذا اليقين المجرد الى واقع : صدر الأمر بخفض سكان البلاد الملحقة الى مستوى القرود الراقية ، من أجل تسويغ ان يعاملهم المستوطن معاملته للدواب • ان العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على اخضاع هؤلاء البشر المستعبَدين وانما هو يحاول ان يجردهم من إنسانيتهم • انه لن يدخر جهدا من أجل ان يقضي على تقاليدهم ، ومن أجل ان تحل لغتنا محل لغاتهم ، ومن أجل ان يهدم ثقافتهم دون ان يعطيهم ثقافتنا • لسوف يصعقهم تعبا • فاذا ظلوا يقاومون رغم الجوع والمرض ، فلسوف يتولى الخوف القيام بالمهمة : لسوف تصوب الى الفلاح بنادق • ويأتي مدنيون فيستقرون على أرضه ، ويكرهونه بالسياط على أن يزرعها لهم « فاذا قاوم أطلق الجنود النار ، فأصبح ميتا ، واذا خضع انهار ولم يعد انسانا • لسوف يمزق العار والخوف خلقه ، لسوف يحطمان شخصه • ويتم تحقيق هذه المهمة على أيدي خبراء اختصاصيين ، والطبول تقرع : ان « الدوائر السيكولوجية » ليست حديثة العهد ، لا ولا غسل الدماغ • ومع ذلك ، رغم هذه الجهود كلها ، لم يتحقق الهدف في أي مكان : لم يتحقق في الكونغو حيث كانوا يقطعون أيدي الزنوج ، ولا تحقق في انجولا حيث كانوا ،

منذ زمن قصير جدا ، يثقبون شفاه المتذمرين ليقفلوها بأقفال • لست أدعي أن من المستحيل ان تبدل انسانا فتجعله بهيمة ، وانما اقول انك لا تصل الى ذلك الا باضعافه اضعافا كبيرا ، واللطمات لا تكفي ابدا ، ولا بد من المبـالغة في التجويع • وهذه هي المشكلة المزعجة : انك حين تجعل فردا من أفراد نوعنا الانساني أشبه بدابة ، تقلل انتاجه ، والانسان الذي يصبح حيوانا أهليا يكلف من النفقات أكثر مما يعطي من أرباح • ولهذا السبب يضطر المستوطنون الى وقف الترويض في منتصف الطريق ، وتكون النتيجة ان لا يكون هـــذا المستعمَر انسانا ولا بهيمة ، وانما يكون من نوع « السكان الأصليين » : انه وقد أحيط بالضرب والتجويع والمرض والتخويف ، ولكن الى حد محدود ، يتصف خلقه دائما بصفات واحدة ، سواء أكان أصفر أم أسود أم أبيض ، وهذه الصفات هي انه كسول ماكر لص ، يعيش بالقليل ولا يعرف الا القوة •

مسكين هذا المستوطن : لقد عري تناقضه • ان عليه ان يقتل أولئك الذين ينهبهم ، كما يفعل الجني فيما يقال • ولكن ذلك غير ممكـــن : أليس عليه ايضا ان يستغلهم ؟ وهكذا ، فلأنه لا يستطيع ان يمضي في التقتيل الى حد ابادة النوع ، ولا يستطيع ان يمضي في الاستعباد الى حد جعل البشر بهائم، يفقد مواطئ قدميه ، وينقلـــب الأمر ، فاذا بمنطق محتوم يؤدي الى زوال الاستعمـــار •

ليس فورا • ان الأوروبي يسيطر • صحيح انه خسر ، ولكنه لا يدرك ذلك • انه لا يعلم بعد ان « السكان الأصليين » ليسوا كما يتصور « السكان الأصليين » • هو يقول انه يلحق بهم شرا من أجل ان يهدم او يكبح الشر الذي فيهم ، بعد ثلاثة أجيال لن تولد فيهم غرائزهم الفاسدة من جديد•• أية غرائز؟ أهي التي تدفع العبيد الى قتل سيدهم ؟ فكيف لا يرى في هذه الغرائز قسوته هو وقد انقلبت عليه ؟ كيف لا يرى في وحشية هؤلاء الفلاحين المضطهَدين وحشيتههو وقد امتصوها بجميع المسام ، وأصبحوا لا يستطيعون ان يبرأوا منها ؟ سبب ذلك بسيط : ان هذا الشخص المتجبر الذي أطاش صوابه ما يتمتع به من سلطة كاملة ، وما يشعر به من خوف عليها ، أصبح لا يتذكر جيدا أنه كان انسانا ، وانما هو يحسب نفسه سوطا او بندقية ، حتى بلغ من ذلك الى الاعتقاد بأن ترويض « العروق المنحطة » انما يكون باخضاع منعكساتهـــم للربط الشرطي • انه ينسى الذاكرة الانسانية ، ينسى الذكريات التي لا تمحى • وهناك خاصة ، هذا الشيء الذي لعله لم يعلمه يوما : أننا لا نصبح ما نحن الا نحن الا بالانكار الداخلي الجذري لما صنع بنا ثلاثة أجيال ؟ ان الأبناء،

منذ الجيل الثاني ، ما كادوا يفتحون أعينهم حتى رأوا أبنـــاءهم يضربون • وبذلك تكونت فيهم صدمات ، على حد تعبير علم الأمراض النفسية ، مدى الحياة • وهذه العدوانات التي ما تنفك تتكرر لا تحملهم على الخضوع ، وانما تلقيهم في تناقض لا يطاق سيدفع الأوروبي ثمنه عاجلا أو آجلا • لك بعد ذلك أن ترضوهم هم ايضا ، وان تعلمهم العار والألم والجوع، فلن تسير في أجسامهم الا حنقا يغلي غليان البراكين وتساوي قوته قوة الضغط الذي يقع عليهم • قلتم : انه لا يعرف الا القوة ؟ طبعا • هي اولا قوة المستوطن ، وهي بعدئذ قوتهم ، انها قوة واحدة بعينها ترتد الينا كاقبال خيالنا علينا من قرارة مرآة • لا يخدعنكم أمر هذه القوة • انهم بهذا الحنق المسعور ، وهذا الغيظ وهذه المرارة ، وبرغبتهم الدائمة هذه في ان يقتلونا ، وبهذا التقبض المستمـــر في العضلات القوية التي تخاف ان تسترخي ، انهم بهذا كله بشر • لقد اصبحوا كذلك من أجل أن يقاوموه • ان الكره الذي ما يزال أعمى وما مجردا من كنزهم الوحيد: ان « السيد » هو الذي يثير فيهم هذا الكره ، لأنه يريد أن يجعلهم كالبهائم ، وهو لا يظفر بتحطيم هذا الكره ، لأن مصالحه تجعله يتوقف في منتصـــف الطريق ، وهكذا يظل « السكان الأصليون » بشرا ، ربما للمضطهِد من قوة وعجز يستحيلان عندهم الى رفض عنيد للمصير الحيواني • أما ما عدا ذلك فواضح • انهم كسالى ، طبعا • ذلك منهم تخريب مقصود • وهم ماكرون لصوص : مرحى ! ان سرقاتهم الصغيرة تدل على بداية المقاومة التي لم تتنظم بعد • لا هذا فحسب : ان منهم من يؤكد ذاته بأن يلقي بنفسه عاري اليدين على البنادق • هؤلاء هم أبطالهم • ومنهم من يجعلون أنفسهم رجالا بقتل أوروبيين • وتقتلونهم : لصوصا وشهداء ، فاذا بعذابهم يوري النيران في نفوس الجماهير المذعورة •

المذعورة ، نعم : ففي هذه اللحظة الجديدة يصير العدوان الاستعماري في نفوس المستعمَرين الى ذعر • ولست أعني بالذعر ما يشعرون به من خوف ازاء أساليبنا في القمع ، هذه الأساليب التي ينضب معينها ، لست أعني هذا فحسب ، وانما أعني أيضا ذلك الخوف الذي يثيره في نفوسهم حنقهم هم • انهم محاصرون بين أسلحتنا المصوبة اليهم ، وبين تلك الاندفاعات الرهيبة وتلك الرغبة في القتل التي تصعد من اعماق قلوبهم ، والتي لا يتعرفون عليها دائما ، لأنها ليست في أول الأمر عنفهم هم ، وانما هي عنفنا نحن وقد انقلب واشتد وأصبح يمزقهم • والحركة الأولى التي تقوم في نفوسهم هي ان يدفنوا دفنا عميقا ذلك الغضب المكتوم الذي تستنكره أخلاقهم وأخلاقنا معا ، والذي

ليس مع ذلك الا آخر ملجأ تفزع اليه انسانيتهم • اقرأوا فانون تعلموا ان جنون القتل انما هو اللاشعور الجمعي للمستعمَرين في زمن عجزهم •

ان هذا الحنق المكتوم يظل يلوب في صدر المضطهدين فيفسدهم هم أنفسهم حين لا يستطيع ان ينطلق • وهم ينتهون من أجل التحرر منه الى ان يقتل بعضهم بعضا ، فالقبائل تقتتل فيما بينها.لأنها لا تستطيع أن تجابه العدو الحقيقي – وفي وسعكم ان تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لتغذية خصوماتهم – • ان الاخ الذي يشهر السكين على أخيه يحسب أنه يهدم تهديما نهائيا تلك الصورة الكريهة لفسادهما المشترك • غير ان هذه الضحايا التكفيرية لا تروي ظمأهم الى الدم • ولن يمتنعوا عن ان يسيروا الى الرشاشات الا اذا تواطأوا معنا : وهذا التخلي عن الانسانية ، هذا التخلي الذين ينفرون منه ، تراهم يعجلون تقدمه بارادتهم نفسها • وهم يحمون أنفسهم من أنفسهم بأسيجة غيبية يراها المستوطن فيتسلى بها : فتارة يحيون خرافات عتيقة فظيعة ، وتارة يكبلون انفسهم بطقوس دقيقة • هكذا يهرب المصاب بمرض الحصار من اللجاجة العميقة التي تلح عليه ، بأن يفرض على نفسه لوثات تطارده في كل لحظة • انهم يرقصون : ذلك يشغلهم ، وذلك يرخي عضلاتهم المتقبضة تقبضا مؤلما ، ثم ان الرقص يحاكي ، سرا ، على غير علم منهم في كثير من الأحيان ، كلمة « لا » التي لا يستطيعون أن يقولوها ، ويحاكي أعمال القتل التي لا يستطيعون ان يقترفوها • وفي بعض المناطق يعمدون الى هذا الملجأ الأخير : المس • فالأمر الذي كان في الماضي هو الظاهرة الدينية في بساطتها ، الأمر الذي كان في الماضي نوعا من الاتصال بين المؤمن وبين المقدس ، يتخذونه سلاحا يحاربون به اليأس والمذلة : فأشخاص وما شابهها تحل فيهم ، وتسيطر على عنفهم وتبعثره تشنجات تمضي الى حد استنفاد القوى • وهذه الشخوص السامية تحميهم في الوقت نفسه : ان المستعمرين يحمون أنفسهم من الضياع الاستعماري بالمغالاة في الضياع الديني ، مع هذه النتيجة الوحيدة آخر الأمر ، وهي انهم يجمعون الضياعين ، وان كلا من هذين الضياعين يعزز الضياع الآخر • هكذا في بعض أمراض الذهان ، نرى المصابين بالهلوسة يقررون ذات صباح ، وقد تعبوا من الاهانات التي تصب عليهم كل يوم ، أن يسمعوا صوت ملاك يمدحهم • ولا تنقطع الشتائم بسبب ذلك ، وانما هي تتناوب بعد الآن مع الغبطة والهناءة • ذلك دفاع ، وهو نهاية مغامرتهم : لقد انقسم الشخص ، وهو يسير الآن نحو الجنون • أضيفوا الى ذلك ، بالنسبة الى بعض التعساء المصطفين اصطفاء صارما ، أضيفوا ذلك المس

الآخر الذي تحدثت عنه منذ قليل : أعني الثقافة الغربية · رب قائل يقول : لو كنت مكانهم لظللت أوثر حفلات الزار على معبد الأكروبول · اذن لقد فهمتم · ولكنكم مع ذلك لم تفهموا فهما كاملا ، لأنكم لستم في مكانهم · والا لأدركتم أنهم لا يستطيعون أن يختاروا : انهم يجمعون · ان لهم عالمين ، وهذا ما يجعلهم ممسوسين مسين : انهم يرقصون طوال الليل ، حتى اذا طلع الفجر هرعوا الى الكنائس يسمعون الصلاة · ويتفاقم الصدع يوما بعد يوم · ان عدونا يخون اخوته ويتواطأ معنا · ويفعل اخوته مثل الذي فعل · ان صفة «السكان الأصليين» عصاب أدخله المستوطن على المستعمرين وغذاه بموافقتهم ·

وأن تطالب بالمصير الانساني وأن تنكره في آن واحد ، فذلك تناقض انفجاري · وهو لذلك ينفجر ، تعلمون هذا مثلما أعلمه · اننا نعيش في زمن الانفجار : زيادة الولادات تزيد العوز ، وعلى المواليد الجدد أن يخشوا الحياة أكثر قليلا مما يخشون الموت ، لذلك يجرف العنف جميع الحواجز · ففي الجزائر ، وفي أنجولا لا يقتل الأوروبيون علنا · هذه لحظة الانفجار ، هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل العنف : ان العنف يرتد الينا ، ويضربنا ، ثم نحن لا نفهم ان هذا العنف هو عنفنا نحن أكثر مما فهمنا ذلك في المرات الأخرى · ان الليبراليين يظلون مشدوهين : انهم يعترفون اننا لم نكن على قدر كاف من الكياسة في معاملة « السكان الأصليين » ، وانه كان أدنى الى العدل والتعقل ان نمنحهم بعض الحقوق في حدود الامكان ، فلقد كانوا لا يطمعون في أكثر من أن نسمح لهم بدخول هذا النادي المحكم الاغلاق ، نوعنا الانساني ، ان نقبلهم في هذا النادي أفواجا بلا مزكين : وها هم أولاء يجتاحهم ذلك الانفجار الوحشي المسعور كما يجتاح أشرار المستوطنين · واليسار في العواصم الأوروبية متزعج : انه يعرف القدر الحقيقي المفروض على « السكان الأصليين » ، ويعرف ما يقع عليهم من اضطهاد لا يرحم ، وهو لا يستنكر تمردهم ، عالما بأننا فعلنا كلا شيء من أجل تحريضهم على هذا التمرد ، ولكنه يقول : ان هنالك حدودا مع ذلك : لقد كان ينبغي لهؤلاء المقاتلين ان يحرصوا على أن يتحلوا بروح الفروسية ، فتلك خير وسيلة يبرهنون بها على أنهم بشر · وهو يؤنبهم في بعض الأحيان قائلا : « لقد أسرفتم · ولن ندعمكم بعد الآن · » ولكنهم لا يكترثون بهذا التهديد ، ذلك لانهم يعرفون قيمة هذا الدعم الذي يمن به عليهم ، ويستخفون به · لقد أدركوا هذه الحقيقة الصارمة منذ بدأوا حربهم ، وهي : أننا جميعا سواء ، لقد استفدنا جميعا منهم ، وليس عليهم أن يبرهنوا لنا على شيء ، ولن يشكروا لأحد منة · ان هناك واجبا

واحدا يقع على عاتقهم ، ان هناك هدفا واحدا يجب أن يحققوه ، هو ان يطردوا الاستعمار بجميع الوسائل • والمتبصرون منا مستعدون ، عند الضرورة ، لأن يقبلوا هذا ، ولكنهم لا يستطيعون الامتناع عن أن يعدوا هذا العنف وسيلة غير انسانية البتة يعمد اليها جماعة هم دون البشر من أجل أن يمنحوا حقوق الانسانية ، فامنحوهم هذه الحقوق بأقصى سرعة ، وليحاولوا عندئذ بأعمال سلمية أن يستحقوها • ألا ان فضلاءنا لعرقيون •

وسيستفيدون من قراءة فانون : لسوف يوضح لهم فانون توضيحا كاملا أن هذا العنف الجامح ليس زوبعة سخيفة ، ولا هو تيقظ غرائز وحشية ، بل ولا هو ثمرة حقد : ان الانسان نفسه يشكل نفسه تشكيلا جديدا • هذه الحقيقة ، اعتقد اننا علمناها ونسيناها : ان علائم العنف لا يستطيع لين أن يمحوها : ان العنف وحده يستطيع ان يهدمها • والمستعمَر يشفى من عصاب الاستعمار : بطرد المستعمِر بالسلاح • انه حين ينفجر حنقه يسترد شفافيته المفقودة ، ويعرف نفسه بمقدار ما يصنع نفسه • نحن من بعيد نعد حربه انتصارا للتوحش ، ولكن هذه الحرب تؤدي بذاتها الى تحرير المقاتل بالتدريج ، فهي تزيل من نفسه ومن خارج نفسه ظلمات الاستعمار شيئا بعد شيء • أنها منذ تبدأ لا ترحم • فاما أن يظل المرء مذعورا ، واما أن يجعل غيره مذعورا • معنى ذلك : اما الاستسلام لانقسامات حياة مزيفة ، واما الظفر بالوحدة الولادية • حين يقبض الفلاحون على البنادق ، فان جميع الخرافات تبهت ألوانها ، وان جميع الممنوعات تنهار واحدا بعد آخر : ان سلاح المقاتل هو انسانيته • اذ في أول مرحلة من مراحل الثورة ، يجب عليه أن يقتل • انه حين يقتل أوروبيا يضرب بحجر واحد ضربتين : يزيل مضطهِدا ومضطهَدا في آن واحد : اذ يبقى بعد القتل رجل ميت ورجل حر • والذي يبقى حيا يشعر ، لأول مرة ، بأرض قومية تحت قدميه • ففي هذه اللحظة لا تكون الأمة بعيدة عنه : إنه يراها حيث يمضي ، حيث يكون ، لا أبعد من ذلك أبدا ، انها تتحد بحريته • ولكن ، بعد المفاجأة الأولى ، يتحرك جيش الاستعمار : وعندئذ فاما أن يتحد المستعمرون واما ان يقتلوا • هكذا تضعف الخلافات القبلية وتجنح الى الزوال : أولا لأنها تهدد « الثورة » بالخطر ، وثانيا « وهذا أعمق » لأنها لم يكن لها من وظيفة الا ان تحرف العنف نحو أعداء ليسوا بأعداء • وحين تبقى هذه الخلافات ــ كما في الكونغو ــ فانما يكون مرد ذلك الى أن عملاء الاستعمار يغذونها ويعززونها • وتسير الامة • ويشعر كل أخ أنها موجودة في كل مكان يقاتل فيه أخوة آخرون • ان حبهم الأخوي هو الوجه الآخر للكره

الذي يحملونه لكم : هم أخوة بهذا المعنى : أن كلا منهم قد قتل ، وانه يمكن بين لحظة وأخرى ان يكون قد قتل · ان قانون يبين لقرائه حدود « العفوية » ، ويبين ضرورة « التنظيم » وأخطاره · ولكن مهما يكن مدى المهمة فأن الوعي الثوري يعمق عند كل نمو في العمل · وتزول العقد الأخير · دعك من حديثهم عن « عقدة الارتباط » لدى جندي جيش التحرير الوطني · ان الفلاح ، وقد تحرر على العماوة ، أصبح يعرف حاجاته : لقد كانت تقتله ، ولكنه كان يحاول أن يجهلها · وهو الآن يكتشفها مقتضيات لا نهاية لها · ففي هذا العنـــف الشعبي ـ الذي يصمد خمس سنين ، وثماني سنين كما فعل الجزائريون ـ لا يمكن ان تتميز الضرورات الحربية والاجتماعية والسياسية بعضهـــا عن بعض · ان الحرب ـ ولو لم تطرح الا مشكلة القيادة والمسؤوليات ـ تنشىء بنيانات جديدة ستكون أولى مؤسسات السلم · هذا هو الانسان اذن ينشأ حتى في تقاليد جديدة هي بنات مقبلة لحاضر رهيب ، ها هوذا ينال شرعيته ، بحق سيولد ، بحق يولد كل يوم في نار المعركة · فمتى قتل أو رحل او ذاب آخر مستوطن مستعمر ، زال نوع الأقلية ، وأخلى المكان للأخوة الاشتراكية · وليس هذا بكاف أيضا · ان هذا المناضل يحرق المراحل · انكم لتقـــدرون جيدا انه لا يجازف بجلده من أجل ان يجد نفسه في مستوى الانسان القديم ، انسان « البلاد المستعمرة » · انظروا الى صبره الطويل · لقد يحلم أحيانا بـ « ديان ـ بيان ـ فو » جديدة · ولكن ثقوا انه لا يعتمد على ذلك حـــق الاعتماد · اية صعلوك يناضل ، وهو في الفقر والبؤس ، ضد أنـــاس أغنياء مسلحين تسليحا قويا · وهو اذ ينتظر الانتصارات النهائية، أو لا ينتظر شيئا في كثير من الأحيان ، يثير في أعدائه الحقد ، ولا يتحقق هذا من غير خسارات فظيعة · ان جيش الاستعمار يصبح كاسرا · فهو يقوم بعمليـــات تطهير ، ويشن حملات انتقامية ، ويقتل النساء والأطفال · والمناضل يعرف ذلك · ان هذا الانسان الجديد يبدأ حياته من نهايتها · انه يعد نفسه ميتا بالقـــوة · لسوف يقتل · انه لا يرضى ان يعرض نفسه للقتل فحسب ، بل هو موقن بأنه مقتول لا محالة · ان هذا الميت بالقوة قد فقد زوجته وأبناءه · لقد بلغ من فرط رؤيته لاحتضار الآخرين انه لا يريد ان يعيش بقدر ما يريد ان ينتصر · غيره سيستفيد من النصر ، لا هو · لقد سئم هو · لكن هذه السآمـــة هي مصدر شجاعة لا تصدق · نحن نجد انسانيتنا سابقة على الموت واليأس ، أما هو فيجدها بعد العذاب وبعد الموت · نحن كنا ننثر هواء ، أما العاصفة فهو ·

انه ابن العنف يستمد منه في كل لحظة انسانيته • لقد كنا بشرا على حسابه، وهو يصبح بشرا على حسابنا يصبح انسانا أفضل •

* * *

هنا يتوقف فانون • لقد دل على الطريق • انه وهو الناطق بلسان المناضلين ، قد طالب باتحاد القارة الافريقية ضد جميع الخلافات وجميع الانقسامات ، قد طالب بوحدة القارة الافريقية ضد هذه الخلافات والانقسامات • ولو شاء أن يصف وصفا كاملا هذه الحادثة التاريخية ، أعني حادثة الخلاص من الاستعمار ، لكان عليه ان يتحدث عنا ، وذلك ليس موضع كلامه • ولكننا بعد ان نقرأ كتابه يظل هذا الكتاب يتتابع فينا رغم مؤلفه • ذلك أننا نشعر بقوة الشعوب الثائرة ، ونرد على هذه القوة بالقوة • فهناك اذن لحظة جديدة من العنف ، والينا انما ينبغي الرجوع في هذه المرة ، لأن العنف أخذ يبادلنا بمقدار ما يتبدل المستعمَر بواسطته • ان لكل انسان ان يقود أفكاره كما يشاء ، ولكن شريطة ان يفكر • ففي أوروبا اليوم ، أوروبا التي أطاشت صوابها الضربات التي تكال لها ، في فرنسا وفي بلجيكا وفي انجلترا ، يجب ان يعد أقل تغافل فكري تواطؤا اجراميا مع الاستعمار • ان هذا الكتاب لم يكن في حاجة الى مقدمة ، خاصة وانه غير موجه الينا • ومع ذلك كتبت له هذه المقدمة ، من أجل أن أمضي بالديالكتيك الى أقصاه • انهم يخلصوننا من الاستعمار ، نحن ايضا ، أجل أوروبا • انهم يجتثون بعملية دامية، المستعمِر الموجود في كل منا • لننظر في أنفسنا ، ولنر ، اذا كانت لنا شجاعة ، ما الذي يحدث لنا •

يجب أولا ان نواجه هذا المنظر غير المتوقع • تعري دعوانا الانسانية • هذه هي دعوانا الانسانية مكشوفة العوارت غير جميلة • انها لم تكن الا ايديولوجيا كاذبة • لقد كانت تسويغا مزوقا للنهب والسلب • لقد كانت رقتها وغندرتها كفالة وضمانة لعدواننا • ان لهم وجها لطيفا هؤلاء الذين لا يحبون العنف • ليسوا ضحايا ولا هم جلادون ! ولكن دعك من هذا الكلام ! ان لم تكونوا ضحايا ، حين تقوم الحكومة التي رفعتموها بالاستفتاء ، ويقوم الجيش الذي خدم فيه إخوتكم الصغار ، بأعمال ابادة للنوع الانساني ، بلا تردد ، وبلا عذاب ضمير ، فانكم جلادون ولا شك • واذا اخترتم ان تكونوا ضحايا بتعريض أنفسكم لسجن يوم أو يومين ، فأنتم لا تزيدون على ان تنسحبوا • ويجب ان لا تنسحبوا ، يجب ان تبقوا الى النهاية • افهموا اخيرا هذه الحقيقة : لو ان العنف قدبدأ في هذا المساء ، ولو ان الاستغلال والاضطهاد لم يوجدا على الأرض ، فان اللاعنف الذي تنادون به قد ينفع في تهدئة

الشجار • أما وان النظام كله ، وحتى أفكار اللاعنف التي تنادون بها ، هي ثمرة اضطهاد عمره ألوف السنين ، فان سلبيتكم لا تزيد على ان تضعكم في صف المضطهـدين •

انكم تعلمون حق العلم أننا مستغلون • انكم تعلمون حق العلم أننا سلبنا « القارات الجديدة » ذهبها ومعادنها ثم بترولها ، وجئنا بذلك كله الى بلادنا القديمة • وقد حصلنا من ذلك نتائج رائعة : قصورا وكاتدرائيات وعواصم صناعية • ثم حين كانت الأزمة تهددنا كانت وظيفة اسواق البلاد المستعمَرة ان تزيل الأزمة او ان تحول مجراها • وأتخمت أوروبا بالثروات ، ومنحت صفة الانسانية لجميع سكانها على السواء ، فالانسان في بلادنا شريك في الجريمة ، لأننا أفدنا جميعا من استغلال المستعمرات • ان هذه القارة الدسمة الصفراء تنتهي الى ما يطلق عليه فانون اسم « النرجسية » بحق • ان كوكتو ينزعج من باريس « هذه المدينة التي تتحدث في كل لحظة عن نفسها » • وأوروبا ، هل تفعل غير هذا ؟ وذلك المسخ الذي فاق أوروبا ، أمريكا الشمالية ؟ يا لها من ثرثرة : حرية ، مساواة ، أخوة ، محبة ، شرف ، وطن ، وما لا أدري أيضا ! وكأن هذا الكلام لا يمنعنا من ان نقول في الوقت نفسه كلاما يعبر عن العصبية العرقية : زنجي قذر ! وكان بعض الطيبين ، الليبراليين اللينيين ـ اي بعض الاستعماريين الجدد ـ يدعون أنهم يستغربون هذا التناقض • وذلك خطأ أو كذب مقصود • فلا شيء أقرب الى الانسجام المنطقي عندنا من نزعة انسانية عرقية ، لأن الأوروبي لم يستطع ان يجعل نفسه انسانا الا بخلـــق عبيد ومسوخ • ولم تنكشف هذه الخدعة ما ظل هناك أناس يقال لهـــم « سكان أصليون » • لقد كانوا يغطون بهذه الموضوعة المجردة ، موضوعة النـــوع الانساني العام ، اعمالا لا تتفق مع هذه الموضوعة : كانوا يرون هناك علـى الجهة الأخرى من البحر كائنات هي دون الانسان ، قد تستطيع بعد ألف عام أن تصل بفضلنا الى الحالة التي نحن عليها • كانوا اذن يخلطون بين النوع الانساني والصفوة • واليوم يكشف السكان الأصليون عـن حقيقتهـــم ، فيكشف نادينا عن ضعفه • لقد كان نادينا أقلية لا أكثر من ذلك ولا أقل • بل هناك ما هو أسوأ من ذلك : ما دام الآخرون يصبحون بشرا بمقاتلتنـا ، فنحن اذن أعداء النوع الانساني • ان الصفوة تكشف عن طبيعتها الحقة : انها عصابة • ان قيمنا الغالية تفقد أجنحتها • فلو نظرت اليها من كثب لم تجد منها واحدة غير ملطخة بالدم • اذا أردتم أمثلة فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة : ما أكرم فرنسا ! من ؟ أنحن كرماء ؟ فما قولكم اذن في حوادث صطيف ؟ مـــا

قولكم في هذه السنين الثماني من حرب كاسرة أزهقت أرواح أكثر من مليون جزائري ؟ ولكن ثقوا أنهم لا يأخذون علينا اننا خنا رسالة ما ، لسبب بسيط هو انه لم تكن لنا أية رسالة • ان الكرم هو بعينه موضوع الجدل • فهذه الكلمة الرنانة ليس لها الا معنى واحد هو منح حقوق ، وهؤلاء البشر الذين نواجههم ، هؤلاء البشر الجدد المتحررون ، ليس لأحد في نظرهم قدرة على أن يمنح شيئا لأحد ، ولا له هـذا الامتياز • ان لكل امرىء جميع الحقوق وحين سيتاح لنوعنا الانساني يوما ان يتكون ، فلن يعرف بأنـه مجموع سكان الكرة الأرضية ، وانما سيعرف بأنه الوحدة اللانهائية لما بينهم من تبادل وتشارك • وهنا أقف عن الكلام ، ففي وسعكم ان تتموا العمل بغير عناء • انه ليكفيكم ان تنظروا الى فضائلنا الارستقراطية نظرة سديدة ، لأول مرة وآخر مرة ، حتى تدركوا أنها تموت • وكيف لها ان تبقى حية بعد فناء ارستقراطية الذين أنشأوها من أناس هم دون الانسان ! ان معلقـا بورجوازيا ـ واستعماريا ـ أراد ان يدافع منذ بضع سنين عن الغرب فلم يجد الا هذا الكلام : « نحن لسنا ملائكة ، ولكننا ، نحن نشعر بعذاب الضمير يا له من اعتراف لقد كانت قارتنـا تملـك في القديم عوامـات أخـرى : البارثنون ، شارتر ، حقوق الانسان ، الصليب المعقوف • ونحن نعرف الآن قيمة هذه العوامات • لقد أصبحوا لا يطمعون في انقاذنا من الغرق الا بذلك الشعور المسيحي جدا ، الشعور باثمنا ـ ها أنتم ترون اذن انها النهاية : أن المياه تحف بأوروبا من كل جهة • فما الذي حدث ؟ ان الجواب على هـذا السؤال بسيط : لقد حدث أننا كنا نصنع التاريخ ، فأصبح التـاريخ الآن يصنعنا • لقد انقلبت الآن نسبة القوى ، والتخلص من الاستعمار مـاض في طريقه • وكل ما يستطيع الجشعون ان يحاولوا فعله هو ان يؤخروا اتمامه•

ولا تزال « العواصم الأوروبية » العتيقة تدلي في هذا بدلوها ، وتورط في معركة خاسرة منذ الآن جميع قواها • ان هذه الوحشية الاستعماريـة الهرمة التي صنعت لبيجو واضرابه ذلك المجد المشكوك فيه ، نحن نجدها الآن في نهاية المغامرة مضاعفة وغير كافية • لقد أرسلوا الى الجزائر كل ما يمكن ارساله من قوى ما تزال ترابط هنالك بغير نتيجة • لقد غير العنـف اتجاهه ، كنا ونحن منتصرون ، نمارسه دون ان يبدو أنه يفسدنا : كان هذا العنف يحلل الآخرين ، بينما تظل انسانيتنا، نحن البشر ، سليمة لم يمسسها أذى • كان سكان البلاد المستعمرة ، وقد وحدت بينهم الفائدة ، يطلقون على اشتراكهم في الجرائم اسم الحب والاخوة • ولكن هذا العنف يدخر اليوم في كل مكان ، فيرتد هو نفسه الينا عن طريق جنودنا ، فينفذ الى داخلنـا .

ويخالطنا مخالطة المس • لقد بدأ التراجع : ان المستعمِّر يعيد تشكيل نفسه ، أما نحن ، المتقدمون والليبراليون ، سواء أكنا مستوطنين في المستعمرات أم مقيمين في أوروبا ، فاننا نتحلل • ان الحنق المسعور والخوف الشديد يتعريان منذ الآن : انهما مكشوفان في « مجازر » مدينة الجزائر • أين هم المتوحشون الآن ؟ أين هي البربرية ؟ لا شيء ينقص هذه المجازر حتى ولا قرع الطبول : فبينما يحرق الأوروبيون المسلمين أحياء ، تصيح أبواق السيارات معلنة ان « الجزائر فرنسية » • يذكر فانون ، ان جماعة من أطباء الأمراض العقلية أفصحوا في مؤتمر لهم ، منذ زمن غير بعيد ، عن حزنهم لشيوع الجريمة بين « السكان الأصليين » ، وقالوا : « ان هؤلاء الناس يقتل بعضهم بعضا ، وهو شيء غير سوي ، فلا بد ان القشرة الدماغية لدى الجزائر متخلفة النمو » • وقال آخرون في افريقيا الوسطى ان « الأفريقي لا يستعمل الفصين الجبهيين من الدماغ الا قليلا جدا » • لقد يهم هؤلاء العلماء اليوم ان يتابعوا بحثهم هذا في أوروبا ، وبخاصة لدى الفرنسيين • اذ لا شك اننا ، نحن ايضا ، لقد أصبحنا منذ زمن مصابين بكسل في الفص الجبهي من الدماغ: فأهل الوطن الواحد يقتل بعضهم بعضا ، ويستغل بعضهم غياب بعض عن منزله حتى ينسفوا البواب والبيت • وما هذا الا بداية : فالحرب الأهلية يتوقع ان تنشب في الخريف أو في الربيع القادم • ومع ذلك تظل تبدو الفصوص الجبهية من أدمغتنا سليمة كل السلامة : أليس الأجدر ان نقول أننا ، وقد عجزنا عن سحق « السكان الأصليين » ارتد العنف الينا ، وتجمع في أعماقنا ، وأخذ يبحث عن مخرج : ان اتحاد الشعب الجزائري يولد تفكك الشعب الفرنسي : في جميع المستعمرات ترقص القبائل وتتهيأ للمعركة • وترك الارهاب افريقيا ليستقر هنا : ذلك ان هنالك أشخاصا مسعورين يريدون ان ندفع منا ثمنا للعار الذي لحق بهم حين غلبهم «السكان الأصليون»، وهناك أيضا الآخرون ، جميع الآخرين الذين لا يقلون اجراما عن غيرهم «من ذا الذي نزل الى الشارع ، غداة حوادث بيزرت ، وغداة مذابح أيلول ، ليقول: كفى ! » ، ولكنهم أكثر هدوءا منهم : هناك الليبراليون ، والقساة القساة من اليسار الرخو : ان الحمى تصعد في هؤلاء ايضا • والسخط ، يا له من خوف رهيب ! ان هؤلاء يحجبون حنقهم المسعور بخرافات وطقوس معقدة • فلكي يؤخروا تصفية الحساب ويوم الحقيقة ، حكموا فينا « ساحرا كبيرا » ، مهمته ان يبقينا في الظلام بأي ثمن من الاثمان • ولا شيء يجدي • ان العنف الذي يطالب به بعض الناس ويكبحه آخرون يدور الآن في دائرة ، ففي يوم تراه

ينفجر في متز ، وفي الغداة ينفجر في بوردو . لقد مر من هنا ، وسيمر من هناك انها لعبة الحلقة . أننا نسير بدورنا في الطريق الذي يؤدي الى حالة سكان أصليين ، نسير في هذا الطريق خطوة بعد خطوة . ولكن لكي نصبح « سكانا أصليين » تماما ، يجب ان يحتل أرضنا أولئك الذين كانوا مستعمَرين وان نتضور جوعا . وهذا لن يكون : لا . ولكن الاستعمار المنهار هو الذي يصبح في نفوسنا مسا . وسرعان ما سوف يمتطينا فارسا مريضا مختالا . هـذا « زارنا » ولسوف تقتنعون ، حين تقرأون الفصل الأخير من كتاب فانون ، بأنه خير للمرء ان يكون من « السكان الأصليين » في أسوأ لحظة من لحظات البؤس، من ان يكون مستوطنا مستعمرا . ليس من الخير ان يكون موظف من موظفي الشرطة مضطرا الى التعذيب عشر ساعات في اليوم : انه بهذا معرض لانهيار الأعصاب ، اللهم الا ان نمنح الجلادين من العمل ساعات اضافية في سبيل مصلحتهم ذاتها . وحين نريد ان نحمي بقوة القوانين روح الأمة والجيش ، ليس من الخير ان يجرد الجيش الأمة من روحها على نحو منظم مطرد ، لا ولا ان تعهد بلاد ذات تقاليد جمهورية ، بمئات الألوف من شبانها الى ضباط عصاة. ليس من الخير ، يا أهل وطني ، وأنتم تعرفون جميع الجرائم التي ترتكب باسمنا، ان لا تهمسوا بكلمة لأحد ، حتى ولا لروحكم ، مخافة ان يكون عليكم أن تحكموا على أنفسكم . لقد كنتم في أول الأمر تجهلون ــ أحب ان أصدق ذلك ــ ثم اصبحتم ترتابون ، والآن انتم تعلمون ، ولكنكم تظلون صامتين . ثماني سنين من الصمت ، ذلك أمر يدنس . وعبثا تصمتـــون : ان شمس التعذيب التي تبهر الأعين هي اليوم في رابعة النهار تضيء البلاد كلها . وتحت هذا الضياء ، لم تبق ضحكة ترن رنينا صادقا ، ولم يبق أحد لا يطلي وجهه اخفاء للغضب او الخوف ، ولم يبق فعل لا يفضح اشمئزازنا وتواطؤنا . انه ليكفي الآن ان يجتمع فرنسيان حتى توجد بينهما جثة .. بل جثث .. لقد كانت كلمة فرنسا ، في الماضي اسما لبلد ، فحذار ان تصبح كلمة فرنسا عام ١٩٦١ اسما لمرض من أمراض العصاب .

أترانا نشفى ؟ نعم . ان العنف ، كحربة أخيل ، يمكن ان يلأم الجروح التي يحدثها . نحن الآن مكبلون ، مذلون ، مرضى بالخوف ، في الحضيض . ومن حسن الحظ ان الارستقراطية الاستعمارية لا يكفيها هذا : انهـــا لا تستطيع ان تتم رسالتها التأخيرية في الجزائر الا بعد ان تستعمر الفرنسيين. ونحن نتراجع كل يوم عن خوض المعركة ، ولكن ثقوا أننا لن نستطيـــع تحاشيها . انهم في حاجة اليها ، هؤلاء القتلة . لسوف يسرقوننا من سررنا

الوثيرة ويضربوننا فيمن يضربون • وبذلك ينتهي عهد السحرة والتمـــائم • فاما ان تقاتلوا واما ان تعفنوا في المعسكرات • هذه آخر لحظات الديالكتيك • انكم تستنكرون هذه الحرب ، ولكنكم لا تجرؤون بعد على اعلان تضامنكم مع المناضلين الجزائريين • لاتخافوا ، اعتمدوا على المستوطنين المستعمرين وعلى أصحاب المصالح الجشعين • لسوف يجعلونكم تثبون الخطوة وثبا • ولعلكم عندئذ ، وقد جعل ظهركم الى الجدار ، تطلقون أخيرا عقال هذا العنف الجديد الذي تبعثه فيكم جرائم يعاد ارتكابها • ولكن هذه قصة أخرى ، كما يقال • هي قصة الانسان • واني لعلى يقين بأن الزمن الذي نلتحق فيه بأولئك الذين يصنعون الانسان ، قريب لاريب فيه •

أيلول « سبتمبر » ١٩٦١ جان بول سارتر

* * *

في العنف

سواء أقلنا تحريرا وطنيا ، أم نهضة قومية ، أم انبعاثا شعبيـــا ، أم اتحادا بين الشعوب ، وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة ، فان محو الاستعمار انما هو حدث عنيف دائما • ان محو الاستعمار ، على أي مستوى درسناه : سواء أكان مستوى لقاء الأفراد بعضهم ببعض ، أم مستوى تسمية النوادي الرياضية بأسماء جديدة ، أم مستوى التشكيل الانســاني الحفلات الكوكتيل وأجهزة الشرطة ومجالس ادارة المصارف القومية او الخاصة ، انما هو احلال « نوع » انساني محل « نوع » انساني آخر ، احلالا كليا ، كاملا ، مطلقا ، بلا مراحل انتقال • وفي وسعنا طبعا ان نبين أيضا انبثاق أمة جديدة ، وقيام دولة جديدة مع علاقاتها الدبلوماسية واتجاهها السيـــاسي والاقتصادي • ولكنني انما اخترت ان اتحدث عن هذا النوع من المحو الذي يحدد في البداية كل ازالة للاستعمار • والحق ان دليل النجاح انما هو تبديل صورة المجتمع تبديلا تاما • وهذا التبديل يستمد خطورته الخارقة من أنه قد أريد ارادة ملحة شديدة • فان ضرورة هذا التبديل قائمة في وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمَرين على حالة فجة جارفة قاهرة • ولكن احتمال هذا التبديل يعيشه ايضا وجدان « نوع » آخر من الرجال والنساء ، هو نـــوع « المستعمِرين » ، على صورة مستقبل مروع رهيب •

ان محو الاستعمار ، وهو يستهدف تغيير نظام العالم ، انما هو ، كما ترون ، برنامج لقلب النظم قلبا مطلقا • ولكنه لا يمكن ان يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزال طبيعي او تفاهم ودي ، أي انه لا يمكن ان يفهم ولا يمكن ان يعقل ، ولا يمكن ان يصبح واضحا لنفسه ، الا بمقدار ادراك الحركة الصانعة للتاريخ التي تهب له شكله ومضمونه • ان محو الاستعمار انما هو نزال بين

قوتين متعارضتين أساسا ، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الظرف الاستعماري ويغذيه • ان التجابه الأول الذي تم بين هاتين القوتين انما تم تحت شعار العنف ، كما ان تساكنهما ـ او قل استغلال المستعمِر للمستعمَر ـ انما تلاحق بدعم قوى من الحراب والمدافع • ان المستعمِر والمستعمَر يعرف احدهما الآخر من زمان طويل • والمستعمِر حين يقول انه « يعرفهم » هو على حق فيما يقول • فالمستعمِر هو الذي صنع المستعمَر وما يزال يصنعه • ان المستعمَر يستمد حقيقته ، أي خيراته ، من النظام الاستعماري •

ومحو الاستعمار لا يمكن ان يعبر عبورا دون ان يلاحظه أحد ، لأنه يتناول الوجود ، لأنه يغير الوجود تغييرا أساسيا ، لأن أناسا مشاهدين يسحقهم أنهم ليس لهم ماهية ، يأتي محو الاستعمار هذا فيحيلهم أناسا فعالين ممتازين يدخلون تيار التاريخ دخولا رائعا • ان محو الاستعمار يبث في الوجود ايقاعا خاصا يجيء به الرجال الجدد ، ويحمل الى الوجود لغة خاصة وانسانية جديدة • ان محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقا • ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة • ان المستعمَر • « الشيء » يصبح انسانا بمقدار ما يحقق من عمل لتحرير ذاته •

ففي محو الاستعمار يجب اذن تغيير الوضع الاستعماري تغييرا كاملا • ويمكن أن يقوم تعريفه ، اذا أردنا ان نصفه وصفا دقيقا ، في هذه العبارة المعروفة : « الأواخر سيصبحون الأوائل » • ان محو الاستعمار تحقيق لهذه الجملة • ولذلك فان كل محو للاستعمار هو من ناحية الوصف نجاح •

ان محو الاستعمار حين يعرض عاريا ، يكشف من خلال مساماته كلها ، عن رصاصات حمر وخناجر دامية • ذلك أنه اذا كان على الأواخر ان يصبحوا هم الأوائل ، فان هذا لا يمكن ان يتم الا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان • ان هذه الارادة الثابتة التي تريد أن تنقل الاواخر الى طليعة الصف ، وأن تجعلهم يتسلقون « بسرعة مفرطة كما يقول بعضهم » الدرجات المعروفة التي يتألف منها مجتمع منظم ، هذه الارادة لا يمكن ان تنتصر الا اذا ألقيت في الميزان جميع الوسائل ، ومنها وسيلة العنف طبعا •

انك لا تستطيع ان تفكك نظام مجتمع من المجتمعات ، مهما يكن بدائيا ، ببرنامج كهذا البرنامج ، ما لم تعزم أمرك منذ البداية ، أي منذ وضع هذا البرنامج نفسه ، على أن تحطم جميع الحواجز التي ستلقاها في طريقك • والمستعمَر الذي يقرر ان يحقق هذا البرنامج ، ان يكون له المحرك ، مهيأ

للعنف منذ زمن طويل . لقد أدرك منذ ولادته ادراكا واضحا ان هذا العالم المضيق ، المزروع بأنواع المنع ، لا يمكن تبديله الا بالعنف المطلق .

ان العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسم . ومن ناقل القول طبعا ، على صعيد الوصف ، ان نذكر ان هناك مدنا للسكان الأصليين ومدنا للأوروبيين . ان هناك مدارس للسكان الأصليين ومدارس للأوروبيين، كما ان من ناقل القول ان نذكر التمييز العنصري في جنوب افريقيا . ومع ذلك فاننا حين ندخل الى صميم هذا التقسيم ، نجني فائدة واحدة على الأقل، هي أننا نستطيع عندئذ ان نبرز بعض خطوط القوى التي يضمها . ان دراستنا للعالم الاستعماري وتنظيمه وترتيبه الجغرافي ستتيح لنا أن نعين خطوط التداخل التي ستبدأ بها اعادة تنظيم المجتمع الذي تخلص من الاستعمار .

ان العالم المستعمر منقسم الى عالمين . والخط القاسم ، او الحدود الفاصلة ، انما هي لثكنات ومراكز الشرطة . فالدركي والشرطي في المستعمرات هما المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمَر أن يرجع اليه وأن يخاطبه وهما الجهة التي ينطق بلسان المستعمِر ونظام الاضطهاد . اننا نرى في المجتمعات التي تنتمي الى الطراز الرأسمالي ، ان التعليم ، سواء أكان دينيا أم علمانيا . وتكوين المنعكسات الاخلاقية التي يأخذها الأبناء عن الآباء ، والشرف المثالي الذي يسند الى عمال يمنحون الأوسمة بعد خمسين عاما أنفقوها في القيام بخدمات طيبة مستقيمة ، وتشجيع حب الاتزان والتعقل ، هذه الأشكال الجمالية لاحترام النظام القائم تخلق حول المستغَل جوا من الخضوع والامتناع يخففان عبء قوى الأمن تخفيفا كبيرا . اننا نرى في البلاد الرأسمالية طائفة كبيرة من أساتذة الأخلاق ، والموجهين ، «والمصلحين» تقف حائلا بين المستغَل والسلطة الحاكمة . أما في المناطق المستعمَرة فان الدركي والشرطي، بحضورهما المباشر وتدخلاتهما السريعة الكثيرة ، يظلان على اتصال بالمستعمَر وينصحانه بالعصا أو بالمواد المحرقة ، ان لا يتحرك . وهكذا ترون ان وسيط السلطة الحاكمة يستعمل هنا لغة هي عنف صرف . ان الوسيط لا يخفف هنا الاضطهاد ، ولا يسدل على السيطرة حجابا . انه يعرضهما ، انه يظهرهما . ان الوسيط يحمل العنف هنا الى بيوت المستعمَر والى أدمغته .

والمنطقة التي يسكنها المستعمَرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها المستعمرون . ان هاتين المنطقتين تتعارضان ، ولكن لا في سبيل وحدة أعلى . انهما تخضعان لمنطق أرسطي صرف ، انهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل ، فلا سبيل الى مصالحة : ان احد الطرفين زائد يجب ان يزول. ان مدينة المستعمِر

« المستوطِن » مدينة صلبة مبينة بالحجر والحديد ، مدينة أنوارها ساطعة ، وشوارعها معبدة بالأسفلت ، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلغ نفايات ما عرفها الآخرون ، ولا رؤوها يوما ، ولا حملوا بها يوما • والمستعمِر لا ترى قدماه عاريتين قط ، اللهم الا على شواطئ البحر ، ولكن الآخرين لا يمكن ان يقتربوا منهما اقترابا كافيا • قدمان تحميهما أحذية متينة ، مع ان شوارع مدينتهما نظيفة ، ملساء ، لا ثقوب فيها ولا حصى •

أما مدينة المستعمَر ، او مدينة السكان الأصليين ، أما القرية الزنجية ، أما بلدة الأهالي ، أما الحي الذي يحظر على الأوروبيين ان يتجولوا فيه ، فهو مكان سيّء السمعة يسكنه أناس سيؤو السمعة • فيه يولد المرء أين كان ، وكيف كان • وفيه يموت المرء أين كان ، وبأي شيء كان • هو عالم بلا فواصل ، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض ، والأكواخ تتكدس فيه بعضها فوق بعض • ان مدينة المستعمَر مدينة جائعة ، جائعة الى الخبز ، والى اللحم ، والى الأحذية ، والى الفحم ، والى النور • مدينة المستعمَر مدينة جاثية ، مدينة راكعة ، مدينة متدحرجة في الوحل • انها مدينة زنوج • مدينة عرب • والنظرة التي يلقيها المستعمَر على مدينة المستعمِر هي نظرة شهوة ، هي نظرة حسد • ان المستعمَر يحلم بالتملك ، بجميع أنواع التملك : ان يأكل على المائدة التي يأكل عليها المستعمِر ، ان ينام في الفراش الذي ينام فيه المستعمر ، وربما مع امرأة المستعمر ايضا • ان المستعمَر حسود • والمستعمِر لا يجهل هذا ، فهو حين يلحظ نظرة المستعمَر خلسة ، يقول في مرارة : « انهم يريدون ان يحتلوا مكاننا » • هذا صحيح : ما من مستعمر الا ويحلم مرة في اليوم على الأقل ، ان يأخذ مكان المستعمِر •

هذا العالم المقسم • هذا العالم المقسم قسمين ، يسكنه نوعان مختلفان • والطابع الخاص الذي يطبع النظام الاستعماري ، هو ان الوقائع الاقتصادية ، هو ان الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير في طرز المعيشة ، لا تستطيع أبدا ان تحجب الوقائع الانسانية • حين ندرك النظام الاستعماري في واقعه المباشر ، نلاحظ ان ما يقسم العالم انما هو أولا انتساب المرء او عدم انتسابه الى نوع معين ، الى عرق معين • ان البنيان التحتي الاقتصادي هو في المستعمرات بنيان فوقي ايضا • السبب هنا نتيجة : المرء غني لأنه أبيض ، وأبيض لأنه غني • لذلك كان على التحليلات الماركسية ان تخفف من حدتها قليلا حين تعالج مشكلة المستعمرات • وحتى مفهوم المجتمع السابق على الرأسمالية ، الذي أجاد ماركس دراسته ، يتطلب هنا اعادة التفكير فيه • ان

ماهية العبد غير ماهية الفارس ، ولكن لا بد من الاستناد الى الحق الالهي لاضفاء صفة الشرعية على هذا الفرق القائم . ان الأجنبي في المستعمرات ، قد جاء من مكان آخر ، وفرض نفسه بمدافعه وآلاته . فالمستعمر يظل أجنبيا رغم نجاحه في التطويع ورغم التملك الذي حققه لنفسه . ان ما يميز « الطبقة الحاكمة » أولا وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الأملاك ولا الرصيد في البنك ، فانما النوع الحاكم هو أولا وقبل كل شيء ، النوع الذي جاء من مكان آخر ، النوع الذي لا يشبه السكان الأصليين ، هو نوع « الآخرين » .

والعنف الذي سيطر على ترتيب العالم الاستعماري ، والذي عمل بلا كلل على تحطيم صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الاصليين ، وخرب بلا قيود طراز الاقتصاد ، وأشكال المظهر ، والملبس ، سيطالب به المستعمَر وسيتولاه ، في اللحظة التي يقرر فيها ان يكون هو التاريخ اعمالا ، فاذا الجمهور المستعمَر يهوي على هذه المدن الممنوعة عنه . ان تحطيم العالم الاستعماري هو بعد الآن صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذي يجب على المستعمَر ان يقوم به ، صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذي يجب على المستعمَر ان يقوم به ، صورة يفهمها كل الفهم كل فرد من الافراد الذين يتألف منهم الشعب المستعمر ، ويستطيع ان يستعيدها ثم يستعيدها مرة بعد مرة . وتحطيم العالم الاستعماري لا يعني انه سيحافظ على ممرات بين المنطقتين ، بعد ازالة الحدود التي تفصل احداهما عن الأخرى . ان تحطيم العالم الاستعماري لا يعني الا شيئا واحدا هو ازالة احدى هاتين المنطقتين ، فاما دفنها في أعمق أعماق الأرض ، واما طردها من البلاد .

وتغيير المستعمَر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر. ليس خطابا في المساواة بين البشر ، وانما هو تأكيد عنيف لأصالة تفرض مطلقة . ان العالم الاستعماري عالم ثنائي . والمستعمِر لا يكتفي بأن يحد مجال المستعمَر ، باستعمال القوة المادية ، أي بواسطة شرطته ودركه ، وانما هو يجعل من المستعمر روح الشر وخلاصته ، كأنه يدل بذلك على ان الاستغلال الاستعماري كلي شامل «١» . انهم لا يكتفون بأن يصفوا المجتمع المستعمر بأنه خال من القيم . ان المستعمر لا يكتفي بالقول ان القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمَر ، او أنها لم توجد فيه يوما . وانما هو يعلن ان السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق الى أنفسهم ، وان القيم لا وجود لها عندهم ،

---

١ ـ لقد اوضحنا في بحثنا « جلد اسود واقنعة بيضاء » آلية هذا العالم الثنائي .

بل انهم انكار للقيم ، أو قل انهم أعداء للقيم • فالمستعمَر بهذا المعنى هو الشر المطلق • انه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه ، عنصر مخرب يشوه كل ماله صلة بالجمال او الأخلاق ، انه مستودع قوى شيطانية ، انه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لهاولا سبيل الى اصلاحها • وهذا مسيو ماير يقول جـادا في « الجمعية الوطنية الفرنسية » : ان علينا ان لا نلوث الجمهورية بادخـال الشعب الجزائري اليها • ذلك ان القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكـن اصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمَر • انعادات المستعمَر وتقاليده، وخرافاته ، خاصة خرافاته ، هي بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفسـاد القائم في تكوينه ذاته • ولذلك يجب ان نضع على مستوى واحد مبيـدات الحشرات التيتنقل الأمراض ، والديانةالمسيحيةالتي تحاربالهرطقات والغرائز والشر في مهدها • ان التقدم في القضاء على الحمى الصفراء والتقدم في نشر دين الانجيل أمران متشابهان • ولكن البلاغات المظفرة التي تنشرهـا الارساليات التبشيرية تدلنا على أن خمائر الضياع المنبثقة في جسم الشعب المستعمَر هي على جانب كبير من القوة • وحديثي هنا عن الديانة المسيحية ، ولا حق لأحد أن يدهش من ذلك • ان الكنيسة هي في المستعمرات كنيسـه بيض • كنيسة أجانب • انها تدعو الانسان المستعمَر الى طريق الله ، وانما تدعوه الى طريق الانسان الأبيض ، الى طريق السيد المتسلط ، الى طريـق المضطهد الغاشم • وأنتم تعلمون ان في تاريخ البعثات التبشيرية هذا كثيرا من المكلفين وقليلا من المختارين •

وتمضي هذه الثنائية أحيانا الى أقصى منطقها ، فتجرد المستعمَر مـن انسانيته ، حتى لتعده حيوانا • أنظر الى اللغة التي يتكلمها المستعمِر حين يتكلم عن المستعمَر ، تجد انها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات : انهم يستعملون هذه التعابير : زحف العرق الأصفر ، أرواث المدينة الأصلية ، قطعان الأهالي ، تفريخ السكان ، تنمل الجماهير ، الخ • ان المستعمر حين يريد أن يحسن الوصف وان يجد الكلمة المناسبة ، يرجع دائما الى الألفاظ المستعملة في وصف الحيوان • والأوروبي قلما يلبث علىهذه الألفاظ المشتملة على استعارات • ولكن المستعمَر الذي يدرك غرض المستعمِر ، يعرف فورا ما انصرف اليه ذهن صاحبه • وهذا بعض ما يجري على لسان المستعمِر مـن مصطلحات : هؤلاء السكان الذين يدبون على الأرض ، هذه الجمـاهير المستهترة ، هذه الوجوه التي فر منها كل معنى انساني ، هذه الأجسـام المترهلة التي لا تشبه شيئا من الأشياء ، هذا القطيع الذي لا رأس له ولا ذنب،

هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو ان لهم أهلا، هذا الكسل المستلقي تحت الشمس، هذه الحياة التي تشبه حياة النباتات الخ ٠٠ ولقد تكلم دو جول عن « الجموع الصفراء » ، وتكلم مسيو مورياك عن الكتل السوداء والسمراء والصفراء التي تهم أن تندفع أمواجها ٠ ان المستعمَر يعرف هذا كله ، ويضحك كلما اكتشف نفسه حيوانا في أقوال الآخر ٠ ذلك أنه يعرف أنه ليس بحيوان ٠ وهو في الوقت الذي يدرك فيه أنه انسان ، يأخذ بشحذ أسلحته ليحقق انتصار انسانيته ٠

ومتى أخذ المستعمَر يرسخ أقدامه على قواعدها ، ويقلق المستعمِر ، أوفدوا اليه رجالا أخيارا يحدثونه في « مؤتمرات الثقافة » عن خصائص القيم الغربية وعن غناها ٠ ولكن كلما دار الحديث على القيم الغربية حدث لدى المستعمَر نوع من التصلب والتشنج العضلي ٠ انهم في فترة التحرر من الاستعمار يناشدون عقل المستعمَرين ، ويعرضون عليهم قيما أكيدة ، ويشرحون لهم في كثير من الافاضة ان التحرر من الاستعمار يجب ان لا يعني التقهقر الى وراء ، وان عليهم ان يعتمدوا على قيم مجربة وطيدة راسخة ٠ غير ان ما يحدث هو ان المستعمَر حين يسمع خطابا عن الثقافة الغربية ، يخرج خنجره أو يتلمسه في مكانه ليتأكد من وجوده ٠ ذلك ان العنف الذي كفل تفوق قيم البيض ، وان العدوان الذي لابس المعركة الظافرة التي خاضتها هذه القيم من انماط الحياة والفكر الخاصة بالمستعمَرين ، يجعلان المستعمَر يسخر حين يتحدث أحد أمامه عن هذه القيم ٠ ان المستعمِر لا يتوقف أثناء فترة الاستعمار عن عمله في انهاك المستعمَر وتحطيمه ، الا اذا اعترف له هذا بتفوق قيم البيض اعترافا صريحا واضحا ٠ وفي فترة التخلص من الاستعمار تسخر الجماهير المستعمَرة من هذه القيم ذاتها ، بل تهينها وتبصقها بصقا ٠

وهذه الظاهرة تكون في العادة مقننة ، ذلك ان بعض المثقفين قد قاموا ، أثناء فترة الاستعمار ، بحوار مع بورجوازية البلاد الاستعمارية ٠ لقد كان الاستعماريون لا يرون أهل البلاد المستعمَرة الا كتلة غير متميزة٠والشخصيات القليلة التي أتيح للبورجوازيين الاستعماريين أن يعرفوها من أهل البلاد لم تؤثر تأثيرا كافيا في تلك النظرة المباشرة لتحملهم على تعديلها ٠ أما في فترة التحرر من الاستعمار فان البورجوازية الاستعمارية تسعى في كثير من الحماسة المحمومة الى عقد صلات بالنخبة المثقفة ٠ ومع تلك النخبة المثقفة انما شرعوا في ذلك الحوار حول القيم ٠ ان البورجوازية الاستعمارية ، حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمَرة ، تقرر أن تخوض معركة خلفية ، في ميدان الثقافة ، والقيم ، والتكنيك ، وما الى ذلك ٠

ولكن الأمر الذي يجب ان لا يغيب عن البال هو ان السواد الأعظم من الشعوب المستعمرة لا يمكن ان تنفذ اليه هذه المشكلات • فالقيمة الأساسية عند الشعب المستعمَر ، انما هي الأرض ، لأنها هي القيمة المحسوسة الملموسة ، الأرض التي تكفل الخبز ، والتي تكفل الكرامة طبعا ، ولكن الكرامة التي تكفلها لا شأن لها بكرامة « الشخصية الانسانية » التي يتحدث عنها الاستعماريون • ان الشعب المستعمَر لم يسمع يوما بهذه الشخصية الانسانية الخيالية • وما رآه على أرضه : بأم عينه هو أنه يعتقل لغير ذنب جناه ، وانه يضرب وأنه يجوع • انه لم ير في يوم من الأيام أستاذا من أساتذة الأخلاق ، ولا رجلا من رجال الدين المسيحي ، يأتي ليتلقى عنه اللطمات ، أو ليعطيه قسما من خبزه • الأخلاقية عند المستعمَر هي ان يتلخص من غطرسة المستعمِر ، هي أن يحطم عنفه الشامخ ، أي ان يطرده من الميدان طردا كاملا • ان المبدأ القائل بأن البشر جميعا متساوون سيتحقق في المستعمرات متى اعتبر المستعمَر أنه ند المستعمر ، ومتى خطا خطوة أخرى فقرر أن يقاتل في سبيل ان يكون أكثر من المستعمِر • وها هو ذا قرر أن يحل محل المستعمَر ، أن يأخذ مكانه • وبذلك ترون عالما برمته ينهار ، عالما ماديا ومعنويا • ان المثقف الذي تبع الاستعماري على مستوى العموميات المجردة يريد أن يعيش المستعمِر والمستعمَر في سلام في عالم جديد ، ولكن الأمر الذي يعمى عنه ، لأن الروح الاستعمارية قد تغلغلت فيه مع طرائقها في التفكير ، هو أن المستعمِر لن يهمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري • ليس صدفة أن الأقلية الأوروبية التي تسمى « ليبرالية » ، قد أعلنت رأيها حتى قبل أن تبدأ المفاوضات بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية ، فقالت أنها تطالب بأن تكون لها جنسيتان • انك حين تنظر الى الأمور على المستوى المجرد تفرض على المستعمِر المستوطن ان يثب في المجهول وثبة محسوسة ، ويجب ان نعترف بأن المستعمِر المستوطن يعلم حق العلم بأنه ما من أقوال طنانة رنانة يمكن ان تقوم مقام الواقع •

يكتشف المستعمَّر اذن ان حياته وتنفسه وخفقات قلبه لا تختلف عن حياة المستعمِر وعن تنفسه وعن ضربات قلبه • ويكتشف أن جلد المستعمر ليس خيرا من جلد رجل من السكان الأصليين • ويحدث هذا الاكتشاف هزة أساسية في العالم • ان كل ما يحس به المستعمَّر من ثقة جديدة ثورية انما ينبع من هذا : اذا كان لحياتي من القيمة مثل ما لحياة المستعمِر ، فلن تخيفني بعد الآن نظرته ، لن تسمرني في مكاني • لن يجمدني صوته • لن أضطرب أمامه • لن أعبأ به ، لن يربكني وجوده ، بل انني منذ الآن أعد له من

الكمائن ما يجعله فيالقريب لا يجد لنفسه مخرجا غير الهرب ٠

قلنا ان الوضع الاستعماري يتميز بأنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا٠ والتحرر من الاستعمار يوحد هذا العالم ، اذ يخلصه من فقدان التجانس بقرار جذري ، يوحد على أساس الأمة ، وعلى أساس العرق أحيانا ٠ انكم تعرفون تلك الكلمة القوية التي قالها الوطنيون السنغاليون مشيرين الى منـــاورات رئيسهم سنغور : « لقد طلبنا أن تصبح الوظائف للافريقيين ، وها هو سنغور يجعل الأوروبيين افريقيين » ٠معنى هذا ان المستعمَر قادر على أن يدرك ادراكا مباشرا مطلقا هل تحقق التخلص من الاستعمار أم لا : فالحد الأدنى المطلوب هو أن يصبح الأواخر هم الأوائل ٠

ولكن المثقف المستعمر يدخل على هذا المطلب بعض التعديلات ، ولا يعوزه أن يخترع لهذه التعديلات ما يسوغها ويبررها ، فيتكلم عن الاستعانة بموظفين اداريين ، وبموظفين فنيين ، وباخصائيين ٠ غير ان المستعمر يدرك أن هذه التذرعات ان هي الا مناورات تخريبية ، وليس نادرا ان تسمع من يقول هنا وهناك : « ما فائدة الاستقلال اذن ؟ » ٠

في المناطق المستعمَرة التي شب فيها نضال حقيقي من أجل التحرر من الاستعمار ، في المناطق التي سال فيها دم الشعب ، في المناطق التي أتاح فيها طول المرحلة المسلحة للمثقفين ان يعودوا الى القواعد الشعبيـــة ، نشاهـد أستئصالا حقيقيا للأفكار التياستمدها هؤلاء المثقفونمن الأوساط البورجوازية الاستعمارية٠انالبورجوازيةالاستعماريةقد استطاعتفيحوارها النرجسيمع نفسها، وبواسطة رجالها الجامعيين ، ان تغرس في أعماق فكر المستعمَر أن الماهيات تبقى خالدة رغم جميع الأخطاء التي تنسب الى البشر ، وهم يعنون الماهيات الغربية طبعا ٠ وكان المستعمَر يسلم بهذه الأفكار ، فكأن حارسا يقظا مكلفا بالدفاع عن الثقافة الاغريقية اللاتينية أصبح يقف في ثنية من ثنايا عقله ٠ أما أثناء الكفاح من أجل التحرر ، في اللحظة التي يسترد فيها المستعمَر اتصاله بشعبه ، فان هذا الحارس المصطنع يتهشم ٠ فاذا جميع القيم التي تسمى قيم البحر الأبيض المتوسط التي تنادي بانتصار الشخصية الانسانية ، وتدعو الى الوضوح والجمال ، تصبح دمى لا حياة فيها ولا لون ، واذا جميع تلك الخصب تبدو تركيبات ألفاظ ميتة ٠ ان هذه القيم التي كان يلوح أنها تسمو بالنفس يتضح الآن أنها لا فائدة منها أو لا جدوى فيها لأنها لا تتصل اتصالا مباشرا بالمعركة المحسوسة التي يخوضها الشعب ٠

والفردية تأتي في طليعة هذه القيم ٠ لقد أخذ المثقف المستعمَر عـــن أساتذته أن على الفرد أن يؤكد ذاته ٠ لقد غرست البورجوازية الاستعمارية

في ذهن المستعمَر أن المجتمع مؤلف من أفراد لكل منهم ذاتيته الخاصة ، وأن الغنى هو غنى الفكر . غير ان المستعمَر الذي يتاح له أن يغوص في شعبه أثناء فترة الكفاح من أجل التحرير يدرك فساد هذه النظرية ، بل ان أشكال تنظيم الكفاح ستزوده بلغة جديدة . ان كلمات الأخ والأخت والرفيق كلمات تنبذتها البورجوازية الاستعمارية ، فالأخ عندها هو محفظة النقود ، والرفيق عندها هو الصفقة الرابحة . وهكذا يشهد المثقف المستعمَر فناء جميع أصنافه احتراقا بالنار : الأنانية والانتقاد المتكبر ، والغباء الغر الذي يحمل صاحبه على ان يريــد أن يكون له القول الفصل وسيكتشف هذا المثقف المستعمَر الذي خربته الثقافة الاستعمارية ، سيكتشف أيضا أن للمجالس التي تشكل في القرى قوة كبيرة . وأن اللجان التي تتألف من أفراد الشعب متانة هائلة ، وأن للاجتماعات التي تعقد للحي أو للخلية خصوبة ما بعدها خصوبة . فقضية كل فرد من الأفراد لن تكون عندئذ الا قضية جميع الأفراد ، لأنهم اما أن يكتشفهم جنود الاستعمار جميعا ، فيقتلوهم جميعا ، واما ان ينجوا جميعا . ان « نجاة الفرد بنفسه » ، وهو شكل كافر من أشكال السلامة ، هي في الميدان أمر مرفوض .

ويكثر الناس منذ زمن من الحديث عن النقد الذاتي ، فهل عرفوا أولا أن هذا نظام أفريقي ؟ ان التقاليد ، سواء في اجتماعات « الجماعة » بافريقيا الشمالية أو في الاجتماعات التي تعقد بأفريقيا الغربية ، توجب ان تفــض النزعات التي تقوم في قرية من القرى ، على رؤوس الاشهاد . وهذا نقد ذاتي جماعي طبعا ، ولكن على شيء من المرح ، لأن جميع الناس يكونون بعيدين عن التوتر ، ولأنهم يريدون في آخر الامر أشياء واحدة . ان المثقف ليهجر الحســاب والسكوت والصلف ، والافكار المخبأة ، والآراء المتخفية ، والنمر ، ان المثقف ليهجر هذا كله كلما غاص في الشعب . ومن الحق أن نقول ان الجماعة تنفر من ذلك نفسه ، فتخلق ضوءها الخاص وتفكيرها الخاص .

ولكن يحدث ان تتم تصفية الاستعمار في مناطق لم يهزها الكفاح التحرري هزا كافيا ، فاذا نحن نصادف هؤلاء المثقفين أنفسهم الذين يتصفون بالبراعة والمكر والحذق في تحقيق أغراضهم الشخصية ، واذا نحن نجد فيهم عــين أنماط السلوك وأشكال التفكير التي التقطوها من معاشرتهم للبورجوازيــة الاستعمارية ، لقد كانوا للاستعمار أبناءه المدللين ، وهم الآن للسلطة أبناؤها المدللون ايضا ، ينهبون الموارد الوطنية نهبا ، ويندفعون الى الاثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعا لا يعرف الرحمة ، عن طريق الاستيراد والتصدير ، والشركات المغفلة ، ومضاربات البورصة ، والرشوة ، على أكتاف البؤس الذي أصبح الآن وطنيا . انهم يطالبون في الحاح أن تكون الأعمال التجارية في

أيدي أبناء الأمة وحدهم ، أي أن تحصر الأسواق والفرص المؤاتية في أبناء الأمة وحدهم • ومعنى ذلك عندهم أن تحصر سرقة الأمة في أبناء الأمة • ولا شك أن نجاح أساليبهم الماكرة سرعان ما يثير غضب الشعب وعنفه ، أثناء فترة القحط الوطني هذه ، أثناء ما يسمى بفترة التقشف • ذلك ان هذا الشعب البائس الذي نال استقلاله في الظروف الافريقية والدولية الراهنة ، يسير نحو الوعي الاجتماعي بخطى حثيثة • ولن تلبث النفوس الصغيرة ان تدرك هذه الحقيقة في وقت قريب •

لقد كان على المستعمَر ، من أجل أن يستطيع هضم ثقافة مضطهديه ، وان يغامر في رحابها ، كان عليه أن يقدم ضمانات • ومن بين هذه الضمانات تبني أشكال التفكير الخاصة بالبورجوازية الاستعمارية • نلاحظ هذا في عجز المثقف المستعمَر عن المحاورة ، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن ماهيته ازاء الموضوع أو الفكرة • أما حين يناضل في صفوف الشعب فانه لا ينفك ينتقل من دهشة الى دهشة • ان ما يراه من صدق الشعب وشرفه يسقط من يـــده • والخطر الذي يتربص به عندئذ انما هو الانسياق الكامل ، فاذا هو لا يزيد على ان يثني على كل جملة يقولها الشعب ، واذا كل جملة يقولها الشعب تصير في نفسه الى حكمة لا يأتيها الباطل • على ان الفلاح المتعطل والجائع لا يدعون الحقيقة • انهم لا يزعمون أنهم الحقيقة ، لأنهم الحقيقة في وجودهم ذاتـــه •

ان المثقف يتصرف في هذه الفترة تصرف رجل انتهازي رخيص • والحق أن مناوراته لم تنقطع لحظة • والشعب لا يريد أن يبعده أو يحرجه • فما يريده الشعب هو أن يكون كل شيء مشتركا • ووجود ذلك الميل الغريـــب الى التفاصيل لدى المثقف هو الذي سيؤجل انغماس المثقف في الموجة الشعبيـــة العارمة • لا لأن الشعب عاجز عن التحليل • فهو يحب أن تشرح له الأمور ، هو يجب أن يفهم مفاصل استدلال من الاستدلالات ، يجب أن يرى الى أين هو ذاهب، ولكن المثقف المستعمَر ، في أول اتصاله بالشعب ، يركز اهتمامه على التفاصيل الدقيقة ، ويصل من ذلك الى نسيان هدف الكفاح نفسه ، ألا وهو الحاق الهزيمة بالاستعمار • إنه وقد جرفته حركة الكفاح المتعددة الأشكال ، يميل الى التركيز على مهمات محلية يتابعها في حماسة ، ولكنه يسرف في تقدير عظمتها • انه لا يرى في كل وقت • انه يجيء بفكرة الفروع والاختصاصات والميادين ، فيريد أن يطبقها على هذه الآلة الجبارة التي تخلط وتدمج ، أعني الثورة الشعبية • انه وقد انخرط في القيام بأعمال معينة في الجبهة ، يتفق له أن ينسى وحدة الحركة ، حتى اذا وقع اخفاق محلي ما ، رأيته يستسلم للشك،

بل ولليأس أيضا • ولا كذلك الشعب، فانه يتخذ منذ البداية مواقف اجمالية• الأرض والخبز : ماذا علينا ان نعمل حتى نحصل على الأرض والخبز ؟ وهذه النظرة العنيدة التي ينظرها الشعب ، هذه النظرة التي تبدو في الظاهر محدودة ضيقة ، هي في حقيقة الأمر ، مثال النظرة التي تغني العمل وترفده بالقوة وتكفل له النجح •

وهناك مسألة أخرى يجب أن نقف عندها أيضا ، هي مسألة الحقيقة • ان الشعب يرى، في جميع الأزمان، ان عليه ان لا يقول الحقيقة الا لأهل وطنه • وما من حقيقة مطلقة ولا من خطاب عن النفس الصادقة الشفافة يمكن أن يضعضع موقفه هذا • ان المستعمَر يرد على كذب الاستعمار بكذب مماثل • ان سلوكه صريح مع أهل وطنه ، منكمش غامض مع المستعمِرين • الحق عنده هو ما يعجل انهيار النظام الاستعماري ، هو ما يسهل بزوغ الأمة • في الوضع الاستعماري ليس هناك سلوك يلتزم قول الحقيقة • وليس الخير أيضا الا ما يلحق ضررا بالمستعمِرين •

وهكذا نرى الانقسام الثنائي الأول الذي كان يسود مجتمع المستعمرات يظل قائما في فترة التحرر من الاستعمار • ذلك ان المستعمِر لا يكف ابدا عن ان يكون هو العدو ، هو الخصم ، هو الانسان الذي يجب القضاء عليه • أن المضطهد يخلق في منطقته حركة ، هي حركة السيطرة والاستغلال والنهب • وفي المنطقة الأخرى ، يغذي المستعمر المنهوب هذه الحركة على قدر ما يستطيع، يغذي هذه الحركة التي تمضي بغير توقف من شواطىء البلاد الى قصور « الوطن » ومستودعاته • ان الأرض في هذه المنطقة المجمدة ساكنة لا تتحرك، وأشجار النخيل تتمايل أمام السحب ، وأمواج البحر تتواثب على حصى الشاطىء ، والمواد الأولية تذهب وتجيء مسوغة وجود المستعمِر ، بينما يجثو المستعمَر وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة، مسترسلا في حلم واحد خالد لا يتغير • ان حياة المستوطن ملحمة أشبه بأوديسه • انه البداية المطلقة : « هذه الأرض ، نحن صنعناها » • هو السبب الفعال المستمر : « اذا نحن ذهبنا ، زال كل شيء ، وارتدت هذه الأرض الى القرون الوسطى • » وليس أمامه الا أشخاص خاملون تهدمهم الأمراض و « العادات الموروثة عن الأجداد » • انهم اطار جامد يشبه أن يكون من معدن ، يحف بهذا النشاط المتحرك المتجدد الخلاق الذي يقوم به الاستثمار الاستعماري •

نعم ان المستوطن يصنع التاريخ ويعرف انه يصنعه • وهو يستشهد دائما بتاريخ وطنه الأم ، فيشير اشارة واضحة الى انه هنا امتداد لذلك الوطن الأم • ومعنى هذا ان التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهب خيراته

بل تاريخ أمته فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع. ولا يمكن ان يبدل المستعمر هذا الجمود الذي حكم عليه به الا اذا قرر ان ينهي تاريخ الاستعمار، تاريخ النهب والسلب، وان يوجد تاريخ الأمة، تاريخ تصفية الاستعمار.

عالم حواجز، عالم انقسام، عالم جمود، تماثيل: تمثال الجنرال الذي احتل البلاد، تمثال المهندس الذي بنى الجسر، عالم واثق من نفسه، عالم يسحق بصخوره الظهور التي قشرت جلودها السياط، هذا هو عالم المستعمرات. ان السكان الأصليين في هذا العالم أناس محجوزون. وليس التمييز العنصري الا شكلا من أشكال هذا الحجز في العالم الاستعماري. ان أول شيء يتعلمه السكان الأصليون هو ان يلزموا أماكنهم، وأن لا يتجاوزوا الحدود. لذلك كانت الأحلام التي يحلمها السكان الأصليون أحلاما عضلية، أحلام فعل، أحلام هجوم وعدوان. أنا أحلم بأنني أثب، بأنني أركض، بأنني أتسلق. أحلم بأنني أضحك، بأنني أجتاز نهرا بقفزة، بأن طائفة من السيارات تطاردني ولا تدركني. ان المستعمَر، أثناء الاستعمار، لا يفتأ يحرر نفسه من الساعة التاسعة مساء الى الساعة السادسة صباحا.

والمستعمَر الذي ترسبت في عضلاته روح الهجوم والعدوان هذه، انما يصبها أولا على ذويه. فهذه هي الفترة التي نرى فيها الزنوج يقضي بعضهم على بعض، ونرى فيها رجال الشرطة والقضاء يذهلون من فرط انتشار الجرائم في شمال افريقيا. وسنرى فيما بعد تعليل هذه الظاهرة «١». ويكفينا الآن ان نقول أن المستعمَر يكون ازاء الوضع الاستعماري في حالة توتر دائم. ان عالم المستوطن عالم عدو ينبذه نبذا، ولكنه في الوقت نفسه عالم يستهوي المستعمَر ويثير فيه الحسد. لقد كان المستعمَر يحلم دائما ان يأخذ مكان المستعمر. انه لا يحلم أن يصبح مستعمرا، ولكنه يحلم أن يحل محل المستوطن المستعمر. ان هذا العالم المعادي، الثقيل الوطأة، الذي لا يكف عن العدوان، لا يمثل في نظر المستعمَر جحيما ينبغي الابتعاد عنه بأقصى سرعة ممكنة، وانما يمثل جنة قريبة التناول تحميها زبانية رهيبة، فتدفع عنها الجمهور المستعمَر بكل ما أوتيت من قوة غاشمة.

ان المستعمَر يعيش في خشية دائمة، لأنه لعجزه عن فهم تلك العلامات الكثيرة التي تفصل العالم الاستعماري عن عالمه، لا يعرف في لحظة من

---

١ ـ الفصل الخامس من هذا الكتاب « الحروب الاستعمارية والاضطرابات العقلية ».

اللحظات أهو تجاوز الحد المرسوم أم لا • ان المستعمَر ، في هذا العالم الذي رتبه الاستعماري ، مذنب دائما • وهذا الذنب ليس ذنبا مقترفا ، وانما هو نوع من اللعنة • ولكن المستعمر لا يعترف في قرارة نفسه بأي حكم يصدرونه في حقه • لقد سيطروا عليه ، ولكنهم لم يطوعوه • لقد عدوه متخلفا عنهم ، ولكنه غير مقتنع بأنه دونهم • انه ينتظر بفارغ صبر ان يغفل المستعمر قليلا حتى ينقض عليه • لا يمكن ان نقول عن المستعمَر انه قلق أو خائف • فهو في عضلاته مترقب دائما • انه يتوقع في كل لحظة أن يترك دور الطريدة ليمثل دور الصياد • ان المستعمر شخص مضطهد يحلم دائما أن يصبح مضطهدا • وهذه الرموز الاجتماعية : رجال الدرك والأبواق التي تلعلع أصواتها في الثكنات ، والاستعراضات العسكرية والعلم المرفرف في الفضاء ، هذه الرموز الاجتماعية التي تكبت وتحرض في آن واحد ، لا تعني عنده : « لا تتحرك » ، بل تعني : « هيىء ضربتك تهيئة جيدة » • فاذا مال المستعمَر الى أن ينام وأن ينسى ، فان غطرسة المستعمِر وحرصه على تجريب قوة النظام الاستعماري يذكرانه دائما بأن المعركة الكبرى لا يمكن تأجيلها الى غير نهاية • وهذا الاندفاع الى احتلال مكان المستعمِر يغذي فيه توترا عضليا في كل لحظة • ونحن نعلم أن وجود الحاجز في ظروف انفعالية نفسية يقوي الميل الى الحركة •

ان العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر هي علاقات جماعة بجماعة والمستعمَر يقاوم كثرة العدد بكثرة القوة • ان المستعمر انسان مصاب بداء الميل الى العرض • واهتمامه بسلامته يحمله على ان يذكر المستعمَر جهارا بأنه هو السيد: «أنا هنا السيد » فيثير في المستعمَر غضبا يكبحه هذا حين يهم أن يخرج • ان المستعمَر موثق بالأغلال القوية التي أحكم الاستعمار اطباق حلقاتها عليه • ولكننا رأينا أن المستعمِر لا يحصل الا على تجميد ظاهري ، أما في الداخل فيظل الرجل في حالة غليان • وهذا التوتر العضلي ينطلق من حين الى حين انفجارات دامية : معارك قبلية ونزاعات بين أفراد •

فعلى مستوى الأفراد نشهد أمورا تخالف المنطق حقا : فبينما نرى المستعمِر أو الشرطي يستطيعان من أول النهار الى آخره أن يضربا المستعمَر وأن يهيناه وأن يركعاه ، نجد المستعمَر يشهر سكينه عند أيسر نظرة عدائية أو هجومية يلقيها على مستعمَر آخر ، لأن آخر ما بقي للمستعمَر هو أن يدافع عن شخصيته تجاه مواطنه • ولما كانت الصراعات القبلية استمرارا لأحقاد قديمة مغروسة في الذاكرة ، فان المستعمَر حين يخوض معارك الثأر بكل ما أوتي من قوة ، انما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له ، وأن جميع

الأمور تجري كما كانت تجري في الماضي ، وان التاريخ يستمر • ومن الواضح كل الوضوح ان هذا السلوك على مستوى الجماعات ، نوع من ذلك « السلوك الهروبي » المعروف ، كأن هذا الانغماس في دم الأخوة يمكن أن يعمي عن رؤية العدو الحقيقي ، وان يؤجل خوض المعركة التي لا بد من خوضها ، ألا وهي المعركة المسلحة ضد الاستعمار • ان المعارك التي تقوم بين القبائل انما هي تدمير للذات ، وهذا التدمير هو احدى الطرق التي بها يتحرر المستعمر من توتر عضلاته • وهذا السلوك كله انما هو انتحار تجاه الخطر ، انتحار يسمح للمستعمر الذي تقوى بذلك حياته وتشتد سيطرته ، أن يقول بهذه المناسبة نفسها أن هؤلاء الناس ليسوا عقلاء • وهناك وسيلة أخرى يعمد اليها المستعمَر من أجل ان لا يعبأ بالمستعمِر ، وهي الدين • فبواسطة الايمان بالقدر يجرد المضطهد من المسؤولية ، باعتبار ان الله علة كل شيء ، فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس ، وهو الذي رسم هذا المصير ، فعلى الفرد ان يقبل هذا الفناء الذي أراده الله ، وهكذا يخضع للمستعمِر مذعنا للقضاء والقدر ، ويصل من ذلك بنوع من تحقيق التوازن الداخلي ، الى هدوء كهدوء الصخر •

وتجري الحياة في أثناء ذلك • ومن الخرافات المرعبة ، الكثيرة في المجتمعات المتخلفة ، انما يمضي المستعمَر يستمد أسبابا تمنع روح الهجوم عنده من الانطلاق ، فهو يتصور وجود جن شريرة تتربص به كلما حاول أن يتحرك ، ويتصور وجود بشر أسود ، وبشر أفاع ، وكلاب لها ست أرجل ، وغيلان ، وعدد لا نهاية له من الكائنات الصغيرة أو العملاقة ، تبني من حوله محرمات وسدودا وموانع أرهب من العالم الاستعماري نفسه • ان هذه الاعتقادات السحرية التي يعج بها مجتمع السكان الأصليين تحقق في الحياة الجنسية وظائف معينة • «فمن خصائص المجتمعات المتخلفة ان الغريزة الجنسية فيها أمر جماعي ، عائلي • لقد وصف علماء الأجناس أوضح وصف تلك الظاهرة التي أصبحت الآن معروفة ، وهي أن الرجل ، في بعض المجتمعات ، حين يرى في المنام انه ضاجع امرأة غير امرأته ، يجب ان يعلن ذلك للناس ، وان يدفع للزوج المجني عليه او للأسرة المجني عليها غرامة من هذا النوع أن يعمل لهما عدة أيام » وهذا دليل على ان المجتمعات التي توصف بأنها سابقة على التاريخ تقيم للاشعور وزنا كبيرا » •

ان هذا الجو الخرافي السحري الذي يخيف الفرد يتصرف تصرف واقع لا سبيل الى الشك فيه ، وهو اذ يبث الرعب في الفرد ، يدخل هذا الفرد في تقاليد بلده أو قبيلته ، يدخله في تاريخهما ،وهو في الوقت نفسه يطمئنه ، يعطيه حقوقا ويمنحه هوية • ان عالم الأسرار في البلدان المتخلفة هو عالم

جماعي لا شأن له بغير السحر • انه اذ يقيدني بتلك الأغلال الوثيقة ، ويجعلني أكرر أعمالا بعينها على ثبات جامد ، انما يؤكد لي استمرار عالم هو عالمي ، هو عالمنا • صدقوني اذا قلت لكم ان أشباح الغليان مرعبة أكثر من المستعمرين • ولا تكون مشكلة المستعمَر عندئذ أن يصفي أمره مع العالم الاستعماري المصفح بالحديد ، وانما تكون مشكلته أن يفكر ثلاث مرات قبل ان يبول أو يبصق أو يخرج في الليل •

ان القوة الغيبية السحرية تبدو له قوى جبارة ، وبذلك تصغر قوى المستعمِر في نظره كثيرا ، وتخرج من نطاق اهتمامه ، ولا يكون عليه بعد ذلك أن يكافحها ، لان أعداءه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شيء • وهكذا تنحل الأمور كلها في معارك دائمة على مستوى الوهم والخيال •

ولكن حين يجيء كفاح التحرير ، فان هذا الشعب الذي كان قبل ذلك مقسما الى طوائف وهمية ، هذا الشعب الذي كان فريسة رعب هائل لا يغلب، وكان مع ذلك سعيدا بضياعه في زوبعة الأوهام ، يتبدل أثناء كفاح التحرير ، وينظم نفسه تنظيما جديدا ، ويخلق في وسط الدم والدموع مهمات واقعية جدا، مباشرة جدا • فتقديم الطعام للمجاهدين ، والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة ، ومساعدة الأسر المحرومة مما يقيم الأود ، والنهوض بأعباء زوج قتل او سجن ، تلك مهمات محسوسة ملموسة يدعى اليها الشعب أثناء كفاح التحرير •

والحياة الانفعالية لدى المستعمَر في العالم الاستعماري تجري على السطح كجرح نازف ، والنفس تنقبض وتتفصد ، وتفرغ شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض « كبار العلماء » يقولون عن المستعمر انه انسان مصاب بالهستريا • ان هذه الانفعالية المتوفرة التي يراقبها حرس لا يرون ، ولكنها تتصل بنواة الشخصية رأسا ، لا بد أن تجد لذتها في تلك الانحلالات الحركية التي تلاحظ أثناء حدوث النوبة •

وعلى جانب آخر نرى انفعالية المستعمَر تنطلق في أنواع من الرقص يخرج بصاحبه عن طوره ، ويجعله في حالة من النشوة • ولذلك كان على كل دراسة تتناول العالم المستعمَر أن تعنى حتما بفهم ظاهرة الرقص والمس • ان المستعمَر يفرج عن نفسه في هذه الحفلات الصاخبة التي تجد فيها العدوانية مهما تكن حادة ، ويجد فيها العنف مهما يكن مباشرا ، مجاري وسبلا الى التحول والتلاشي • أن حلقة الرقص حلقة اباحة ، حلقة تحمي وتجيز • ففي ساعات محددة ، من أيام معينة ، يجتمع رجال ونساء في مكان بذاته ، ويأخذون يقومون على مرأى من القبيلة بحركات تمثيلية يوهم ظاهرها بأنها فوضى ، ولكنها في حقيقة الأمر منظمة جدا ، فبأساليب مختلفة ، كهز الرأس واحناء

الظهر واندفاع الجسم كله الى وراء ، تبذل الجماعة جهدا كبيرا في سبيل ان تخرج ذاتها ، ان تعبر عن نفسها • وكل شيء مباح في الحلقة • والأمكنة التي يتم فيها ذلك كله أمكنة مقدسة : الجبل الصغير الذي يصعدون اليه كأنما ليقتربوا من القمر ، والضفة التي ينحدرون اليها كأنما ليظهروا الوحدة بين الرقص والتطهر • واذا كان كل شيء مباحا فلأنهم لم يجتمعوا الا من أجل ان يدعوا للغريزة الجنسية المتجمعة ، وللعدوانية المكبوحة ان تنفجر انفجار البركان • يجب ان تتخفف النفس من أثقالها : فها هم يقومون بأعمال ترمز الى القتل ، وبحركات تمثل الفروسية ، وبأفعال تصور الابادة • ان عليهم أن يتخففوا من هذا كله بالوهم والخيال • فبذلك تنطلق حمم الغضب من أعماق النفس انطلاق قذائف البركان من باطن الأرض •

وما هي الا خطوة أخرى حتى نجد أنفسنا أمام ظاهرة المس ، ظاهرة شعور الفرد بأنه ممسوس ، بأن كائنا غيبيا قد تسلل اليه واستحوذ عليه • ان تلك الجلسات التي نشهدها لدى هؤلاء الناس انما هي ظاهرة مس وتحرر من المس : مس من الجن والشياطين والأشباح والأرباب ، الخ • فهذه الأنواع من التفتت في الشخصية ، والازدواج في الشخصية ، من التحلل في الشخصية ، انما تقوم بوظيفة أساسية في تأمين السكون في العالم المستعمَر • ان الرجال والنساء يذهبون الى تلك الجلسات وقد نفذ صبرهم وتوفزت أعصابهم ، حتى اذا عادوا كان الهدوء والسلام والسكون يهيمن على القرية •

ولكننا نشهد في أثناء كفاح التحرير برء المجتمع من أمراض هذه الطقوس ان المستعمَر حين يجعل ظهره الى الجدار ، وتوضع السكين على عنقه ، أو يقرب السلك الكهربائي من أعضائه الجنسية ، يضطر الى هجر تلك الخزعبلات ، انه بعد أن أنفق من عمره سنوات في الأوهام والأخيلة ، بعد ان غرق في تلك التهاويل الغريبة ، يمسك الآن رشاشه بيده ، ويقاتل القوى التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه ، أعني قوى الاستعمار • والمستعمَر الشاب الذي ينمو ويترعرع في هذا الجو من الحديد والنار يستطيع أن يسخر ـ وهو يسخر حقا ـ من الأجداد والأشباح ، والخيول ذات الرأسين ، والموتى الذين يستيقظون ، والجن الذين يترقبون أن يتثاءب المرء حتى يتسللوا الى جسمه• ان المستعمَر يكتشف الواقع ويبدله حين يقوم بحركة نضالية ، ويمارس العنف ، ويعمل في سبيل التحرير •

لقد رأينا هذا العنف أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ ، ورأيناه شحناته تفرغ في الرقص او في الحفلات التي تعقد لطرد العفاريت من الممسوسين ، ورأيناه يستنفد في خصومات يقتل فيها الاخوة اخوتهم •

والمسألة الآن هي أن نقبض على هذا العنف الذي ينحرف عن سبيله ويضل عن غايته • لقد كان قبل الآن ينصرف في ترهات خرافية ، وكان يحاول أن يكتشف مناسبات انتحار جماعي ، غير ان ظروفا جديدة ستتيح له الآن أن يغير اتجاهه •

هناك على مستوى التكتيك السياسي وعلى مستوى التاريخ مسألة نظرية هي على جانب عظيم من خطورة الشأن ، يطرحها في العصر الراهن تحرير المستعمرات ، هذه المسألة هي : متى يمكن القول ان الوضع قد نضج إلى الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني ؟ ومن هي الطليعة التي يجب أن تقوم بهذه الحركة ؟ فلأن القضاء على الاستعمار قد اتخذ أشكالا مختلفة وصورا متعددة فان العقل يتردد ازاء هذه المسألة ، ويمتنع عن القطع برأي فيما هو قضاء حقيقي على الاستعمار ، وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار • وسنرى ان على الانسان الذي قرر الانخراط في المعركة ان يحدد الوسائل والتكتيك ، أي ان يعين السلوك والتنظيم ، والا لم يكن الأمر الا اندفاع أعمى ، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة والانتكاس •

ما هي القوى التي تقترح على المستعمَر في فترة الاستعمار أن يصب عنفه في طرق جديدة وأن ينفق طاقاته في أعمال جديدة ؟ هذه القوى هي أولا الأحزاب السياسية والنخبة المثقفة أو النخبة التجارية • ونحن نعلم أن ما يميز بعض التشكيلات السياسية هي أنها تنادي بمبادىء ، ولكنها تمتنع عن اطلاق شعارات • وكل النشاط الذي تقوم به هذه الأحزاب السياسية الوطنية انما هو في فترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابي ، هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وحق البشر في الكرامة والخبز ، هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل « ان لكل فرد صوتا » ، ان الأحزاب السياسية الوطنية لا تلح أبدا على ضرورة استعمال القوة ، لأن هدفها ليس قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره • ان هذه الأحزاب السياسية أحزاب مسالمة ، تنادي بالمشروعية ، وتناصر في حقيقة الأمر النظام •• الجديد ، ولا تزيد على أن توجه الى البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب : « أعطونا مزيدا من السلطة » • أما النخبة المثقفة ، فهي في مسألة العنف ليس لها وجه تعرف به ، هي عنيفة في الأقوال ، اصلاحية في المواقف والأعمال • ان المنظمات السياسية الوطنية البورجوازية تقول شيئا وتعني غيره •

ويجب ان نفسر هذه الخاصة التي تميز الأحزاب السياسية الوطنية ، بأمرين في آن واحد هما نوع قادتها ونوع قاعدتها • ان قاعدة الأحزاب

السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن • وهؤلاء العمال والفلاحون وأصحاب الحرف والتجار الذين بدأوا يستفيدون من الوضع الاستعماري ولو استفادة ضئيلة ، هؤلاء لهم مصالح خاصة • وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية في الأحزاب السياسية انما هو تحسين أحوالها وزيادة أجورها • والحوار بين هذه الأحزاب السياسية والاستعمار لم ينقطع يوما • فهي تبحث في تحسين الأحوال وفي التمثيل الانتخابي ، وفي حرية الصحافة وحرية الاجتماع • انها تبحث في الاصلاحات • ولذلك يجب أن لا يدهشنا أن نرى عددا كبيرا من السكان الأصليين ينتمون الى فروع المنظمات السياسية الموجودة في البلد المستعمِر • ان هؤلاء ينادون بشعار مجرد : « السلطة لطبقة البروليتاريا » ناسين أن شعارات وطنية هي التي يجب أن تكون أساس المعركة في منطقتهم • ان المثقف المستعمَر ينفق طاقته الهجومية في صبوة مكشوفة الى التشبه بالعالم الاستعماري • لقد وضع طاقته الهجومية في خدمة مصالحه الخاصة ، وهي مصالح أفراد • وبذلك تنشأ ، بسهولة ، طبقة من العبيد المحررين فرديا ، ان ما يطالب به المثقف هو تكثير عدد هؤلاء المحرَّرين، هو اقامة طبقة من المحرَّرين• ولا كذلك الجماهير ، فانها لا تهدف الى زيادة فرص نجاح الأفراد • ان ما تريده ليس هو الحصول على الحقوق التي يتمتع بها المستعمِر ، بل هو أخذ مكان هذا المستعمر • ان الأكثرية الساحقة من المستعمَرين تريد ان تستولي على مزرعة المستعمر • ليس هدفهم أن يكونوا والمستعمِر أندادا متنافسين ، وانما هدفهم أن يحلوا محله •

ان الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية ، تغفل طبقة الفلاحين دائما ، مع ان من الواضح أن طبقة الفلاحين في البلاد المستعمَرة هي الطبقة الثورية الوحيدة • ان هذه الطبقة لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئا، بل تطمع ان تكسب بالثورة كل شيء • والفلاح ، المنبوذ ، الجائع ، هو الانسان المستغل الذي يكتشف قبل غيره ان العنف وحده هو الوسيلة المجدية • انه امرؤ ليس عنده حل وسط ، ولا مجال عنده لتسوية ، والقوة وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أو زواله • ان هذا المستغل يدرك ان تحرره يقتضي استعمال جميع الوسائل ، وأولها القوة • حين أعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٦ ، بعد استسلام جي موليه للمستعمرين الفرنسيين ، حين أعلنت في منشور شهير لها ، أن الاستعمار لا يرفع يده الا اذا جعلت السكين في عنقه ، لم يجد أي جزائري صادق أن هذه الألفاظ عنيفة • لقد كان ذلك المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين « ويفصح عما رسخ في أعمق أعماق ضمائرهم من ان الاستعمار ليس آلة مفكرة ، ليس جسما مزودا بعقل ، وانما

هو عنف هائج لا يمكن ان يخضع الا لعنف أقوى .»

وحين أزفت ساعة الحساب الحاسم، رأينا البورجوازية الاستعمارية التي ظلت الى ذلك الحين مبتعدة ، رأيناها تتدخل ، منادية بهذه الفكرة الجديدة. التي هي في حقيقة الأمر من مبتكرات الدفاع الاستعماري ، ألا وهي فكرة « اللاعنف » . وفهمت النخبة المثقفة والاقتصادية المستعمَرة من منـاداة البورجوازيـة الاستعمارية نفس المصالح التي لها ، وان من الضروري المستعجل والحالة هذه ان تبادر الى عقد اتفاق معها يضمن السلامة للطرفين . ان اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل الى تراجعها ، قبل اهراق الدم ، قبل القيام بأي عمل مؤسف ! حتى اذا رأوا الجماهير ، قبل ان يصفوا الكراسي حول المائدة الخضراء ، تأبى أن تسمع غير صوت ضميرها ، فتبادر الى استعمال الحرائق والقيام بهجماتها ، هرعوا ــ اي أفراد « النخبة » وقادة الأحزاب البورجوازية الوطنية ــ هرعوا الى الاستعماريين يقولون لهم : « الأمر خطير جدا . وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي هذا كله . فلا بد من ايجاد حل ، لا بد من ايجاد تسوية » .

وفكرة التسوية هذه هامة جدا في ظاهرة التحرر من الاستعمار ، لأنها ليست بسيطة. فالتسوية تتناول في الواقع النظام الاستعماري والبورجوازية الوطنية الناشئة . ان قادة النظام الاستعماري يكتشفون ان الجماهير تهم ان تحطم كل شيء ، فنسف الجسور ، وتخريب المزارع، وأنواع القمع، والحرب، ذلك كله يطعن الاقتصاد طعنا قاسيا . والتسوية تهم البورجوازية الوطنية أيضا ، فهذه البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن هذا الاعصار الجبار ، وتخاف ان تكنسها هذه الريح العاصفة ، فلا تفتأ تقول للمعمرين : « اننا ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة ، فالجماهير ما تزال تثق بنا ، فأسرعوا اذا كنتم لا تريدون ان تعرضوا للمخاطر كل شيء » . وما هي الا خطوة واحدة ، حتى نرى موجه الحزب الوطني يعلن معارضته لهذا العنف ، ويقول بصوت عال ان لا شأن له بهؤلاء الماو ماو ، لا شأن له بهؤلاء الارهابيين ، لا شأن له بهؤلاء الذباحين . وهو في أحسن الحالات يقف في « منطقة محرمة » تفصل بين الارهابيين والمعمرين ، ويعرض نفسه « وسيطا » بين الطرفين ، ومعنى هذا انه لما كان المعمرون لا يستطيعون ان يبحثوا الأمر مع هؤلاء الماو ماو ، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات . وهكذا نرى الناس الذين كانوا في مؤخرة الكفاح الوطني ، الناس الذين لم يشتركوا يوما في النضال ، يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين في سبيل ايجاد تسوية لا لشيء الا لأنهم حرصوا دائما على ان تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الاستعمار .

قبل المفاوضات ، تكتفي أكثر الأحزاب الوطنية ، في أحسن الأحوال ، بأن تلتمس المعاذير لهذه « الوحشية » • انها لا تطالب بالكفاح الشعبي ، وليس نادرا أن نراها تنتقد ، في حلقات مغلقة ، تلك الأعمال التي تصفها صحافة البلد المستعمر ويصفها رأيه العام بأنها منكرة كريهة • وهذه السياسة التجميدية تتعلل بالحرص على رواية الأمور رواية موضوعية • ولكن هذا الموقف الذي يقفه المثقف المستعمَر ويقفه قادة الأحزاب الوطنية ليس في حقيقة الأمر موقفا موضوعيا • وانما الواقع أن هؤلاء الناس ليسوا على ثقة بأن هذا العنف الجامح الذي تعمد اليه الجماهير هو السبيل الأجدى الى الدفاع عن مصالحهم الخاصة • ثم انهم غير مقتنعين بجدوى الأساليب العنيفة • وعندهم أنه لا يجوز الشك في ان كل محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعماري بالقوة انما هي سلوك يأس ، سلوك انتحار • ذلك أن دبابات المعمرين والطائرات المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكانا كبيرا فمتى قلت لهم : يجب علينا ان نعمل ، رأوا القنابل تتسابق فوق رؤوسهم ، ورأوا الدبابات تزحف على طول الطريق ، ورأوا الرشاشات ، والشرطة ••• فظلوا قاعدين لا يتحركون • ان عجزهم عن الانتصار بالعنف أمر لا حاجة الى البرهان عليه ، انهم يبرهنون على هذا العجز في حياتهم اليومية وفي مناوراتهم • انهم يظلون عند ذلك الموقف الصبياني الذي تبناه انجلز في مجادلته الشهيرة مع « هرنج » ذلك الجبل من الصبيانية • « كما استطاع روبنسون أن يحصل على سيف ، ففي وسعنا أيضا ان نتصور ان يظهر فاندرودي ذات صباح وفي يده مسدس مشحون » وعندئذ تنقلب نسبة العنف رأسا على عقب ، فاذا فاندرودي هو الذي يأمر واذا روبنسون هو الذي يكد ويشقى ••• فالمسدس يتغلبَ اذن على السيف ، بل ان أكثر عشاق البديهيات صبيانية في وسعه ان يتصور ان العنف ليس فعل ارادة فحسب ، وانما هو يقتضي شروطا تحضيرية واقعية جدا ، ويقتضي على وجه الخصوص أدوات يتغلب أكملها على الأقل كمالا ، وان هذه الأدوات ، عدا ذلك ، يجب انتاجها ، ومعنى هذا ان الذي ينتج أدوات للعنف أكمل ••• يتغلب على من ينتج أدوات للعنف أقل كمالا ، وزبدة القول ان انتصار العنف يقوم على انتاج الأسلحة وانتاج الأسلحة يستند الى الانتاج بوجه عام •• أي يقوم اذن على « القوة الاقتصادية » ، على الدولة الاقتصادية ، على الوسائل المادية التي توضع تحت تصرف العنف (١) » • الواقع ان القادة الاصلاحيين لا يقولون شيئا آخر : « بأي

---

١ ـ انجلز ، « انتي دوهرنج » ، الجزء الثاني ، الفصل الثالث ، « نظرية العنف » ، ص ١٩٩ من الطبعة الفرنسية « اديسون سوسيال » •

شيء تريدون ان تحاربوا المعمرين؟ بسكاكينكم؟ ببنادق الصيد التي عندكم؟».
صحيح ان الأدوات هامة في ميدان العنف ، لأن كل شيء يتوقف آخر الأمر على توزع هذه الأدوات . ولكن تحرير الاراضي المستعمَرة يأتينا بأضواء جديدة في هذا المجال . لقد رأينا مثلا ان نابوليون ، في حملة اسبانيا التي كانت حربا استعمارية تماما ، أجبر على التقهقر رغم جيوشه التي بلغت أثناء هجمات الربيع من عام ١٨١٠ رقما هائلا هو ٤٠٠ الف مقاتل . وكان الجيش الفرنسي أثناء ذلك يرعب أوروبا كلها بمعداته الحربية ، وبسالة جنوده ، وعبقرية ضباطه العسكرية . لقد اكتشف الاسبان الذين كان يحركهم ايمان لا يتزعزع ، اكتشفوا تلك الطريقة في حرب العصابات التي كان المقاتلون الامريكان قد جربوها قبل خمسة وعشرين عاما في محاربة الجيوش الانجليزية . ولكن حرب العصابات هذه التي يقوم بها المستعمَر لا تكون أداة عنف في وجه أدوات أخرى من أدوات العنف ، ما لم تكن عنصرا جديدا في تلك العملية الشاملة ، عملية التنافس بين التروستات والاحتكارات .

في أول الاستعمار كان يكفي فيلق واحد لاحتلال أراض واسعة : الكونجو ، نيجيريا ، ساحل العاج الخ . أما اليوم فان الكفاح الوطني الذي يقوم به المستعمر يدخل في ظرف جديد جدة مطلقة . لقد كانت الرأسمالية ، في فترة انطلاقها ، ترى في المستعمرات ينبوعا لمواد أولية يمكنها أن تصبها في السوق الاوروبية بعد تصنيعها . ولكنها بعد مرحلة تجمع رأس المال وصلت اليوم الى تبديل مفهومها عن الربح الذي يحققه مشروع من المشاريع . لقد أصبحت المستعمرات سوقا . ان سكان المستعمرات زبائن يشترون . فاذا كان لا بد للثكنات من ان تعزز الى غير نهاية ، واذا بطؤت حركة التجارة ، اي اذا لم يعد في الامكان تصدير المنتجات المصنعة ، كان هذا دليلا على ان الحل العسكري يجب الابتعاد عنه . ان السيطرة العمياء التي هي من نوع الاستعباد لا تدر على البلد المستعمر أرباحا . والفئة الاحتكارية من بورجوازية البلد المستعمر لا تدعم حكومة سياستها هي سياسة السيف وحده . ان الصناعيين ورجال المال في البلد المستعمِر لا يرجون من حكومتهم ان تهلك السكان ، وانما يرجون منها ان تحمي « مصالحهم المشروعة » باتفاقات اقتصادية .

فهناك اذن تواطؤ موضوعي بين الرأسمالية وبين قوى العنف التي تنطلق في الاراضي المستعمَرة . ثم ان المستعمَر لا يجابه المضطهد وحيدا . هناك ، طبعا ، المعونة السياسية والدبلوماسية التي تقدمها البلاد التقدمية والشعوب التقدمية . ولكن هناك التنافس خاصة ، هناك تلك الحرب الضارية التي تقوم بين الطوائف الاقتصادية . ان مؤتمرا كمؤتمر برلين قد استطاع ان

يقسم أفريقيا الممزقة الى ثلاثة أجنحة او أربعة . أما الآن فليس المهم ان تكون هذه المنطقة او تلك خاضعة للسيادة الفرنسية أو البلجيكية ، وانما المهم حماية المناطق الاقتصادية . ان القصف بالمدافع وسياسة الأرض المحروقة ، قد حلت محلها الآن سياسة الاخضاع الاقتصادي . ان الاستعماريين لا يخوضون الآن حربا تأديبية ضد السلطان المتمرد . انهم الآن أكثر لباقة ، وأقل دموية ، فهم يقررون ان يصفوا النظام القيصري تصفية سلمية . انهم يحاولون خنق غينيا ، ويزيلون مصدق . ويخطىء اذن الزعيم الوطني الذي يخاف العنف ، اذ يتصور ان الاستعمار « سيقتلنا جميعا » . صحيح ان العسكريين يستمرون على اللعب باللعب التي يرجع عهدها الى أيام الفتح ، ولكن الأوساط المالية ما تلبث ان تردهم الى الواقع .

ولذلك يطلبون الى الأحزاب السياسية الوطنية العـــاقلة ان تعرض مطاليبها واضحة ، وان تبحث مع الشريك الاستعماري في جو هادىء لا تعكره العواطف عن حل يكفل مصالح الطرفين . وواضح ان هذه النزعة الاصلاحية الوطنية ، التي تبدو في كثير من الأحيان نوعا من الكاريكاتور للعمل النقابي ، تعمد دائما الى وسائل سلمية جدا اذا هي قررت ان تعمل : اضرابات عن العمل في الصناعات القليلة الموجودة في المدن ، مظاهرات جماهيرية لتأييد الزعيم ، حجز سيارات النقل أو الحاصلات المستوردة . ان هذه الأعمال كلها تحقـــق غرضين في آن واحد ، هي الضغط على الاستعمار واستنفاد قوى الشعب . وهذه الطريقة في تنويم الشعب تنجح في بعض الأحيان . وعندئذ ، مـــن المناقشة حول المائدة الخضراء ، ينبثق هذا التنصيب السياسي الذي يسمح للسيد « مبا » ، رئيس جمهورية الجابون ، ان يقول في كثير من الأبهة والعظمة حين وصوله الى باريس في زيارة رسمية : « لقد استقلت الجابون ، ولكن بين الجابون وفرنسا لم يتبدل شيء ، بل كل شيء يستمر كما كان » . والواقع أن التبدل الوحيد الذي تحقق هو ان السيد « مبا » قد أصبح رئيس الجمهورية الجابونية ، وان رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبله .

والدين الذي لا مناص منه يساعد البورجوازية الاستعمارية في محاولـــة التهدئة التي تقوم بها . ان جميع القديسين الذين مدوا الخد الأيسر لمن ضربهم على الخد الأيمن ، الذين غفروا لمن أساء اليهم ، الذين تلقوا البصاق والاهانة دون أن يختلجوا ، ان هؤلاء جميعا يستشهد بهم . وأفراد النخبة في البـــلاد المستعمَرة ، هؤلاء العبيد الذين أعتقوا ، لا بد ان ينتجوا بديلا للقتال حـــين يكونون على رأس الحركة . انهم يستعملون عبودية اخوتهم من أجل أن يخجل منهم المستعبدون ، او من أجل أن يزودوا الجماعات المالية ، المتنافسة مـــع

المضطهدين ، بمضمون ايديولوجي انساني النزعة هو لهم بمثابة المصباح المرشد • انهم لا يتجهون بندائهم أبدا الى العبيد ، انهم لا يفعلون ذلك حقا في يوم من الأيام ، ولا يحاولون ان يعبئوا قوى هؤلاء العبيد تعبئة حقيقية ، انهم يلوحون تلويحا بأن تعبئة الجماهير هي السلاح الحاسم الذي سيؤدي الى « نهاية النظام الاستعماري » ، كأنما بنوع من السحر ، متظاهرين ان هذا هو ما يعتقدونه حقا وصدقا ، مع انه في قرارة أنفسهم كذب • وبطبيعة الحال لا بد أن يوجد في هذه الأحزاب السياسية ، وبين أعضاء قيادتهم ، أناس ثوريون يديرون ظهورهم لهزلة الاستقلال الوطني عن وعي وفهم • ولكن هؤلاء سرعان ما تنزعج آلة الحزب من تدخلاتهم ومبادهاتهم واستياءاتهم ، فاذا بهؤلاء الثوريين يعزلون شيئا بعد شيء ، ثم يبعدون عن الحزب صراحة • وفي الوقت نفسه ، يتعرف عليهم البوليس الاستعماري • كأن هنالك نوعا من التواقت والتلازم • فاذا صاروا في المدينة غير آمنين على أنفسهم ، وصار أعضاء الحزب يتحاشونهم ، ونبذتهم سلطات الحزب ، رأينا هؤلاء المنبوذين الذين تقذف أعينهم شررا محرقا ، يذهبون الى الأرياف ، وهنالك يدركون وفي رؤوسهم دوار أن جماهير الفلاحين تفهم عنهم بنصف كلمة ، وتطرح عليهم فورا هذا السؤال الذي لم يهيئوا جوابه : « متى نبدأ ؟ » •

سنتحدث فيما بعد عن هذا اللقاء بين الثوريين الآتين من المدن وبين القرويين • وانما يحسن الآن ان نعود الى الأحزاب السياسية ، لنبين ان لعملها مع ذلك طابعا تقدميا • ان الموجهين السياسيين يتحدثون في خطبهم عن الأمة • انهم « يسمّون » الأمة • وبذلك تأخذ مطالب المستعمَر شكلا • صحيح أنه ليس هناك مضمون ، صحيح أنه ليس هنالك برنامج سياسي واجتماعي ، صحيح أنه ليس هنالك الا شكل غامض مبهم ، ولكن هذا الشكل قومي ، انه اطار ، وهو ما تسميه بالحد الأدنى من المطالب • ان رجال السياسة الذين يخطبون ، ويكتبون في الصحف الوطنية ، يجعلون الشعب يحلم ، صحيح أنهم يتحاشون فكرة نسف النظام القائم ، ولكنهم في الواقع يبثون في ضمائر المستمعين والقراء خمائر رهيبة تهيىء للنسف • وهم كثيرا ما يستعملون اللغة الوطنية أو لغة القبائل ومن شأن هذا أيضا ان يغذي الحلم ، وأن يسمح للخيال بالطواف خارج النظام الاستعماري • هذا الى ان هؤلاء السياسيين يقولون أحيانا : « نحن العرب ، نحن الزنوج » وهذه التسمية المثقلة بالاحتقار في عهد الاستعمار تتلقى بذلك نوعا من الاحترام والتقديس • ان السياسيين يلعبون بالنار • ومن أجل ذلك رأينا أحد السياسيين الافريقيين يسر الى جماعة من المثقفين الشباب منذ مدة يسيرة قوله : « فكروا قبل ان تخاطبوا الجماهير ،

لأن الجماهير ، تلتهب مشاعرها بسرعة » . هنالك اذن مكر من التاريخ يتم في المستعمرات على نحو رهيب .

حين يدعو أحد السياسيين الشعب الى اجتماع ، فيمكن ان نقول ان في الهواء دما . ومع ذلك فان هذا السياسي لا يعنى في أكثر الأحيان الا «باظهار» قواه ... دون استعمالها . غير أن هذا التحرك المتصل — من ذهاب واياب ، واستماع الى خطب ، ورؤية الشعب مجتمعا ، ورؤية الشرطة حوله ، وقيام الجنود باستعراضات ، واعتقال أفراد من الناس ، وترحيل الزعماء ، الخ — هذا التحرك المتصل يشعر الشعب بانه قد آن له هو ان يفعل شيئا . والاحزاب السياسية ، في مثل هذه اللحظات القلقة ، تكثر نداءاتها الى ناحية اليسار طالبة الى الشعب أن يلتزم الهدوء ، بينما هي تتطلع بأنظارها الى ناحية اليمين تستكشف الأفق ، وتحاول أن تحذر ما يخبئه الاستعمار من نيات .

والشعب يستعمل أيضا بعض الأحداث من حياة الجماعة ، في سبيل أن يحافظ على شكله ، وأن يصون طاقته الثورية . من ذلك ان قاطع الطريق الذي يصمد لمطاردات رجال الدرك أياما بكاملها ، أو الذي يقتل في معركة فذة بعد أن يقتل أربعة من رجال الشرطة أو خمسة ، أو الذي ينتحر حتى لا « يسلم » رفاقه ، هؤلاء جميعا بالنسبة الى الشعب منارات ، وقدوات ، و « أبطال » . وليس يجدي طبعا أن نقول عن فلان من هؤلاء الأبطال انه لص ، أو رجل فاسد ، أو منحط . فانه يكفي أن يكون هذا الرجل الذي تطارده السلطات الاستعمارية قد أساء الى أحد المستعمرين أو الى أملاك أحد المستعمرين ، حتى يفرق بينه وبين المذنب العادي تفريقا واضحا .

ويجب أن نشير أيضا الى الدور الذي يلعبه في ظاهرة النضج هذه تاريخ المقاومة الوطنية عند الغزو الاستعماري . ان الوجوه الكبرى التي تظل ماثلة في خيال الشعب المستعمر ، انما هي وجوه أولئك الذين قادوا المقاومة الوطنية أثناء الاحتلال . ان وجوه بيهانزين ، وساوندياتا ، وساموري ، وعبد القادر تعود الى الحياة بقوة كبيرة في الفترة التي تسبق بدء الكفاح ، وعودتها هذه بشير بأن الشعب يتهيأ لأن يستأنف السير ، لأن يوقف الزمن الميت الذي حمله اليه الاستعمار ، لأن يصنع التاريخ .

ان انبثاق الأمة الجديدة ، وتدمير النظم الاستعمارية هما اما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمَر ، واما ثمرة العنف الذي تقوم به شعوب أخرى مستعمرة فيضغط على النظام الاستعماري .

ان الشعب المستعمَر ليس وحيدا في المعركة . وحدوده تظل تتسرب منها الأنباء والأصداء رغم الجهود التي يبذلها الاستعمار . انه يكتشف ان العنف

يملأ الجو ، وأنه ينطلق هنا وهناك ، وأنه هنا وهناك ينتصر على النظـــام الاستعماري . فهذا العنف الذي ينتصر لا يقوم لدى المستعمَر بدور النبأ الذي يطلعه على الاحداث ، وانما هو يحضه على العمل . ان الانتصار الكبير الذي حققه الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو لم يعد انتصارا فيتناميا فحسب ، فمنذ شهر تموز من عام ١٩٥٤ أصبحت المسألة التي تطرحهـا الشعـــوب المستعمَرة على نفسها هي المسألة التالية : « ماذا يجب ان نعمل حتى نحقق ديان بيان فو ثانيه ؟ كيف يجب أن نفعل حتى نحقق ديان بيان فو ثانيه ؟ » . وما من مستعمَر كان يستطيع ان يشك في امكـــان تحقيق انتصار كذلـك الانتصار الذي تحقق في ديان بيان فو . وأصبحت عناصر المسألة هي هذه : اعداد القوى ، تنظيمها ، تحديد موعد البدء في المعركة . وهذا العنف الذي يملأ الجو لا يبدل المستعمَرين فحسب ، بل يبدل أيضا الاستعماريين الذين يدركون ان معارك كثيرة سيكون مصيرها كمصير معركة ديان بيان فـــو . ولذلك فان ذعرا كبيرا منظما يجتاح الحكومات الاستعمارية ويستولي عليها . فاذا حديثهم يدور حول ضرورة استباق الأمور ، ضرورة تحويل حركة التحرير الى جهة اليمين ، ضرورة تجريد الشعب من الحجج التي يتذرع بها ، واذا هم يقولون : « يجب أن نبادر بسرعة الى تحرير المستعمرات . » يجب ان نحرر الكونغو قبل أن تتحول الى « جزائر » يجب أن نقترع على قانون الدستور لافريقيا ، يجب ان نبادر الى خلق « رابطة الشعوب الفرنسية » يجب على كل حال ان نحرر المستعمرات ، يمينا ان علينا ان نحرر المستعمرات .. وهم يبادرون الى هذا التحرير بسرعة تبلغ من الشدة أنهم يفرضون الاستقلال على هوفويت بواني فرضا . وهكذا يرد الاستعمار على استراتيجية ديان بيان فو التي يرسمها المستعمَر باستراتيجية أخرى ، هي استراتيجيـــة منـــح الاستقلال واحترام سيادة الدول .

ولنعد الآن الى ذلك العنف الذي يملأ الهواء والذي رأيناه ، قبل اكتمال نضجه ، يفرغ شحناته في غير الطرق السلمية . ان هذا العنف ، رغـــم التحولات التي فرضها عليه الاستعمار ، اذ جعله ينصرف في نزاعات قبلية أو محلية ، يسير الآن في طريقه . اذن فالمستعمَر يعرف عدوه ، ويسمي أنواع الشقاء التي يقاسيها ، ويضع في هذا الدرب الجديد كل ما في حقده وغضبه من قوة هائلة . ولكن كيف ننتقل من العنف الذي يملأ الهواء الى العنف الذي يتدفق في كفاح ؟ ما هو الشيء الذي يفجر المرجل ؟ هنالك أولا هذه الواقعة ، وهي ان هذا التطور يفسد على المعمر طمأنينته . ان المعمر الذي يعـــرف « هؤلاء الأهالي » ، يدرك من بادرات كثيرة ان هناك شيئا هو بطريق التبدل

والتغير • لقد أصبح يندر أن يقع على أناس « طيبين » مسالمين ، من هـؤلاء الأهالي ، وأصبح الأهالي يصمتون حين يقترب منهم أحـد المعمريـن • والنظرات في بعض الأحيان قاسية ، والأوضاع والأحداث تـدل على روح الهجوم دلالة واضحة • والأحزاب السياسية تتحرك وتكثر اجتماعاتها ، وفي الوقت نفسه يزداد عدد رجال الشرطة ، وتصل امدادات عسكريـة • ان المعمرين ، ولا سيما الزارعين المنعزلين في مزارعهم ، هم أول من يحس بالخطر ، فيطالبون باتخاذ اجراءات قوية •

وتعمد السلطات فعلا الى اتخاذ اجراءات لاظهار قوتها ، فتقتل زعيما أو زعيمين ، وتنظم استعراضات عسكرية ، وتقوم بمناورات وتطلق طائراتها في السماء • ولكن هذه المظاهر وهذه التدريبات الحربية ورائحة البارود هذه التي تملأ الجو في هذه الأيام لا تحمل الشعب على التراجع والتقهقر ، بل ان المدافع والحراب تذكي نار الهجوم فيه • ويسود جو بطولي يريد فيه كل فرد أن يبرهن على أنه مستعد لكل شيء • وفي هذه الظروف تنطلق الطلقة مـن تلقاء نفسها ، لأن الأعصاب متوفزة ، والخوف يملأ النفوس ، والناس قـد تركز احساسها على الزناد • فما هو الا حادث تافه حتى يبدأ اطـلاق الرصاص : ذلك ما حدث في صطيف بالجزائر ، وفـي الكـاريير سنترال بمراكش ، وفي مورامانجا بمدغشقر • ولكن أعمال القمع التي تقوم بهـا السلطات الاستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب ، بل تعجل نمو الوعي القومي • ان النوازل في المستعمرات انما تعزز الوعي الذي أخذ ينمو ، لأنها تدل على ان القوة وحدها هي التي تفض المشاكل بين المضطهِدين والمضطهَدين • ويجب ان نذكر هنا أن الأحزاب السياسية لم تطلق شعار الثورة المسلحة ، ولا هي أعدت هذه الثورة • ان جميع هذه الأعمال العنيفة ، ان جميع هذه الأفعال التي ولدها الخوف ، لم يشأ السياسيون ان تقع • وانما باغتتهم الحـوادث مباغتة • وفي هذه اللحظة يستطيع الاستعمار ان يقرر اعتقال القادة الوطنيين • ولكن حكومات البلاد الاستعمارية تعرف اليوم حق المعرفة أن حرمان الجماهير من زعيمها أمر خطر كل الخطر • لأن الشعب عندئذ ، وقد فقد لجامه ، يندفع الى العنف والارهاب و « الأعمال الوحشية » اندفاعا قويا ، ويطلق العنـان « لغرائزه الدموية » فيفرض على الاستعمار اطلاق سراح الزعماء الذين تقع على عاتقهم هذه المهمة الصعبة ، وهي أن يعيدوا الهدوء والسكينة • وهكذا فـان الشعب المستعمَر الذي انطلق من تلقاء ذاته يستعمل العنف في سبيل تحقق تلك المهمة العظيمة ، مهمة تحطيم النظام الاستعماري ، يجد نفسه بعد برهة قصيرة مقتصرا على المناداة بهذا الشعار الميت العقيم : « اطلاق سراح زيد أو

عمر من الناس «١» • » وعندئذ يطلق الاستعمار سراح هؤلاء الناس ، ويبحث الأمور معهم ، وتبدأ ساعة احتفالات الابتهاج الشعبية •

وفي حالةأخرى لا يمس جهاز الأحزاب السياسية بأذى ولكن القمع الاستعماري والحركة التي يقوم بها الشعب من تلقاء ذاته ردا على ذلك القمع ، ما يلبثان أن يجعلا القاعدة الشعبية في تلك الأحزاب تطغى على قياداتها ، فالجماهير تقابل القوى العسكرية بعنف قوي ، فيتردى الوضع بالنسبة الى الاستعمار ، والسياسيون الذين لم يعتقلوا يصبحون على الهامش أناساً متعطلين لا خير فيهم ولا في بيروقراطيتهم وبرامجهم الحكمية ، فهم بعيدون عن الحوادث ، ولكنهم لا يتورعون عن التبجح الكاذب فتراهم « يتحدثون باسم الشعب المضطهد » • والاستعمار في العادة يتهافت بشراهة على هذه النفاية ، ويحيل هؤلاء العاطلين الى مفاوضين ، فما هي الا ثوان أربع حتى يمنحهم الاستقلال ، ويكون عليهم بعد ذلك ان يعيدوا النظام الى نصابه •

جميع الناس شاعرون اذن بهذا العنف ، وليست المسألة دائما كيف يرد عليه بعنف أشد ، وانما هي : كيف توقف الأزمة ؟

فما هو هذا العنف في واقع الأمر ؟ لقد رأينا أنه ادراك الجماهير المستعمرة ، بحدسها ، ان تحررها يجب أن يتم بالقوة ، ولا يمكن ان يتم الا بالقوة • فكيف يصل هؤلاء الناس الذين ليس لهم خبرة ، هؤلاء الناس الجياع الضعاف ، الذين لا علم لهم بطرائق التنظيم كيف يصلون ازاء القوة الاقتصادية والعسكرية التي يملكها المحتل ، الى الاعتقاد بأن العنف وحده يستطيع ان يحررهم ؟ كيف يستطيعون أن يؤملوا في النصر ؟

ذلك أن العنف ، يمكن ان يكون ، من حيث هو وسيلة ، ستارا لحزب سياسي ، وفي وسع قيادات حزبية أن تدعو الشعب الى كفاح مسلح • ولا بد من التفكير في هذا العنف الذي تضمن نتائجه • لئن تقرر العسكرية الألمانية حل مشاكل الحدود بالقوة ، فذلك أمر لا يدعو الى الدهشة ، أما أن يقرر الشعب الأنجولي مثلا ان يحمل السلاح ، أو أن ينبذ الشعب الجزائري كل وسيلة أخرى غير العنف ، فذلك يدل على أن شيئا ما قد حدث أو هو بسبيل الحدوث • ان هؤلاء الناس المستعمَرين ، ان هؤلاء العبيد ، عبيد العصور الحديثة ، قد نفذ صبرهم • انهم يعلمون ان هذا الجنون وحده يستطيع أن يخلصهم من براثن الاضطهاد الاستعماري • ان نوعا جديدا من العلاقات قد

---

١ ـ قد يحدث ان يكون الزعيم المعتقل تعبيرا صادقا عن الجماهير المستعمرة• وفي هذه الحالة ينتهز الاستعمار فرصة اعتقاله من اجل محاولة ايجاد زعماء جدد •

قام في العالم. ان الشعوب المتخلفة تحطم أصفادها، والأمر الخارق أنها تنتصر. من الممكن أن يقال ان من السخف ان يموت الانسان جوعا في عصر الأقمار الصناعية ، ولكن الجماهير المستعمَرة لا تفسر الأمور تفسيرات قمرية من هذا النوع . والحقيقة هي أنه ما من بلد استعماري يستطيع اليوم أن يتبنى ذلك الشكل الواحد من الصراع الذي قد ينجح ، أعني الاستمرار في ارسال قوات احتلال كبيرة الى غير نهاية .

والبلاد الاستعمارية تعاني في داخلها تناقضات ، وتجابه مطامع عمالية تقتضيها استعمال قواتها البوليسية . ثم ان هذه البلاد الاستعمارية هي على الصعيد الدولي محتاجة الى جيوشها لحماية نظامها السياسي . وهناك أخيرا تلك الخرافة المعروفة القائلة بأن حركات التحرير تقودها موسكو ، وهذه الخرافة تعني في التعليلات المذعورة التي يعمد اليها النظام الاستعماري ما يلي : « اذا استمر الأمر ، فالشيوعيون يمكن ان ينتهزوا فرصة هذه الاضطرابات ليتغلغلوا في هذه المناطق » .

ان نفاد صبر المستعمَر وتلويحه الصريح باستعمال العنف يدلان على أنه يدرك أن الظرف الحالي ظرف استثنائي ، ويدلان على أنه ينوي الاستفادة من هذا الظرف . ولكن المستعمر الذي يتاح له اليوم ان يرى العالم الحديث ينفذ حتى الى أقصى أركان البوادي ، يشعر شعورا حادا ، على مستوى التجربة المباشرة أيضا ، بحرمان ، فتقتنع الجماهير ، بواسطة نوع من الاستدلال ... الصبياني ، أن هذه الأشياء كلها قد سرقت منها ، لذلك نراها في بعض البلاد المتخلفة ، تسيز بسرعة وتفهم بعد سنتين أو ثلاث سنين من الاستقلال ، أنها كانت مغبونة ، وان « الأمر لم يكن ليستحق ذلك العناء كله » اذا لم تتبدل الحال تبدلا حقيقيا . في عام ١٧٨٩ ، بعد الثورة البورجوازية، استفاد الفلاحون الصغار من تلك الثورة فوائد أساسية . ولكن من نافل القول ان نذكر ان أكثرية سكان البلاد المتخلفة ، ان ٩٥ ٪ من سكان البلاد المتخلفة ، لا يحمل اليهم الاستقلال في معظم الحالات تغييرا مباشرا . لذلك يلاحظ المراقب الخبير أن هناك نوعا من الاستياء الكامن يشبه تلك الحجرات التي تبقى بعد انطفاء الحريق ، وتهدد باندلاع النيران من جديد .

ويقولون عندئذ ان المستعمَرين يريدون أن يغالوا في السرعة . بينما كانوا يؤكدون قبل ذلك بقليل أن المستعمَرين أناس بطيئون كسالى اتكاليون. اننا نلاحظ منذ الآن ان العنف الذي سار في طرق محددة واضحة ابان كفاح التحرير لا ينطفىء انطفاء سحريا بعد احتفالات رفع الرايات الوطنية ، بل يظل

متقدما ، خاصة وأن عهد البناء الوطني يظل يتم في اطار التنافس النهائي بين الرأسمالية والاشتراكية •

ان هذا التنافس يجعل حتى للمطالب المحلية بعدا عاما يكاد يشمل الأرض بأسرها ، فكل اجتماع ، وكل عمل من أعمال القمع ، تترجع أصداؤه في العالم كله • ان حوادث القتل التي وقعت في شاربفيل قد هزت الرأي العام العالمي أشهرا طويلة • وأصبحت شاربفيل ، في الصحف وفي محطات الاذاعة وفي الأحاديث الخاصة ، رمزا ، فمن خلال حوادث شاربفيل عالج الرجال والنساء مشكلة التمييز العنصري في جنوب افريقيا • ولا نستطيع ان نزعم أن الديماغوجية وحدها هي السبب في هذا الاهتمام المفاجيء الذي يبديه «الكبار» بالشؤون الصغيرة المتصلة بالمناطق المتخلفة • ان كل ثورة وكل تمرد يقعان في العالم الثالث يدخلان الآن في اطار الحرب الباردة • يكفي أن يضرب رجلان في سالزبوري ، حتى تهتز كتلة بكاملها من الكتلتين ، وتأخذ تتحدث عن هذين الرجلين ، وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة بروديسيا ، رابطة هذه المشكلة بمشكلة افريقيا كلها ، وبمشكلة البشر المستعمَرين جميعا • ولكن الكتلة الثانية ، تقيس أيضا بمقياس سعة الحملة التي شنت عليها ما في نظامها من نقاط الضعف • وتدرك الشعوب المستعمَرة انه ما من فئة من الفئتين الا وتهتم بالحوادث المحلية • فتكف هذه الشعوب المستعمَرة عن الاقتصار على آفاقها المحلية ، اذ يدركها هذا الجو العام المشحون بالاهتزاز •

حين يعلن ، كل ثلاثة أشهر ، ان الأسطول السادس أو الأسطول السابع تحرك نحو هذا الشاطيء أو ذاك ، وحين يهدد خروتشوف بانقاذ كاسترو بالصواريخ ، وحين يقرر كندي ، بمناسبة لاوس ، أن يعمد الى الحلول القصوى، فان المستعمِر الذي ما يزال مستعمرا ، والمستعمَر الذي نال الاستقلال يشعران ، شاءا أم أبيا ، أن نوعا من السير المسعور يجرفهما جرفا • والواقع أنهما يسيران من قبل أن يجرفا • أنظروا مثلا الى حكومات البلاد التي تحررت منذ عهد قريب • ان رجال الحكم في هذه البلاد ينفقون ثلثي وقتهم في مراقبة الأحداث التي تدور حولهم ، وفي اتقاء الخطر الذي يهددهم ، وينفقون الثلث الأخير من وقتهم في العمل لبلادهم • وهم في الوقت نفسه يبحثون لأنفسهم عن دعائم • وتخضع المعارضة الوطنية لهذا المنطق نفسه ، فتدير ظهرها للطرف البرلمانية في كثير من الاحتقار ، وتمضي تبحث عن حلفاء يقبلون ان يدعموا رغبتها في القيام بثورة عنيفة • ان جو العنف الذي كان يسود المرحلة الاستعمارية ، يظل يسيطر على الحياة الوطنية • ذلك ان العالم الثالث ، كما

سبق ان قلنا ذلك ، ليس مستبعدا من هذا الاعصار ، بل انه هو في مركــز الاعصار • لذلك نرى رجال الدولة في البلدان المتخلفة يظلون يستعملون في خطبهم لهجة الهجوم والغضب التي كان ينبغي في الأحوال العادية ان تزول • وما اكثر ما يكون هؤلاء القادة الجدد شرسين في أقوالهم ! ذلك أمر يفهم أيضا • غير أن الشيء الذي يفهم أقل من ذلك أن هؤلاء القادة أنفسهم يظهرون كثيرا من الكياسة واللباقة في معاملة الاخوة أو الرفاق • ان الشراسة هي أولا سلوك مع « الآخرين » ، مع الذين كانوا مستعمرين ثم جاءوا اليوم ينظرون ويتقصون• ان الشخص الذي كان مستعمرا يشعر في كثير من الأحيان بأن النتيجة التي يريد أن ينتهي اليها هؤلاء الناس في تحقيقاتهم الصحفية عن هذه البلاد قــد كتبوها قبل أن يجيئوا• وليس مجيء الصحفي الى البلاد الا ستارا وتبريرا• ان الصور الفوتوغرافية التي ينشرها مع المقال تبرهن على الغرض الذي جاء من أجله • ان هدفه من كتابة التحقيق هو ان يتحقق من صدق قناعته السابقة ، وهي أن كل شيء أصبح سيئا هنالك منذ خروجنا • ان الصحفيين يشكــون دائما من انهم يستقبلون استقبالا سيئا ، وأنهم يعملون في ظروف صعبــة ، وانهم يصطدمون بجدار من عدم الاكتراث أو من العداوة • هذا كله طبيعي • ان القادة الوطنيين يعرفون ان الرأي العام العالمي تصنعه الصحافة الغربيــة وحدها • وحين يجيئنا صحفي غربي ويطرح علينا أسئلة ، فقلما يكون هدفه من ذلك ان يخدعنا • انظروا الى حرب الجزائر مثلا • ان اكثر الصحفــيين الفرنسيين تحررا لم يكفوا لحظة عن استعمال نعوت ملتبسة المعاني حــين يريدون ان يصفوا ثورتنا فاذا عوتبوا في ذلك قالوا انهم أناس موضوعيون • والمستعمَر يرى ان الموضوعية موجهة دائما ضده • وطبيعية أيضا تلك اللهجة الجديدة التي أغرقت الدبلوماسية الدولية في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في أيلول « سبتمبر » عام ١٩٦٠ • لقد كان ممثلو البـــلاد المستعمَرة يتحدثون بلغة هجوية عنيفة مهينة ، ولكن الشعوب المستعمَرة لم تجد أنهم كانوا مبالغين أو مغالين • ان راديكالية هؤلاء الممثلين الافريقــيين الذين كانوا ينطقون بلسان الشعوب الافريقية قد أنضجت الدمَّل ، وجعلت الناس يدركون ان اعتراضات الفيتو هذه أمر غير مقبول ، وكذلك هذا الحوار بين « الكبار » ، وخاصة هذا الاستخفاف بالعالم الثالث ، وجعل دوره محدودا تافها •

ان هذه الدبلوماسية التي دشنتها الشعوب المستقلة حديثا لا تعرف اللف والدوران حول الفروق الطفيفة ، ولا تعرف المكر الذي يعلن غير ما يبطن•

ذلك أن هؤلاء الناطقين باسم شعوبهم قد كلفتهم شعوبهم ان يدافعوا في آن واحد عن وحدة الأمة ، وعن تقدم الجماهير نحو الرخاء ، وعن حق الشعوب في الحرية وفي الخبز •

فهي اذن دبلوماسية متحركة ، دبلوماسية حانقة ، تتعارض تعارضا قويا مع ذلك العالم الساكن ، الجامد ، عالم الاستعمار • حين يلوح السيد خروشوف بحذائه في هيئة الأمم المتحدة ، ويضرب به المنضدة فما من ممثل من ممثلي البلاد المتخلفة يضحك • ذلك أن ما يبنيه السيد خروشوف للبلاد المستعمَرة ، هو انه ، وهو فلاح يملك من جهة أخرى صواريخ ، يعامل هؤلاء الرأسماليين الأشقياء المعاملة التي يستحقونها • وكذلك فان كاسترو الذي يتحدث في منظمة الأمم المتحدة وهو بلباسه العسكري ، لا يثير استغراب البلاد المتخلفة • ذلك ان ما يبينه كاسترو هو أنه يدرك أن عهد العنف ما يزال قائما • وانما المستغرب انه لا يدخل هيئة الأمم المتحدة وفي يده رشاشه• ولكن ربما كانوا يعارضون في ذلك • أن الثورات ، والأفعال اليائسة ، والجموع المسلحة بالخناجر أو الفئوس ، تجد وطنيتها في هذا الصراع الفائر الذي يقوم بين الرأسمالية والاشتراكية •

لقد أمكن ، في عام ١٩٤٥ ، أن لا يلاحظ الناس مقتل ٤٥٠٠٠ جزائري في صطيف ، وفي عام ١٩٤٧ أمكن أن يقتل ٩٠٠٠٠ شخص في مدغشقر دون ان يكون هذا الحادث الا خبرا صغيرا في زوايا مهملة من زوايا الصحف ، وفي عام ١٩٥٢ أمكن أن يموت ٢٠٠٠٠٠ شخص في كينيا دون أن يكترث أحد بالأمر كبير اكتراث • ذلك ان التناقضات الدولية لم تكن في تلك الأيام الحاسمة قاطعة الى درجة كافية • صحيح ان حرب كوريا وحرب الهند الصينية كانتا قد دشنتا مرحلة جديدة • ولكن بودابست والسويس هما اللحظتان الحاسمتان في هذه المرحلة الجديدة •

ان المستعمِرين ، وقد قواهم الدعم غير المشروط الذي ينالونه من البلدان الاشتراكية ، يهجمون بالأسلحة التي معهم على هذه القلعة التي لا تقهر ، قلعة الاستعمار • ولئن كانت هذه القلعة لا تخدشها السكاكين والأيدي العارية ، فانها لا تظل كذلك حين يحزم المقاتلون أمرهم على ان يحسبوا حساب حالة الحرب الباردة •

ان الأمريكيين ، في هذا الظرف الجديد ، يعدون أنفسهم في كثير من الجد ، أوصياء على الرأسمالية الدولية ورعاة لها • لذلك نراهم في مرحلة أولى ينصحون البلاد الأوروبية بأن تجرر المستعمرات وديا ، ونراهم في مرحلة

ثانية لا يترددون في ان ينادوا باحترام مبدأ افريقيا للافريقيين أولا ، وفي ان يدعمرا هذا المبدأ بعد ذلك • ان الولايات المتحدة لا تخشى اليوم ان تعلن رسميا انها تدافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها • ان الرحلة الأخيرة التي قام بها السيد منين وليامز ليس مثالا على شعور الأمريكيين بأن العالم الثالث يجب ان لا يضحى به • وهنا نفهم لماذا لا يعد عنف المستعمر عنفا لا أمل فيه الا اذا قورن مقارنة مجردة بالآلة العسكرية التي يملكها المضطهدون • أما اذا وضعنا هذا العنف في موضعه من الحركية الدولية أدركنا أنه يهدد المضطهد تهديدا رهيبا • ان استمرار الثورات والاضطرابات يحدث خللا في الحياة الاقتصادية للمستعمَرة ولكنه لا يجعل البلاد المستعمِرة في خطر • والأمر الأهم في نظر الاستعمار هو ان تتسرب الدعاية الاشتراكية الى صفوف الجماهير ، هي ان تسري هذه الدعاية الاشتراكية الى الجماهير • وهذا أمر له خطورته في فترة الحرب الباردة من هذا الصراع فما بالك حين تصبح الحرب حارة : ما عسى أن تصير اليه هذه المستعمرة التي تعج بالمحاربين « السفاكين » حين تصبح الحرب حارة ؟

فالرأسمالية تدرك عندئذ أن استراتيجيتها العسكرية ستخسر من نمو الحروب الوطنية كل شيء • لذلك تضطر الرأسمالية ، في اطار التعايش السلمي ، الى أن تسلم بتحرر جميع المستعمرات ، وبحياد جميع المستعمرات عند الاقتضاء • فانما المهم عندها قبل كل شيء هو أن تتحاشى ما يهدد سلامة استراتيجيتها ، هو أن تتحاشى انفتاح الجماهير لعقيدة عدوة ، هو أن تتحاشى أن يكرهها عشرات الملايين من الناس كرها جذريا • والشعوب المستعمَرة تدرك ادراكا كاملا هذه الضرورات التي تسيطر على الحياة السياسية الدولية فحتى الذين تلعلع أصواتهم في استنكار العنف يتخذون قراراتهم ويقومسون بأعمالهم على أساس هذا العنف الذي يسود الكرة الأرضية كلها • أن التعايش السلمي بين الكتلتين يغذي العنف في المستعمرات ، ويحرض عليه في أيامنا هذه • ربما رأينا هذا العنف ينتقل غدا الى ميدان آخر بعد تحرر المستعمرات تحررا كاملا • لعله يطرح غدا مشكلة الأقليات • ألسنا نرى بعض الأقليات منذ الآن لا تتردد عن المناداة باستعمال أساليب العنف لحل مشكلاتها ؟ ليس من قبيل الصدفة أن نرى المتطرفين من الزنوج في الولايات المتحدة يشكلون فرق ميليشيا ويتسلحون • وليس من قبيل الصدفة أن نرى في العالم الذي يسمي نفسه حرا ، قيام لجان للدفاع عن الأقليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي ، وأن نرى الجنرال دي جول يذرف بعض الدموع في احدى

خطبه ، حزنا على المسلمين الذين تضطهدهم الدكتاتورية الشيوعيـــة • ان الرأسمالية والاستعمار مقتنعان بأن النضال ضد التفرقة العنصرية ، وحركات التحرر الوطني ليست الا اضطرابات يوعز بها من بعيد ، ليست الا اضطرابات يحرض عليها « من الخارج » ، لذلك يقرران أن يستعملا هذا التكتيك المجدي: « راديو أوروبا الحرة » ، لجنة تأييد الأقليات المغلوبة ، فيقومان بمحاربـــة الاستعمار ، كما كان القادة الفرنسيون في الجزائر يقومون بتلك الحـــرب التخريبية مع الـ $S A S$ والدوائر السيكولوجية • انهم « يستخدمون الشعب ضد الشعب » • ونحن نعلم ما الذي يؤدي اليه هذا •

ان هذا الجو من العنف والتهديد والتلويح بالصواريخ لا يخيـــف المستعمَرين ولا يحيِّرهم • لقد رأينا أن تاريخهم الأخير كله يهيئهم « لفهم » هذا الظرف • ان بين العنف الاستعماري والعنف السلمي الذي يعيش في جوه العالم المعاصر نوعا من التقابل والتجانس • وقد تلاءم المستعمرون مع هذا الجو • انهم من هذه الناحية ، أبناء عصرهم • قد يستغرب الناس في بعض الأحيان أن المستعمَر بدلا من أن يشتري فستانا لزوجته ، يشتري جهـــاز راديو ترانزستور • ولكن يجب أن لا يستغرب هذا • ان المستعمَرين مقتنعون بأن مصيرهم يتقرر الآن • انهم يعيشون في جو نهاية العالم ، ويرون أنه ما ينبغي أن يفوتهم شيء • وهم لذلك يفهمون كل الفهم فوما وفومي ، ولومومبا وتشومبي ، وآهيجو وموميبه ، وكيناتا ، وأولئك الذين يقذفون من حين الى حين ليحلوا محلهم • انهم يفهمون هؤلاء الأشخاص كل الفهم ، لأنهم يعرون القوى الكامنة وراءهم • ان المستعمَر ، ان الانسان المتخلف ، هو اليوم انسان يستحق أن يوصف بأنه حيوان سياسي بأكمل معاني هذه الكلمة •

صحيح أن الاستقلال قد رد الى المستعمَرين شعورهم بذاتهـــم وعزة كرامتهم ولكن الوقت لم يتسع لهم بعد من أجل انشاء مجتمع ، ومن أجل بناء وتأكيد قيم ، ان البؤرة المشعة التي فيها ينمو المواطن والانسان ويغتنيان في ميادين ما تنفك تتسع غير موجودة بعد • واذ ان هؤلاء الناس يعيشون في نوع من عدم التحديد ، تراهم يقتنعون في سهولة بأن كل شيء سيتقرر في مكان آخر ، بالنسبة اليهم وبالنسبة الى سائر العالم في آن واحد • أما القادة فانهم ازاء هذا الوضع يترددون وينتخبون الحياد •

هناك أمور كثيرة يجب أن نقولها عن الحياة • ان بعض الناس يشبهون هذا الحياد بنوع من النفعية الموبوءة التي تريد أن تأخذ من اليمين واليسار • ولكن الحقيقة هي ان هذا الحياد الذي هو من ثمرات الحرب الباردة ، اذا كان

يتيح للبلدان المتخلفة أن تتلقى معونة اقتصادية من الطرفين ، فانه لا يتيح لكل من هذين الطرفين أن يساعد المناطق المتخلفة المساعدة التي ينبغي أن تقدم لها • ان هذه المبالغ الطائلة « الفلكية » التي تخصص للبحوث الحربية ، مع هؤلاء المهندسين الذين يقلبون الى اختصاصيين في الحرب النووية ، وفي وسعها ، خلال خمسة عشر عاما ، أن ترفع مستوى المعيشة في البلاد المتخلفة بنسبة ٦٠ ٪ • وواضح اذن أن مصلحة البلاد المتخلفة ليست لا في اطالة هذه الحرب الباردة ولا في تفاقم حدتها ، لذلك تتحلل من اتخاذ موقف اذا هي استطاعت الى ذلك سبيلا • ولكن هل تستطيع حقا ، لنتذكر مثلا أن فرنسا تجرب قنابلها الذرية في أفريقيا • وباستثناء الاقتراحات والاجتماعات والقطيعات الدبلوماسية الصاخبة ، لا نستطيع أن نقول ان الشعوب الأفريقية كان لها ، في هذا القطاع الخاص ، تأثير كبير على موقف فرنسا •

ان الحياد يولد لدى المواطن في العالم الثالث اتجاها نفسيا يعبر عن نفسه في الحياة الجارية بعناد وكبرياء يشبهان التحدي شبها كبيرا • ان هذا الرفض القوي للتسوية ، وهذا الاصرار الصلب على عدم الارتباط يشبهان سلوك أولئك المراهقين المزهوين المحرومين المستعدين دائما لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل كلمة • وهذا كله يحير المراقبين الغربيين ويرتج عليهم • ذلك أن هناك تناقضا فاضحا بين ما يدعيه هؤلاء الناس وما يوجد وراءهم • ان هذا البلد الذي يعيش بلا تراموای ، و لاجيوش ، ولا مال ، لا يملك ما يبرر هذه الفخفخة التي يظهر بها ، فليس سلوكه هذا الا ادعاء فارغا وتظاهرا كاذبا • ان هذا العالم الثالث يشعر المرء بأنه يبتهج في المأساة ، وأنه في حاجة الى نصيبه الأسبوعي من النوبات • ان زعماء هذه البلاد الخاوية الذين يتكلمون بصوت عال يثيرون الحنق في النفس • ان المرء ليود أن يسكتهم • ولكنهم يغازلون ، وتقدم لهم الأزهار ، ويدعون ، بل قل بصراحة انهم يُتنازع عليهم • ان هذا كله لهو من الحياد • انهم ، وهم أميون في أكثريتهم الساحقة ، «٩٨٪»، قد كتبت من أجلهم مجلدات ضخمة • وهم يسافرون كثيرا ، ان قادة البلاد المتخلفة ، وطلاب البلاد المتخلفة ، هم من أحسن زبائن شركات الطيران • ان المسؤولين الافريقيين والآسيويين يستطيعون في شهر واحد أن يحضروا مؤتمرا عن التخطيط الاشتراكي في موسكو ، وعن محاسن الاقتصاد الحر في لندن أو في جامعة كولومبيا • والنقابيون الافريقيون ، من جهتهم ، يتقدمون بسرعة متزايدة • وما أن يعهد اليهم بوظائف في أجهزة التوجيه حتى يقرروا أن يكونوا اتحادات مستقلة • انهم لا يملكون خمسين عاما من العمل النقابي في

أطار بلد مصنّع ، ولكنهم يعرفون منذ الآن أن العمل النقابي الذي لا شأن له بالسياسة سخف لا معنى له • انهم لم يجابهوا الآلة البورجوازية ، ولا نموا وعيهم في صراع الطبقات ، ولكن ربما كان هذا غير ضروري • ربما •

ولكن فلنعد الى المعركة الخاصة القائمة بين المستعمر والمعمر • ها هنا كفاح مسلح صريح كما ترون • وأمثلته التاريخية : الهند الصينية ، أندونيسيا ، وأفريقيا الشمالية طبعا • ولكن الشيء الذي يجب أن لا يغيب عن البال ، هو ان هذا الكفاح المسلح كان يمكن ان ينطلق في أي مكان ، كان يمكن أن ينطلق في غينيا ، كما كان يمكن ان ينطلق في الصومال ، وما يزال من الممكن ان ينطلق في كل مكان ، في أنجولا مثلا • ووجود الكفاح المسلح يشير الى أن الشعب قد قرر أن لا يثق الا بالوسائل العنيفة • ان الشعب الذي ظلوا يقولون له أنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة ، يعزم أمره الآن على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة• والحق أن المعمّر قد دله منذ زمان طويل على الطريق التي يجب أن تكون طريقه اذا هو أراد أن يتحرر • والحجة التي يختارها المستعمَر انما دله عليها المعمّر ، فاذا بالمستعمَر هو الذي يؤكد اليوم أن الاستعمار لا يفهم الا لغة القوة • ان النظام الاستعماري يستمد مشروعيته من القوة ، وهو لم يحاول في أية لحظة من اللحظات ان يراوغ في هذا الأمر الذي يتفق وطبيعة الأشياء • ان كل تمثال من التماثيل ، كتمثال فيدرب أو ليوتي أو بوجو أو بلاندان ، ان كل تمثال من هذه التماثيل المغروسة في الأرض المستعمَرة لا يفتأ يعبر عن شيء واحد بعينه: «نحن هنا بقوة الحراب•••» واتمام هذه العبارة أمر سهل• ان كل معمّر يفكر ، اثناء فترة التمرد والعصيان ، على أساس حساب واضح دقيق • ومنطقه هذا لا يستغربه المعمّرون الآخرون، ولكن يجب أن نذكر أيضا ان هذا المنطق لا يستغربه المستعمرون ايضا • ونلاحظ أولا أن المبدأ القائل : « اما هم واما نحن » ليس في نظر المستعمّرين أمرا مفارقا مستغربا ، لأن الاستعمار ، كما رأينا ، انما هو تنظيم عالم ينقسم انقساما ثنائيا • وحين يشرع المعمّر في استعمال أساليب معفنة ، فيطلب الى كل ممثل من ممثلي الأقلية المضطهدة أن يهلك ثلاثين واحدا من السكان الأصليين أو مائة أو مائتين ، فانه يلاحظ أنه ما من أحد يستنكر ذلك ، حتى أن المشكلة كلها يلخصها عندئذ هذا السؤال : هل يمكن اتمام ذلك دفعة واحدة ، أم يجب اتمامه على مراحل «١» ؟

---

١ ـ واضح ان هذا التنظيف يهدم الشيء الذي ارادوا انقاذه • وذلك بعينه ما هو ما يشير اليه جان‌بول سارتر حين يقول : « من مجرد ترديد الافكار العرقية تكتشف ان اتحاد الجميع =

فهذا التفكير الذي يتصور ، على أساس حسابي جدا ، زوال الشعب المستعمَر لا يجعل المستعمِر يستاء استياء أخلاقيا • فلقد عرف دائما أن منازلاته مع المعمِّر ستدور في ساحة مغلقة ، وهو لذلك لا يضيع وقته في الشكوى والانتحاب ، ولا يكاد يحاول أبدا أن ينصف في الاطار الاستعماري • والحق أنه اذا كانت حجج المعمِّر لا تهز المستعمَر ، فلأن هذا المستعمَر قد طرح مشكلة تحرره طرحا مماثلا : « لننظم أنفسنا في فئات تتألف كل منها من مائتي شخص أو من خمسمائة ، ولتتولَّ كل فئة من هذه الفئات أمر معمِّر واحد » • ان كلا من الخصمين المتصارعين انما يبدأ القتال وهو على تلك الحالة النفسية المشتركة بينهما •

وهذا العنف يمثل ، في نظر المستعمَر ، العمل المطلق • ولذلك فالمناضل هو الذي يعمل • ان الأسئلة التي تطرحها المنظمة على المناضل تحمل طابع هذه النظرة الى الأمور : « أين عملت ؟ مع من عملت ؟ ماذا عملت؟» • ان الجماعة تطلب من كل فرد أن يحقق عملا لا يتراجع الى وراء • ففي الجزائر مثلا ، حيث نرى أن الرجال الذين دعوا الشعب الى الكفاح الوطني كانوا جميعا على وجه التقريب محكومين بالاعدام أو ملاحقين من قبل الشرطة ، نلاحظ أن الثقة تتناسب مع مقدار ما في كل حالة من يأس • ان المناضل الجديد يكون مضمونا اذا كان لا يستطيع أن يرتد الى النظام الاستعماري • ويظهر أن هذه الطريقة قد وجدت في كينيا لدى الماو ماو الذين كانوا يطلبون من كل عضو من أعضاء الجماعة أن يضرب الضحية ، فكان كل عضو من هؤلاء الأعضاء مسؤولا مسؤولية شخصية عن موت الضحية • ان العمل يعني العمل على اماتة المعمِّر • وهذا العنف يتيح للضالين والمطرودين من أفراد الجماعة أن يعودوا وأن يرجعوا الى أمكنتهم وأن يرتدوا الى الجماعة • ان العنف هو الطريقة المثلى • ان الانسان المستعمَر يتحرر في العنف وبالعنف • ان هذا العمل يضيء طريق العامل ، لأنه يدله على الوسائل ويدله على الهدف • ان شعر سيزار ليكتسب من هذه الطريقة في فهم العنف ، دلالة تجعله كالنبوءة • ويحسن هنا ان ننقل صفحة حاسمة من صفحات مأساته ، صفحة يتحدث فيها « الثائر » عن نفسه :

= في آن واحد ضد السكان الاصليين امر لا يمكن تحقيقه ، وانه ليس الا تراجعا دائرا ، وان هذا الاتحاد من جهة اخرى ، لا يمكن ان يتم كتجميع فعال الا من اجل ابادة المستعمرين ، وهي محاولة مستحيلة ما يفتا المعمر يحاولها ، وليست ، اذا امكن تحقيقها ، الا ازالة للاستعمار دفعة واحدة » • راجع كتاب سارتر « نقد العقل الديالكتيكي » ، ص ٣٤٦ •

الثائر

اسمي : مُنْدَ ُل، اسم عائلتي : مهان ، حالتي : ثائر ، والسن: عصر الحجر •

الأم

جنسي : الجنس الانساني ، ديانتي : الأخوة •

الثائر

جنسي الجنس المعذب • وديانتي ••• ولكن ما أنت من يهيئها بخلو يده من السلاح ••• وانما أهيئها أنا ، بثورتي بقبضتيَّ المشدودتين ورأسي الأشعث •

« بهدوء كبير » •

ما زلت أذكر يوما من أيام تشرين الثاني • كان عمره أقل من ستة أشهر، ودخل المولى الغرفة المسودة بالشحار دخول قمر أحمر وجس أعضاءه المعروقة الصغيرة ، انه مولى طيب جدا • وطاف بيديه الضخمتين على وجهه المحفر يداعبه • كانت عيناه الزرقاوان تضحكان ، وكان فمه يتحداه بأشياء مسكرة • قال وهو ينظر الي : ستكون حجرة جيدة ، وقال أيضا أشياء أخرى لطيفة ، هذا السيد ، قال ان عليه ان يتدبر الأمر ، وان عشرين عاما ليست كثيرة من أجل خلق مسيحي طيب ، عبد طيب ، تابع مخلص ، خادم طيع ، حاد النظرة ، قوي الذراع • وتصور هذا الرجل مهد ابني مهد خادم •

وزحفنا والخناجر في قبضة اليد •

الأم

ستموت ، واحسرتاه !

الثائر

قتلته •• قتلته بيدي •

نعم : قتلا خصبا متدفق الخيرات •

كان الوقت ليلا • زحفنا بين شجرات قصب السكر •

وكانت الخناجر تضحك للنجوم ، ولكننا كنا لا نبالي بالنجوم •

وكانت شجرات قصب السكر تخدد وجوهنا بجداول من دموع خضر•

الأم

لقد حلمت بابن يغمض عيني أمه •

الثائر

آثرت أن أفتح عيني على شمس أخرى •

الأم

واحسرتا عليك يا بني ، ستموت شر ميتة ٠

الثائر

أماه ، بل خير ميتة ٠

الأم

لأنك كرهت فأسرفت ٠

الثائر

بل لأنني أحببت فأسرفت ٠

الأم

ارحمني ، أغلالك تخنقني ، جروحك تدميني ٠

الثائر

العالم لا يرحمني ٠٠٠ ليس في العالم انسان بائس يُعدم ، ولا انسان شقي يُعذَّب ، الا وأقتل فيه وأذل ٠

الأم

خلصه يا رب ٠

الثائر

لن تخلصني يا قلب من ذكرياتي ٠

كان ذلك في ذات مساء من شهر تشرين الثاني ٠

وفجأة ومضت في الصمت صيحات ٠

كنا قد وثبنا ، نحن العبد ، نحن الأوغاد ، نحن البهائم الصابرة ٠

وأخذنا نركض كالمجانين ٠٠٠ ودوت طلقات الرصاص ٠٠٠ وأخذنـــا نضرب ٠ العرق والدم يرطبانا ٠ ضربنا بين الصرخات ، وازدادت أصوات الصرخات ، وعلت صيحة في جهة الشرق ، انها المنازل الفخمة تحترق ، وتدفق اللهب هنيا عذبا على خدودنا ٠

وجاء دور الهجوم على منزل المولى ٠

شددنا النوافذ ٠

حطمنا الأبواب ٠

انفتحت غرفة المولى كبيرة واسعة ٠ الضوء في غرفة المولى يسطع متلألئا ٠٠ والمولى في الغرفة ٠٠٠ انه هادىء جدا ٠ وتوقف رجالنا ٠٠٠ انه المولى ٠٠٠ ودخلت أنا قال لي بهدوء كبير : أهذا أنت ؟ فأجبته : نعم أنا ، أنا نفسي ، العبد الطيع ، العبد الأمين ، العبد العبد ، وفجأة أصبحت عيناه خنفسيتين

مروعتين في أيام المطر ·· وضربت ، فانبجس الدم : هذا هو التعميد الوحيد الذي أتذكره اليوم (١) » ·

ان عنف النظام الاستعماري ، وعنف المستعمَر ، يتوازنان ويتجاوبان في تجانس مشترك ، وسيطرة العنف هذه لا بد أن تصبح أشد هولا كلما زاد عدد المستوطنين · ان اشتداد العنف لدى الشعب المستعمَر سيكون متناسبا مع العنف الذي يمارسه النظام الاستعماري المرفوض · ان حكومات البلاد المستعمِرة هي في المرحلة الأولى من فترة الثورة ، مستعبدة للمعمرين · فهؤلاء المعمّرون يهددون المستعمَرين ويهددون في الوقت نفسه حكوماتهم · وسوف يستعملون في محاربة هذه وأولئك طرائق واحدة بعينها · ان اغتيال عمدة ايفيان لا يختلف في دوافعه عن اغتيال علي بومنجل · ان المشكلة في نظر المعمّرين ليست الاختيار بين جزائر جزائرية وجزائر فرنسية ، بل بين جزائر مستقلة وجزائر مستعمرة · وكل ما عدا ذلك كلام أو خيانة · ان منطق المعمّر منطق حانق ، ولست تستغرب المنطق المعاكس الذي يعبر عنه سلوك المستعمَر الا اذا كنت تدرك بوضوح آليات التفكير لدى المعمّر · متى اختار المستعمَر ان يواجه العنف بالعنف ، رأيت أعمال الانتقام البوليسية تستدعي على نحو آلي أعمال انتقام تقوم بها القوى الوطنية · ومع ذلك ليس هنالك تعادل في النتائج · ذلك ان القصف بالرشاشات من الطائرات أو القصف بالمدافع من الأسطول ، يفوقان ردود المستعمَر هولا ورهبة · ومن شأن تكرر الارهاب هذا أن يبدد الأوهام من رؤوس أكثر المستعمَرين ضلالا وضياعا · فانهم يلاحظون ملاحظة مباشرة أن جميع الخطب التي تلقى عن المساواة بين أفراد البشر ، ويتكدس بعضها فوق بعض ، لا تخفي هذه الحقيقة المبذولة وهي أن الرجال السبعة الذين قتلوا أو جرحوا في مضيق ساكامودي قد أثاروا استياء الضمائر المتحضرة ، على حين أن أحدا لم يعبأ بتدمير قرى جرجور وجرة ، ولا بذبح السكان الذين كانوا سبب الكمين · ارهاب ، وارهاب مقابل ، عنف وعنف مقابل ·· ذلك ما يسجله المراقبون في مرارة ، حين يصفون دائرة الحقد ، الواضحة العنيدة في الجزائر ·

ان في الكفاح المسلح شيئا يصح أن نسميه « النقطة التي لا عودة بعدها » · ونستطيع ان نقول أن الأمر الذي يحقق الوصول الى هذه النقطة انما هو أعمال القمع الضخمة التي تشمل جميع قطاعات الشعب المستعمَر ·

---

١ ـ ايميه سيزار « الاسلحة المعجزة » و « سكت الطلاب » ، ص ١٣٣ ـ ١٣٧ ، جاليمار ·

وهذه النقطة قد تم الوصول اليها في الجزائر عام ١٩٥٥ حين وقعت الأحداث التي أودت باثني عشر الف ضحية في فيليبفيل ، وكذلك عام ١٩٥٦ حين أنشأ لاكوست ميليشيا المدن والأرياف • فعندئذ أدرك جميع الناس ، وأدرك المعمَّرون أنفسهم « أن الأمر لن يرجع بعد الآن الى ما كان عليه » • على أن الشعب المستعمَر لا « يفتح » حسابا بضحاياه • انه يسجل الفراغ الضخم الذي حدث في صفوفه من حيث أنه شر لا بد منه ، لكنه ، وقد قرر أن يرد على العنف بالعنف ، يقبل جميع النتائج التي تترتب على ذلك • وكل ما يطلبه عندئذ هو أن لا يطالب « بفتح حساب » بضحايا الآخرين • ان المستعمَر يرد على العبارة القائلة بأن « جميع السكان الأصليين سواء » بعبارة تقول : « ان جميع المعمَّرين سواء » • ان المستعمَر لا يشكو أمره الى أحد حين يعذبونه ، أو حين يقتلون امرأته أو يغتصبونها • ان للحكومة التي تمارس الإضطهاد أن تعيّن في كل يوم لجان تحقيق • ولكن لجان التحقيق هذه لا وجود لها في نظر المستعمَر • وهذه سبع سنين تقريبا تنقضي في جرائم ترتكب بالجزائر ، دون أن يمثل فرنسي واحد أمام القضاء لأنه قتل جزائريا • ان المستعمَر ، سواء في الهند الصينية أو في مدغشقر ، أو سائر المستعمرات، قد أدرك دائما ان عليه ان لا ينتظر شيئا من الضفة الأخرى ، ان العمل الذي يقوم به المعمَّر هو ان يجعل حتى أحلام المستعمَر في الحرية مستحيلة • والعمل الذي يقوم به المستعمَر هو ان يتصور جميع الوسائل الممكنة لابادة المعمَّر • ان الانقسام الثنائي الذي أوجده المعمر قد ولد على مستوى التفكير انقساما ثنائيا في ذهن المستعمَر •

ان ظهور المعمَّر كان معناه لدى المستعمَر موت المجتمع الأصلي ، وفناء الثقافة القديمة ، وتجمد الحياة في الأفراد ، في آن معا • فالمستعمَر يرى الآن ان الحياة لا يمكن أن تعود الى الانبثاق الا من جثة المعمَّر حين يصبح المعمر جثة متفسخة • ذلكم هو التقابل الكامل بين تفكير المعمَّر وتفكير المستعمَر •

غير أن هذا العنف ، لأنه العمل الوحيد الذي يقوم به الشعب المستعمَر، يكتسي طابعا ايجابيا انشائيا • فان هذا الكفاح العنيف يجمع الأفراد ، اذ ان كل واحد منهم يصبح حلقة عنيفة في السلسلة الكبرى ، في الجسم الكبير العنيف الذي انبجس ردا على عنف الاستعمار ، فاذا الفئات المتخلفة يعرف بعضها بعضا ، ويلتقي بعضها ببعض ، واذا الأمة المقبلة تكون منذ الآن كتلة غير منقسمة • ان الكفاح المسلح يعبىء الشعب ، أي يقذفه في اتجاه وحيد ليس له ثان •

ان تعبئة الجماهير ، حين تتحقق بمناسبة حرب التحرير ، تبـــث في ضمير كل فرد فكرة القضية المشتركة ، والمصير الوطني والتاريخ القومي • لذلك نرى المرحلة الثانية ، أي مرحلة بناء الأمة ، يسهلها وجود هذا الاندماج الذي عجن بالدم والحقد • وهنا نفهم اصالة الألفاظ المستعملة في البـــلاد المتخلفة • لقد كان الشعب يدعى في عهد الاستعمار الى الكفاح ضد المستعمر الغاشم • حتى اذا تحقق التحرر الوطني ، أصبح يدعى الى الكفاح ضد الفقر ، ضد الأمية ، ضد التخلف الاقتصادي • فالكفاح يظل مستمرا ، ويتحقـــق الشعب من أن الحياة معركة دائمة لا تنتهي •

قلنا ان العنف الذي يعمد اليه المستعمر يوحد الشعب • والواقع ان الاستعمار هو بحكم تركيبه يفرق صفوف الشعب ويغذي النزعة الاقليمية ان الاستعمار لا يكتفي بأن يعلم أن هناك قبائل ، وانما هو يعزز وجود هذه القبائل ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويميز بعضها عن بعض • ان النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية • ولكن العنف يوحد بين الأفراد على الصعيد القومي • وهو لذلك يحمل في أرحامه بذور القضاء على الاقليمية والقبلية • ومن أجل هذا نرى الأحزاب الوطنية تقسو قسوة خاصة على الزعماء التقليديين، ان تصفية هؤلاء الزعماء تمهيد لتوحيد الشعب•

والعنف يطهر الأفراد من السموم • انه يخلص المستعمر من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فسادا ، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس • انه يرد اليه شجاعته ، ويرد اليه اعتباره في نظر نفسه • وحتى حين يكون الكفاح المسلح رمزيا ، وحتى حين ينتهي بتصفية الاستعمار تصفية سريعة ، فان الشعب يتسع وقته لأن يدرك أن هذا التحرير قد قام به جميع الأفراد وقام به كل فرد ، وأن القائد لا يمتاز بفضل خاص • ان العنف يرفع الشعب الى مستوى القائد • ومن هنا كان ذلك النوع من الهجوم على الأداة البروتوكولية التي تبادر بعض الحكومات الفتية الى استعمالها • ان الجماهير التي شاركت بالعنف في التحرير الوطني لا تسمح لأحد أن يعد نفسه « محرزا » • انها حريصة أشد الحرص على ثمرة نضالها ، وهي تحاذر أن تعهد بمستقبلهـــــا وقدرها ومصير شعبها الى اله معبود • لقد كانت بالأمس غير مسؤولة ، ولكنها تريد اليوم أن تفهم كل شيء وأن تقرر كل شيء • ان الضمير الذي أضاءه العنف بنوره ، يستعصي على كل محاولة لتهدئة الخواطر • ولذلك فان مهمة الدجالين والانتهازيين والسحرة ستكون مهمة شاقة • ان النضال الذي قذف بالجماهير الى معركة حامية يكسبها ميلا قويا الى الأمور المحسوسة الملموسة • ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها ويفتنها عن أمرها •

في العنف

أشرنا مرارا في الصفحات السابقة الى أن المسؤول السياسي في المناطق المتخلفة لا يفتأ يدعو شعبه الى القتال ، قتال ضد الاستعمار ، قتال ضد الفقر والتخلف الاقتصادي ، قتال ضد التقاليد التي تفرض العقم والشلل • ان الألفاظ التي يستعملها في نداءاته انما هي ألفاظ قائد حربي : « تعبئة الجماهير » ، « جبهة الزراعة » ، « جبهة الانتصار على الأمية »، « الانكسارات التي منينا بها » ، « الانتصارات التي حققناها » ان الأمة الفتية المستقلة تعيش وتتطور أثناء السنوات الأولى في جو من المعارك • ذلك ان القائد السياسي في البلد المتخلف يروعه طول الطريق التي يجب ان تقطعها بلاده ، فاذا هو ينادي شعبه قائلا : « لنشد على بطوننا ولنعمل » • ويستبد بالبلاد نوع من الحمى الخلاقة ، فاذا هي تندفع في جهد جبار غير مألوف • ولا يكون هدف البرنامج الخروج من المأزق فحسب بل اللحاق بركب الأمم الأخرى بالوسائل المحدودة المتوافرة • فالناس يقولون : لئن وصلت الشعوب الأوروبية إلى هذه المرحلة من النمو والتطور ، فانها قد حققت ذلك بجهودها ، فلنبرهن اذن للعالم ولأنفسنا على أننا نستطيع ان نحقق ما حققت تلك الشعوب• وعندي ان هذه الطريقة في طرح مشكلة تطور البلاد المتخلفة ليست منصفة ولا معقولة •

لقد حققت البلاد الأوربية وحدتها القوية في لحظة كانت فيها بورجوازياتها الوطنية قد ركزت في أيديها أكثر الثروات • كان التجار وأصحاب الحرف ، والكهنوت ورجال المصارف ، يحتكرون في النطاق الوطني الأموال والتجارة والعلوم • كانت البورجوازية تمثل الطبقة التي تمتاز بأكبر نشاط وتنعم بأكبر رخاء • وكان صعودها الى السلطة يتيح لها أن تندفع في

عمليات حاسمة : كالتصنيع وتطوير وسائل المواصلات ، ثم ما لبثت أن أخذت تبحث عن أسواق « فيما وراء البحار » •

وكانت شتى الدول تعيش وضعا اقتصاديا واحدا ابان تحقيق وحدتها الوطنية ، باستثناء بعض الحالات التي تختلف اختلافا طفيفا « فبريطانيا كانت متفوقة بعض التفوق » فلم تكن أية أمة من الأمم تهين الأمم الأخرى بصفات نموها ومزايا تطورها •

أما الآن ، فان الاستقلال الوطني والنشوء القومي في المناطق المتخلفة يكتسبان وجوها جديدة كل الجدة • فهذه البلاد المتخلفة لا تتمتع بتطور اقتصادي كبير ، باستثناء بعض المشاريع الباهرة • والجماهير في هذه البلاد تكافح فقرا واحدا ، وتناضل بحركات واحدة ، وترسم ببطونها الضامرة ما أسماه بعضهم جغرافية الجوع • هو عالم متخلف ، عالم بائس ، عالم ظالم للانسان • ولكنه ايضا عالم لا أطباء فيه ولا مهندسين ولا اداريين • وازاء هذا العالم ترتع الأمم الأوروبية في النعيم والرخاء والترف • والحق أن هذه البحبوحة التي تتمتع بها أوروبا فضيحة ، لأنها انما قامت على أكتاف العبيد « واغتذت من دماء العبيد » وجاءت رأسا من أرض هذا العالم المتخلف ، سطحها وجوفها • ان رخاء أوروبا وتقدمها قد جبلا من عرق وجثث الزنوج والعرب والهنود الصفر • هذا أمر قررنا ألا ننساه • حين يزعج بلدا استعماريا طموح مستعمرة من المستعمرات الى الاستقلال ، يقول للقادة الوطنيين : « اذا شئتم الاستقلال ، خذوه وعودوا الى القرون الوسطى » فان الشعب الذي نال استقلالا حديثا يوافق على هذا ، ويقابل التحدي بتحد مثله • ويعمد الاستعمار فعلا الى سحب رؤوس أمواله وفنييه ، ويضع حول الدولة الناشئة سياجا من الضغط الاقتصادي (١) • وبذلك تنقلب نعمة الاستقلال

---

١ ـ في الظرف الدولي الراهن نرى الراسمالية لا تعمد الى الحصار الاقتصادي ضد المستعمرات الآسيوية او الافريقية وحدها • فالولايات المتحدة قد دشنت باعمالها العدائية ضد كاسترو ، في نصف الكرة الغربي فصلا جديدا من تاريخ تحرر الانسان • يجب ان تاخذ افريقيا درسا من امريكا اللاتينية المؤلفة من بلاد مستقلة ممثلة في هيئة الامم المتحدة • ان هذه البلاد التي كانت مستعمرة ما تزال منذ تحررها الى يومنا هذا تقاسي الارهاب والعوز من وحشية الراسمالية الغربية • ان تحرر افريقيا ونمو الوعي لدى البشر قد اتاحا لشعوب امريكا اللاتينية ان تتخلص من تلك النغمة العتيقة ، اعني تعاقب الديكتاتوريات متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض • لقد استلم كاسترو زمام السلطة واعطاه للشعب • وشعر الامريكان بأن هذا الخروج عن طاعتهم كارثة قوية ، واخذت =

الى لعنة الاستقلال. ان القوة الاستعمارية تحكم على الشعب الناشيء بالتقهقر، بما تملك من وسائل ضخمة لانزال العقوبة فيه . ان القوة الاستعمارية تعلن جهارا نهارا : « ما دمتم تريدون الاستقلال ، فخذوه وموتوا » . والقادة الوطنيون ليس لهم عندئذ الا ان يلتفتوا نحو شعبهم ، طالبين منه أن يبذل جهدا ضخما . فمن هؤلاء الرجال الجائعين يطلب عمل جبار . ويقوم نظام أساسه الاكتفاء الذاتي ، وتحاول كل دولة بالوسائل الضئيلة التي تملكها . أن تتدارك الجوع القومي الكبير ، أن تتدارك البؤس القومي الكبير . ونشهد تعبئة شعب ينهك ويرهق منذئذ ، أمام أوروبا المتخمة المزدرية .

ان بلادا أخرى من العالم الثالث ترفض مقاساة هذا الامتحان ، وتقبل شروط الدولة التي كانت وصية عليها ، فتستفيد من وضعها الاستراتيجي الذي يجعلها موقعا ممتازا في الصراع بين الكتلتين ، فتعقد اتفاقات وتنحاز وبذلك يتحول البلد الذي كان محتلا الى بلد تابع من الناحية الاقتصادية . فالدولة التي كانت تستعمر هذا البلد ، تبقي على بعض العلاقات التجارية ذات الطابع الاستعماري ، بل تعزز هذه العلاقات في بعض الأحيان . وتقبل أن تغذي ميزانية الأمة المستقلة بحقن صغيرة . وهكذا نرى ان وصول البلاد المستعمرة الى الاستقلال يضع العالم أمام مشكلة رئيسية : أن تحرر البلاد المستعمرة يكشف القناع عن حالتها الواقعية ويجعل احتمال هذه الحالة أمرا لا يطاق . ان الصراع الأساسي الذي كان يبدو صراعا بين الاستعمار ومعاداة الاستعمار ، وحتى بين الرأسمالية والاشتراكية ، يفقد منذ الآن كثيرا من أهميته ، والمشكلة الهامة الآن ، المشكلة التي تملأ الأفق ، انما هي ضرورة

= الولايات المتحدة تنظم عصابات من المرتزقة لمحاربة الثورة ، وتختلق حكومة مؤقتة ، وتحرق محاصيل قصب السكر، وتقرر اخيرا ان تخنق الشعب الكوبي خنقا بلا رحمة . ولكن هيهات ان تستطيع ذلك . ان الشعب الكوبي سيقاسي كثيرا من الآلام ، ولكنه سينتصر . وهذا جانيو كوادروس ، رئيس البرازيل ، يعلن في خطاب ذي قيمة تاريخية ان بلاده ستدافع عن الثورة الكوبية بجميع ما تملك من وسائل . لعل الولايات المتحدة ستتراجع هي ايضا أمام ارادة الشعب . وسنبتهج يومئذ اكبر الابتهاج لان ذلك اليوم سيكون حاسما بالنسبة الى رجال العالم ونسائه قاطبة . ان الدولار الذي لا يكفله ، على وجه الاجمال ، الا العبيد المنتشرون في الارض ، في آبار البترول بالشرق الاوسط ، ومناجم البيرو او الكونغو . ومزارع شركة الفواكه المتحدة او فايرستون ، لن يسيطر بعد ذلك سيطرة جبارة على هؤلاء العبيد الذين اوجدوه وما يزالون يغذونه من لحوم اجسامهم وقد خوت رؤوسهم وخوت بطونهم.

اعادة توزيع الثروات ، وعلى الانسانية أن تلبي هذه المشكلة والا تزعزعت وتزلزلت ٠

وقد اعتقد الناس عامة أنه آن للعالم ، وللعالم الثالث خاصة ، ان يختار بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي٠ ان البلدان المتخلفة التي استفادت من التنافس الضاري القائم بين النظامين من أجل أن تكفل انتصار كفاحها في سبيل التحرر الوطني ، يجب عليها مع ذلك أن ترفض الاقامة في نطاق هـذا التنافس ٠ ان على العالم الثالث أن لا يكتفي بتحديد ذاته على أساس قيـم مسبقة ٠ ان على البلدان المتخلفة أن تلتمس قيما خاصة بها ، وأن تضـع المناهج التي تناسبها ، وان تتبع الأسلوب الذي يلائمهـا ٠ ان المشكلـة المحسوسة التي نجد أنفسنا أمامها ليست ان نختار ، مهما كلف الأمر ، بين الاشتراكية والرأسمالية كما حددهما أناس يختلفون عنا مكانا وزمانا ٠ اننا نعرف طبعا ان النظام الرأسمالي ، من حيث هو طراز حياة ، لا يمكن ان يتيح لنا تحقيق مهمتنا القومية والعالمية ، فالاستغلال الرأسمالي والاحتكارات أعداء البلدان المتخلفة ، كما أننا نعلم أن اختيار نظام اشتراكي يلتفت برمته الى مجموع الشعب ، ويقوم على مبدأ اعتبار الانسان أثمن قيمة ، سيتيح لنا أن نسير أعظم سرعة وأكثر انسجاما ، وسيحول بذلك دون قيام مجتمع مشوه تملك فيه حفنة من الناس جملة القوى الاقتصادية والسياسية على حطـام سائر الأمة ٠

ولكن لكي يستطيع هذا النظام أن يعمل عملا سليما ، ولكي نستطيع في كل لحظة أن نحترم المبادىء التي نستوحيها ، فاننا نحتاج الى شيء آخر غير تشغيل الأفراد ٠ ان بعض البلدان المتخلفة تقوم في هذا الاتجاه بجهد جبار ، فالرجال والنساء ، والشباب والشيوخ ، تدفعهم الحماسة الى القيام بأعمال شاقة حقا ، ويعلنون أنهم خدم الأمة ٠ فبذل النفس وازدراء كل شاغل غـير جماعي ، يوجدان أخلاقا قوية تشد أزر الانسان وترد الى نفسه الثقة بمصير العالم ، وتحير المراقبين المتشككين ٠ ولكننا نعتقد مع ذلك ان جهدا كهـذا الجهد لا يمكن أن يتواصل مدة طويلة على هذه السرعة المحمومة ٠ لقد ردت هذه البلاد على التحدي بتحد مثله بعد انسحاب الدولة المستعمرة انسحابا غير مشروط ، وآل حكم البلاد الى جماعة جديدة ، ولكن لا بد في الواقع من تغيير كل شيء ، ومن اعادة النظر في جميع الأمور ٠ لقد كان النظـام الاستعماري يهتم بثروات معينة ، بموارد معينة هي تلك التي تغذي صناعاته ٠ وما من دراسة جدية حتى الآن تناولت الأرض ، سطحها وجوفها ٠ لذلك ترى

الأمة الناشئة المستقلة نفسها مضطرة الى الاستمرار في الطرق الاقتصادية التي أنشأها النظام الاستعماري • صحيح أنها تستطيع الآن ان تصدر الى بلاد أخرى ، الى مناطق نقدية أخرى ، ولكن الأساس الذي يقوم عليه التصدير لم يتبدل تبدلا أساسيا •

لقد انشأ النظام الاستعماري دورات اقتصادية جامدة ، والأمة الناشئة مضطرة الى الابقاء على هذه الدورات الاقتصادية ، والا كانت تعرض نفسها لكارثة • فربما كان من الضروري اذن ان يستأنف كل شيء استئنافا جديدا ، وأن تبدل طبيعة عمليات التصدير لا الجهات التي يتم التصدير اليها فحسب ، ويجب ان تسأل الأرض من جديد عن مواردها ، ويجب ان يسأل عن ذلك باطن الأرض ، وأن تسأل عنه الأنهار ، وربما الشمس أيضا ! ومن أجل هذا لا يكفي تجنيد الانسان في العمل ، بل لا بد من رؤوس أموال ، ومن خبراء ،ومهندسين ، وميكانيكيين ، وهلم جرا •• وفي اعتقادي ـ أقول هذا بصراحة ـ ان الجهد الجبار الذي يهيب قادة الشعوب المتخلفة بشعوبهم أن يقوموا به لن يعطي الثمرات المرجوة ، فاذا لم تبدل شروط العمل فستنقضي قرون طويلة قبل ان نستطيع رد الانسانية الى هذا العالم الذي أنزلته القوى الاستعمارية الى الحيوانية •

والحقيقة هي أن علينا ان نقبل هذه الشروط ، علينا أن نرفض رفضا قاطعا الوضع الذي تريد البلاد الغربية أن تفرضه علينا • ان الاستعمار لم يشف غليله حين سحب من أراضينا أعلامه وشرطته • لقد ظل الرأسماليون قرونا يسلكون في العالم المتخلف سلوك مجرمي الحروب • لقد كان الترحيل والقتل والأعمال الشاقة والاستعباد ، كان ذلك هو الوسائل التي تستعملها الرأسمالية لزيادة مخزوناتها من الذهب والألماس ، ومضاعفة ثرواتها ، وتحقيق قوتها وسلطتها • منذ زمن ليس ببعيد أحالت النازية أوروبا كلها الى مستعمرة ، فلما انتهت الحرب رأينا مختلف الشعوب الأوروبية تطالب بتعويضات ، وتطلب أن ترد اليها ثرواتها التي سرقت منها مالا وبضاعة ، ورأينا الآثار الثقافية ، كاللوحات والتماثيل والزخارف ، تعاد الى أصحابها • لقد كانت أفواه الأوروبيين غداة عام ١٩٤٥ تردد عبارة واحدة : « يجب أن تدفع المانيا ». وهذا ادیناور يعتذر من اليهود بلسان الشعب الألماني ، عند افتتاح محاكمة ايخمان ، ويجدد لهم العهد بأن تستمر بلاده في أن تدفع لدولة اسرائيل المبالغ الضخمة التي هي تعويض عن جرائم النازيين !

وعلى هذا المنوال نقول ان الدول الاستعمارية ترتكب خطأ فادحا ،

وتقترف ظلما لا يوصف اذا هي اكتفت بأن تسحب من أرضنا قواها العسكرية وأجهزتها الادارية والاقتصادية التي كانت وظيفتها اكتشاف ثرواتنا واستخراجها وتصديرها الى عواصم البلاد المستعمِرة ٠ ان التعويض المعنوي الذي يحققه لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة ، انه لا يطعمنا من جوع ٠ ان ثروات البلاد الاستعمارية هي ثروتنا أيضا ٠ لقد أتخمت أوروبا ذهبا ومواد أولية من البلاد المستعمَرة : من أمريكا اللاتينية والصين وافريقيا ٠ فمن جميع هذه القارات التي تتيه عليها اوروبا اليوم بثرائها الضخم ، كانت تمضي منذ قرون الى اوروبا هذه ، الأحجار الكريمة والبترول ، والحرير والقطن ، والأخشاب والمنتجات المحلية ٠ ان اوروبا انما خلقها العالم الثالث ٠ والثروات التي تتخم أوروبا اليوم انما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة ، ان موانىء هولانده وليفربول ، ومخازن بوردو وليفربول ، المتخصصة في تجارة الرقيق انما اشتهرت بفضل ملايين العبيد المنقولين ٠ فاذا سمعنا رئيس دولة أوروبية يقول ، وقد وضع يده على قلبه ، ان من الواجب تقديم المعونة للشعوب المتخلفة المسكينة فان هذا لا يجعلنا نرتعش اعترافا بالجميل ، بل نقول : « هذا تعويض عادل سيقدم الينا » ٠ لذلك لا نقبل أن تكون المساعدات التي تقدم للبلاد المتخلفة برنامج « صدقات » ٠ فانما ينبغي ان تكون هذه المساعدات منبثقة عن وعيين ، وعي يعيه المستعمَرون فيفهمون ان هذا حقهم ، ووعي تعيه الدول الرأسمالية فتفهم ان عليها حقا ان تدفع ٠ فاذا أبت البلاد الرأسمالية ــ عن غباء ولا أقول عن نكران الجميل ــ اذا أبت ان تدفع ، فان منطق نظامها نفسه سيتولى خنقها ان من الأمور الواقعة ان الأمم الفتية لا تجتذب رؤوس الأموال الخاصة كثيرا ٠ هناك أسباب كثيرة تبرر وتعلل هذا التحفظ من قبل الاحتكارات ٠ ومتى عرف الرأسماليون ، وهم يعرفون ذلك أول من يعرف ، ان حكومتهم تتهيأ للجلاء عن المستعمَرة ، فانهم يسارعون الى سحب جميع رساميلهم من هذه المستعمَرة٠ ان هروب الرساميل على هذه الصورة السريعة ظاهرة من أثبت ظاهرات زوال الاستعمار ٠

ان الشركات الخاصة لا ترضى أن توظف رساميلها في البلاد المستقلة الا اذا كفلت لها شروط معينة ، وقد اتضح بالتجربة ان الشروط التي تطلبها هذه الشركات الخاصة لا يمكن قبولها اذ لا يمكن تحقيقها ٠ ان الرأسماليين وهم يلتزمون مبدأ الربح المباشر متى خرجوا الى « ما وراء البحار » ، يترددون كثيرا ازاء كل توظيف لرساميلهم طويل الأمد ٠ انهم يرفضون بل يعادون في كثير من الأحيان برامج التخطيط التي تضعها الحكومات الفتية ٠ وكل ما

يمكن ان يقبلوه ، عند الاقتضاء ، هو أن يقدموا للدول الفتية قروضا مالية . على شرط ان يحتفظ بهذا المال لشراء المنتجات المصنوعة والآلات ، أي لتشغيل مصانع البلاد المستعمِرة ٠

والواقع أن هذا الحذر الذي تبديه الأوساط المالية الغربية انما مرده الى حرصها على ألا تقوم بأية مجازفة ، لذلك نراها تشترط استقرارا سياسيا وجوا اجتماعيا هادئا ، وهما أمران لا يمكن توافرهما ، لما يعانيه الأهلون غداة الاستقلال من وضع محزن ٠ وترى تلك الأوساط المالية التي تبحث عن ضمانة لا يمكن أن توفرها لها هذه البلاد التي كانت مستعمَرة ، نراها تطالب بابقاء بعض القوات العسكرية ، أو تطالب بدخول الدولة الناشئة في معاهدات اقتصادية او أحلاف حربية ٠ وتضغط الشركات الخاصة على حكوماتها مطالبة على الأقل باقامة قواعد عسكرية مهمتها حماية مصالح هذه الشركات ، ثم تطلب الشركات من حكوماتها آخر الأمر أن تضمن الرساميل التي تقرر هذه الشركات استثمارها في هذه المنطقة أو تلك من المناطق المتخلفة ٠

ولما كان لا يقبل هذه الشروط التي تطلبها الشركات الكبرى والاحتكارات الا عدد قليل من البلدان ، فان الرساميل تحرم عندئذ من وجود أسواق ثابتة لها ، وتبقى محصورة في أوروبا ، وتتجمد ، وتتجمد خاصة لأن الرأسماليين يرفضون استثمارها في بلادهم نفسها ، لأن الأرباح هنالك ضئيلة ، ولأن رقابة الضرائب تبعث اليأس في نفوس أجرأ الرأسماليين ٠

وهذا الوضع اذا طال أدى الى الكارثة ٠ ان الرساميل لا تتحرك ، أو أن حركتها تقل كثيرا ٠ ان البنوك السويسرية ترفض ايداع الرساميل ، وأوروبا تختنق ان الرأسمالية العالمية تحتضر ، رغم المبالغ الضخمة التي تبتلعها النفقات الحربية ٠

على ان هناك خطرا آخر يهدد الرأسمالية العالمية ٠ ان شعوب العالم الثالث الذي تتركه الدول الغربية وتحكم عليه بالتقهقر الى وراء ، او بالجمود في مكانه على الأقل ، بسبب أنانيتها وخلوها من الأخلاق ، ان شعوب العالم الثالث هذه ستقرر ان تتطور على أساس الاكتفاء الذاتي الجماعي ٠ فسرعان ما ستحرم الصناعات الغربية اذن من أسواقها فيما وراء البحار ، فترقد الآلات في مستودعاتها ، ويقوم عندئذ في السوق الأوروبية صراع عنيف بين الأوساط المالية والشركات الكبرى ، ومن شأن اغلاق المصانع وتسريح العمال وانتشار البطالة أن يدفع الطبقة العاملة الأوروبية الى خوض كفاح صريح ضد النظام الرأسمالي ٠ وستدرك الاحتكارات عندئذ ان مصالحها نفسها تملي عليها أن

تساعد البلاد المتخلفة ، ان تساعد مساعدات ضخمة دون ان تفرض عليها شروطا كثيرة • وهكذا نرى أن شعوب العالم الثالث الناشئة تخطىء اذا هي استجدت البلاد الرأسمالية • اننا أقوياء بحقنا وبعدالة مواقفنا • وعلينا أن نشرح للبلاد الرأسمالية أن المشكلة الأساسية في العصر الراهن ليست هي الحرب بين النظام الاشتراكي وبينها ، فيجب انهاء هذه الحرب الباردة التي لا تؤدي الى شيء ، ويجب وقف هذه الاستعدادات لنسف العالم بالقنابل النووية ، ويجب توظيف الأموال في المناطق المتخلفة بسخاء ، ويجب تقديم المساعدات الفنية لهذه المناطق المتخلفة • ان مستقبل العالم رهن بحل هذه المشكلة •

ولتكف البلاد الرأسمالية عن محاولة جذب البلاد الاشتراكية الى الاهتمام بـ « مصير أوروبا » في وجه الجموع الملونة الساغبة • ان الانتصار الذي حققه الكومندان غاغارين ليس نجاحا « تفخر به أوروبا » ، على حد زعم الجنرال دوجول • ان رؤساء دول البلاد الرأسمالية ورجال الثقافة في هذه البلاد الرأسمالية ، قد أخذوا منذ حين يقفون من الاتحاد السوفياتي موقفا ملتبسا ، فبعد ان كتلوا جميع قواهم للقضاء على النظام الاشتراكي أصبحوا يفهمون الآن أن عليهم أن يتعاونوا معه ، لذلك أخذوا يتوددون اليه ، ويكثرون من مناورات الاغراء ، ويذكرون الشعب السوفياتي دائما بأنه « جزء من أوروبا » •

انهم اذ يصورون العالم الثالث في صورة موجة تهدد بابتلاع أوروبا كلها ، لن يستطيعوا أن يفرقوا شمل القوى التقدمية التي تريد أن تقود الانسانية الى السعادة • ان العالم الثالث لا يريد أن ينظم حملة صليبية واسعة على أوروبا • وكل ما يطلبه من هؤلاء الذين أبقوه عبدا خلال قرون ، هو أن يساعدوه على رد الاعتبار للانسان ، وعلى تحقيق النصر للانسان في كل مكان الى الأبد •

ولكن من الواضح أننا لا نبلغ من السذاجة حد الاعتقاد بأن هذا الامر سيتحقق بمعاونة الحكومات الأوروبية وحسن نيتها • ان هذا العمل العظيم الذي يبتغي اعادة ادخال الانسان الى العالم ، الانسان كله ، انما يتم بمعونة الجماهير الأوروبية التي يؤسفنا أنها كثيرا ما تحالفت في مشكلات المستعمرات مع مستعبدينا الذين هم مستعبدوها أيضا • ومن أجل تحقيق ذلك لا بد أن تقرر الجماهير الأوروبية أولا أن تستيقظ من سباتها ، وأن تنفض أدمغتها ، وان تكف عن تمثيل ذلك الدور الذي كانت تمثله الى الآن بغير شعور بالمسؤولية ، دور الحسناء النائمة في الغابة •

الانطلاق العفوي

عظمته ومواطن ضعفه

قادتنا تأملاتنا في العنف الى ادراك أن هناك في أكثر الأحوال مسافة وفرقا في السرعة بين أجهزة الحزب الوطني وبين الجماهير . ان في كل منظمة سياسية أو نقابية هوة تقليدية بين الجماهير التي تطالب باصلاح أحوالها اصلاحا مباشرا شاملا ، وبين القيادات التي لمعرفتها بما يمكن ان يخلقه الرأسماليون من عقبات ، تجعل مطالبها محدودة مقصورة . لذلك نلاحظ في كثير من الأحيان ان الجماهير تظل في حالة استياء عنيد من القيادات . ان الجماهير تشعر ، بعد كل حركة نضالية قامت بها للمطالبة بحقوقها ، أن القيادات قد خانتها ، في حين نرى القيادات تحتفل بالنصر . ان تكاثر الحركات التي تنطلق مطالبة بالحقوق ، وتكاثر الصراعات النقابية ، هما اللذان سيحققان الوعي السياسي لدى هذه الجماهير ، والمقصود بالوعي السياسي لدى النقابي هو ادراك النقابي لهذه الحقيقة ، وهي أن النزاع المحلي ليس تصفية نهائية للحساب بينه وبين أرباب العمل . ان المثقفين المستعمَرين الذين درسوا في العواصم الاستعمارية نظام الأحزاب السياسية وكيفية عملها ينشئون في بلادهم منظمات شبيهة بغية تعبئة الجماهير والضغط على الادارة الاستعمارية . ان قيام الأحزاب السياسية في البلاد المستعمَرة معاصر لنشوء نخبة من المثقفين والتجار . وهذه النخبة تخلع على التنظيم قيمة كبيرة من حيث هو تنظيم ، وكثيرا ما تتغلب عبادة التنظيم هذه على الدراسة العقلية للمجتمع المستعمَر . ان فكرة الحزب مستوردة من البلاد المستعمِرة فترى النخبة تحاول أن تطبق هذه الأداة النضالية الحديثة تطبيقا آليا على مجتمع بدائي ، غير متوازن ، مجتمع تعيش فيه أنظمة مختلفة معا ، تعيش فيه

أنظمة العبودية ، والقنانة ، والمقايضة ، والحرف ، وعمليات البورصة ٠

ان ضعف الأحزاب السياسية ليس ناشئا فقط عن أنها تستعمل استعمالا آليا هذا التنظيم الذي يقود الطبقة العاملة في مجتمع رأسمالي بلغ درجة عالية من التصنيع ٠ ان هناك على صعيد هذا النموذج من التنظيم تجديدات وتكييفات كان ينبغي أن تنشأ ٠ ان الخطيئة الكبرى ، ان الآفة الكبرى التي تعيب الأحزاب السياسية في المناطق المتخلفة هي أنها تتجه باهتمامها الأول الى العناصر الواعية من الشعب : الطبقة العاملة في المدن ، أصحاب الحرف ، الموظفين ، أي الى جزء صغير من السكان لا يتجاوز واحدا في المائة ٠

ولئن كانت هذه البروليتاريا تفهم دعاية الحزب وتقرأ كتاباته ، فانها أقل استعدادا لتلبية نداء الشعارات التي قد تدعو الى الكفاح القوي في سبيل التحرير الوطني ٠ ان البروليتاريا ، كما لوحظ ذلك مرات كثيرة ، هي من الشعب المستعمَر نواة يفيض عليها النظام الاستعماري أكثر ما يفيض من خير ٠ ان البروليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبيا ببعض الامتيازات ٠ اذا كانت البروليتاريا في البلاد الرأسمالية لا تخشى أن تخسر شيئا ، لأنها الطبقة التي يمكن أن تربح كل شيء ، فان البروليتاريا في البلاد المستعمَرة يمكن أن تخسر ، فهي من الشعب المستعمَر ذلك الجزء الضروري الذي لا يستغنى عنه لحسن سير الآلة الاستعمارية : سائقو حافلات الترام وسيارات الأجرة ، عمال المناجم ، عمال الموانيء ، التراجمة الممرضون ، الخ ٠ وهذه العناصر هي التي تضمها الأحزاب الوطنية أكثر ما تضم ، وهي ، بما لها من امتيازات في ظل النظام الاستعماري ، يمكن أن تعد الجزء البورجوازي من الشعب المستعمَر ٠

ان المنتسبين الى الأحزاب السياسية الوطنية هم أفراد من سكان المدن قبل كل شيء : أصحاب حرف ، عمال ، مثقفون ، تجار ٠ حتى ان طراز تفكيرهم يحمل في كثير من النواحي علامة البيئة الراقية بعض الرقي ، الميسورة بعض اليسر ، التي تجري حياتهم فيها ٠ وفي هذه البيئة تسود « الروح العصرية » ٠ ان هذه الأوساط نفسها هي التي تحارب التقاليد البالية ، وتريد ان تصلح العادات ، وبذلك تدخل في صراع صريح مع قوام الأمة ٠

ان الأكثرية الساحقة في الأحزاب الوطنية تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير ، وارتياب شديد ٠ انها تحس أن هذه الجماهير عاطلة عقيمة ٠

وما يلبث أعضاء الأحزاب الوطنية « من عمال المدن والمثقفين » أن يصبح رأيهم في سكان الأرياف كرأي المستوطنين • ولكن اذا حاولنا ان نفهم أسباب هذا الحذر الذي تشعر به الأحزاب الوطنية ازاء الجماهير الريفية ، كان علينا ان نتذكر هذه الحقيقة ، وهي أن الاستعمار قد عزز دائما سيطرته أو رسخها بواسطة العمل على تجميد الأرياف وتحجيرها • ان الجماهير الريفية التي يحيط بها الدراويش والسحرة والزعماء التقليديون ، ما تزال تعيش في المرحلة الاقطاعية ، وهذه البنية الاجتماعية التي تذكر بالقرون الوسطى انما يغذيها الموظفون الاداريون والعسكريون الاستعماريون •

وتدخل البورجوازية الوطنية الناشئة ، وهي بورجوازية تجارية بوجه خاص ، تدخل في تنافس مع هؤلاء السادة الاقطاعيين من نواح شتى : الدراويش الدجالون والسحرة المشعوذون يسدون الطريق أمام المرضى الذين يستطيعون أن يستشيروا الطبيب ، ومجالس القبائل تفصل بين الناس فتصرفهم عن اللجوء الى المحامين ، والزعماء التقليديون يستعملون سلطتهم السياسية والادارية للقيام بتجارة ، أو لاقامة خط من خطوط النقليات . والقادة المحليون يعارضون باسم الدين والتقاليد دخول تجارات جديدة ومنتجات جديدة •

ان هذه الطبقة الناشئة من التجار المستعمَرين في حاجة الى زوال هذه الأنواع من الخطر وهذه الأنواع من الحواجز ، حتى تنمو وتزدهر • وهكذا فان هؤلاء الزبائن من السكان الأصليين الذين يمثلون في نظر الاقطاعيين صيدا يجب عليهم أن يحتفظوا به ، الذين يمنعون بعض المنع من شراء منتجات جديدة ، يصبحون سوقا متنازعا عليها •

والقيادات الاقطاعية تقيم حاجزا بين الوطنيين الشبان المطبوعين بالطابع الغربي وبين الجماهير ، فكلما حاولت النخبة ان تبذل جهدا من الجهود في صفوف الجماهير الريفية تصدى لها زعماء القبائل ، وزعماء الحلقات الدينية ، وتصدت لها السلطات التقليدية ، فاخذت تصب عليها مزيدا من الوعيد والتهديد وتكيل لها اتهامات الكفر والزندقة • أن هذه السلطات التقليدية التي تدعمها قوة الاحتلال ، يسوؤها أن ترى ازدياد المحاولات التي تقوم بها النخبة من أجل التغلغل في الأرياف • انها تعلم أن الأفكار التي يمكن ان يحملها الى الريف هؤلاء الناس القادمون من المدن تنكر حتى مبدأ دوام الاقطاعيات • لذلك تشعر أن عدوها الأول ليس هو السلطة المحتلة التي يقوم بينها وبينها نوع من التفاهم ، وانما عدوها هؤلاء العصريون الذين

يريدون أن يبدلوا نظام المجتمع وان يخطفوا خبزهم من أفواههم ٠

والعناصر المطبوعة بالطابع الغربي تشعر نحو جماهير الفلاحين بعواطف تذكرنا بالعواطف التي نراها في صفوف طبقة العمال في البلاد المصنّعة ٠ لقد أوضح تاريخ الثورات البورجوازية وتاريخ الثورات البروليتارية ان جماهير الفلاحين كثيراً ما تكون حاجزا يعطل اندفاع الثورة ٠ ان الجماهير الريفية في البلاد المصنعة هي على وجه العموم أقل عناصر المجتمع وعيا ، وأقلها تنظيما وأكثرها فوضى ٠ انها تتصف بمجموعة من الصفات هي الصفات التي يمتاز بها السلوك الرجعي ، من ميل الى الفردية ، وبعد عن الانضباط ، وحب للربح ، واستعداد للغضب الشديد تارة ولليأس العميق تارة أخرى ٠

وقد رأينا الأحزاب الوطنية تنقل أساليبها وعقائدها عن الأحزاب الغربية ، لذلك نراها في أكثر الأحوال تتجه بدعايتها نحو هذه الجماهير الريفية ٠ ولكن هذه الأحزاب لو حللت المجتمع المستعمَر تحليلا عقليا سليما ، لأدركت أن الفلاحين المستعمَرين يعيشون في بيئة تقليدية ظلت بنياناتها سليمة ، على حين ان هذه البيئة التقليدية في البلاد المصنعة هي التي صدعها تقدم التصنيع ٠ ان البروليتاريا الناشئة في المستعمرات هي الطبقة التي نرى لدى أفرادها سلوكا فرديا ٠ ان الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ، والذين يطرح عليهم تزايد السكان مشكلة لا سبيل الى حلها يهجرون الريف ويفدون الى المدن فيتكدسون في أكواخ الصفيح ، ويحاولون أن يتسربوا الى الموانىء والمدن التي أوجدتها السيطرة الاستعمارية ، فيكونون هنالك البروليتاريا الدنيا ٠ ان الجماهير الريفية التي تبقى في القرى تواصل حياتها في اطار ساكن ، حتى اذا زاد عدد الأفواه التي تحتاج الى طعام لم تجد لها سبيلا الا ان تهاجر الى المدن ٠ ولكن الفلاح الذي يبقى في مكانه يحمي تقاليده في عناد واصرار ، وهو في المجتمع المستعمَر يمثل العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائما على التواصل بين أفراد الجماعة ، وعلى ارتباط بعضها ببعض ارتباطا قويا ٠ صحيح أن هذا الركود وهذا الانكماش قد يولدان من حين الى حين حركات قائمة على العصبية الدينية ، وقد يولد حروبا قبلية ٠ ولكن الجماهير الريفية تظل في عفويتها انضباطية تتصف بالغيرية ٠ ان الفرد ذائب هنا في الجماعة ٠

والفلاحون يسيئون الظن بابن المدينة ويحذرون منه ٠ انه يرتدي ملابس كملابس الأوروبيين ، ويقطن احيانا في الحي الأوروبي ٠ لذلك ينظر اليه الفلاحون نظرتهم الى انسان خرج على قومه ، وهجر كل ما هو تراث قومي ٠

أن الفلاحين ينظرون الى سكان المدن نظرتهم الى « خونة » ، نظرتهم الى أناس « باعوا أنفسهم » فهم متفاهمون مع المحتل ، يحاولون في اطار النظام الاستعماري ان يحققوا النجاح • لذلك نسمع الفلاحين في كثير من الأحيان يصفون أبناء المدن بأنهم أناس لا أخلاق لهم • ولسنا هنا بصدد ذلك التعارض المعروف بين الريف والمدينة • وانما نحن هنا بصدد تعارض بين المستعمَر المحروم من منافع الاستعمار ، وبين المستعمَر الذي يرتب أموره بحيث ينال من الاستغلال الاستعماري نصيبا •

والاستعماريون ، من جهة أخرى ، يستغلون هذا التعارض في صراعهم ضد الأحزاب الوطنية • فهم يجندون سكان الجبال والقرى ضد سكان المدن ، ويثيرون مؤخرة البلاد ضد مقدمتها ، ويحرضون القبائل ، فما ينبغي أن يدهشنا أن يتوج كالونجي نفسه ملكا على كاساي ، ولا أن نرى « مجلس زعماء غانا » يقف منذ سنوات في وجه نكروما ويخلق له المصاعب •

ان الأحزاب السياسية لا تتوصل الى ترسيخ قواعد منظماتها في الأرياف • فهي بدلا من ان تستعمل البنيانات الموجودة من أجل اعطائها مضمونا قوميا أو تقدميا ، تحاول في نطاق النظام الاستعماري ، ان تقلب الواقع التقليدي رأسا على عقب • انها تتخيل أن في وسعها ان تطلق الأمة من عقالها وان تبعثها على المسير ، في حين ان حلقات النظام الاستعماري ما تزال مطبقة عليها جاثمة فوقها • ان هذه الأحزاب لا تمضي الى لقاء الجماهير • انها لا تضع معارفها النظرية في خدمة الشعب ، وانما تحاول ان تنظم الجماهير وفقا لمخطط لم ينبثق من التجربة • وهكذا تراها ترسل من العاصمة الى القرى ، على حين غرة ، مسئولين مجهولين أو شبانا صغارا تندبهم السلطة الحزبية المركزية للذهاب الى القرية أو الدوار ، كأنما هي تريد أن تقود القرية أو الدوار كما تقاد خلية من خلايا الحزب في مصنع من المصانع ، وهي بذلك تتجاهل الزعماء التقليديين ، وربما أهانتهم في بعض الأحيان • ان تاريخ الأمة المقبلة يطغى طغيانا كبيرا على التواريخ المحلية الصغيرة التي هي الواقع الوطني الوحيد الراهن ، في حين أن من الواجب على هذه الأحزاب ان توفق توفيقا منسجما بين تاريخ القرية وتاريخ المنازعات التقليدية ، بين القبائل والعشائر وبين النضال الحاسم الذي تدعو الشعب الى خوض غماره • ان هذه الأحزاب كثيرا ما تسخر على رؤوس الأشهاد من الشيوخ الذين تحيط بهم في المجتمعات التقليدية هالة من الاحترام ، والذين يملكون على وجه العموم سلطة معنوية لا سبيل الى المماراة فيها • ولا تنسى دوائر السلطة

المحتلة ان تستغل هذه الأحقاد ، فهي تتسقط أخبار أيســـر القرارات التي تتخذها هذه السلطة الغِرّة ، فاذا هي تنزل ضربتها البوليسية في احكام مستمد من دقة المعلومات التي وصلت اليها ويعتقل المسئولون الذين وفدوا الى المدينة على حين غرة ، ويعتقل كبار أعضاء المجلس الجديد ٠

ويأتي هذا الاخفاق مصداقا « للتحليل النظري » الذي قامت بـــه الأحزاب الوطنية ، فالنازلة التي نزلت بالحزب حين حاول تنظيم الجماهير الريفية تعزز حذره من الجماهير الريفية وتقوي تهجمه على هذا الجزء من الشعب ، وبعد انتصار كفاح التحرير الوطني تتجدد هذه الأخطاء وتغذي الميول الى اللامركزية والى الانفصالية ٠ وتحل محل العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد الاستعمار عصبية اقليمية تسود في عهد التحرر الوطني، منادية بشعارها الدستوري : الفدرالية ٠

ولكن يتفق أحيانا ان نرى الجماهير الريفية ، رغم قلة تأثير الأحزاب الوطنية ، فيها ، تتدخل في الكفاح تدخلا حاسما ، فاما ان تزيد الوعي القومي نضجا ، واما أن تتناوب العمل مع الأحزاب الوطنية ، واما ــ وهذا أندر ــ ان تحل نفسها محل هذه الأحزاب العقيمة ٠

ان دعاية الأحزاب الوطنية يتردد صداها دائما بين صفوف الجمـــاهير القروية ٠ ان ذكرى مرحلة مقاومة الاستعمار تظل حية قوية في القرى ٠ ان النساء ما تزال تدندن في آذان أطفالها الأغاني التي رافقت المقاتلين الذين قاوموا الغزو ٠ ان أطفال القرى الذين هم في الثانية عشرة او الثـالثة عشرة من أعمارهم ، يعرفون أسماء الشيوخ الذين شهدوا آخر ثورة ٠ والأحلام التي تداعب أخيلة الصغار في القرى ليست تلك الأحلام المترفة التي تملأ أخيلة أطفال المدن ، أعني أحلام النجاح في الامتحانات ، وانما هي أحلام تشبّه بهذا المقاتل أو ذاك من المقاتلين الذين ما تزال ميتتهم البطولية تستدر من المآقي دموعا غزارا ٠

وفي اللحظة التي تحاول فيها الأحزاب السياسية أن تنظم الطبقة العاملة الناشئة في المدن ، تشهد الأرياف في بعض الأحيان انفجارات تبدو في الظاهر غريبة غير مفهومة ٠ فكذلك شبت الثورة المشهورة في مدغشقر عام ١٠٤٧ ٠ ان المصالح الاستعمارية قد فسرت هذه الثورة تفسيرا بسيطا فقالت : عصيان ٠ ولكننا نعلم اليوم ان الأمور كانت أعقد من ذلك كثيرا ، كما هي الحال دائما ٠ ففي أثناء الحرب العالمية الثانية وسعت الشركات الاستعمارية الكبرى سلطانها واستولت على جميع الاراضي التي كانت لا تزال حرة ٠ وفي

تلك الفترة نفسها شاع أن في النية اسكان لاجئين من اليهود ، وأناس من القبائل ومن سكان جزر الأنتيل في مدغشقر • وشاع ايضا ان السكان البيض في جنوبي افريقيا سيغزون الجزيرة بالتواطؤ مع المستوطنين الأوروبيين • لذلك رأينا مرشحي القائمة الوطنية في الانتخابات التي جرت بعد الحرب يفوزون فوزا ساحقا • فاذا بأعمال القمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية تنصب فورا على خلايا « الحزب الديموقراطي لبعث مدغشقر » واستعمل الاستعمار ، في حملة القمع هذه ، الأساليب التقليدية المعروفة لتحقيق أهدافه • اعتقالات كثيرة ، دعاية عنصرية للتفريق بين القبائل ، خلق حزب جديد من عناصر غير منظمة أخذتها من بين صفوف البروليتاريا الدنيا • وكان الغرض من خلق هذا الحزب الذي أسمي « حزب المحرومين » أن تكون استفزازاته حجة مشروعة تتذرع بها السلطة الاستعمارية للمحافظة على النظام • ولكن هذه العملية التافهة ، أعني تصفية حزب أعد لهذا الغرض سلفا ، اتسعت اتساعا هائلا • فأدركت الجماهير الريفية التي كانت على أهبة الدفاع منذ ثلاث سنين او أربع ، أدركت فجأة أنها مهددة بالموت ، فقررت ان تعارض القوى الاستعمارية معارضة وحشية ، فتسلحت بالرماح ، وبالحجارة في أكثر الأحيان ، وخاضت غمار تلك الثورة الجارفة التي عمت البلاد في سبيل التحرير الوطني •• والقارىء يعرف تتمة القصة •

وليست في هذه الثورات المسلحة الا احدى الوسائل التي تستعملها الجماهير الريفية للتدخل في الكفاح القومي • وفي بعض الأحيان يحمل الفلاحون العبء عن المدينة ، حين تتناول حملة القمع البوليسي الحزب الوطني • ان الأنباء تصل الى الأرياف مضخَّمة ، مضخمة تضخيما كبيرا : الزعماء اعتقلوا ، الرشاشات تقذف الناس برصاصها ، دم الزنوج يغرق المدينة ، المستوطنون يستحمون بالدم العربي • وتتفجر مراجل الحقد المتجمع المكظوم • فيهجم الفلاحون على مخفر الشرطة المجاور فيحتلونه ، ويمزقون رجال الدرك اربا اربا ، ويقتلون معلم المدرسة ، ولا ينجو الطبيب الا لأنه كان غائبا ، الخ ، الخ •• وتهرع السلطة الاستعمارية فترسل الى المنطقة فرقا من جيوشها ، وتأخذ الطائرات تقذف قنابلها • وهكذا ترفع راية الثورة ، وتنبعث التقاليد الحربية القديمة ، وتزغرد النساء ، وينظم الرجال صفوفهم ويحتلون مواقعهم في الجبال ، وتبدأ الحرب • هكذا يخلق الفلاحون من تلقاء أنفسهم جوا عاما من اضطراب حبل الأمن ، فيخاف الاستعمار ، فاما أن يستمر في الحرب واما أن يفاوض •

فكيف تستجيب الأحزاب الوطنية لهذا الدخول المفاجيء الذى تدخله جماهير الفلاحين في الكفاح الوطني ؟ لقد رأينا ان أكثر الأحزاب الوطنية لم تضع في برامجها ضرورة العمل المسلح. وهي الآن لا تعارض استمرار الثورة ولكنها تكتفي بالركون الى عفوية القرويين . انها بوجه الاجمال ، تتصرف ازاء هذا العنصر الجديد تصرفها ازاء معجزة نزلت من السماء ، مبتهلة الى القدر أن تستمر هذه المعجزة . ان الأحزاب الوطنية تستثمر هذه المعجزة ، ولكنها لا تحاول أن تنظم الثورة . انها لا ترسل الى الأرياف رجـــالا من مسؤوليها لبث الوعي السياسي لدى الجماهير ولتنويرها ولرفـــع مستوى المعركة ، وانما هي تأمل أن يستمر كفاح هذه الجماهير من تلقاء ذاتـــه ، وترجّي أن لا يضعف أو يخور . فليس ثمة عدوى تسري من حركة المدينة الى حركة الريف ، وانما تتطور كل حركة من الحركتين وفقا لمنطقها الخاص .

ان الأحزاب الوطنية لا تحاول أن تدخل الى الجماهير الريفية ، التي هي الآن مهيأة كل التهيؤ ، شعارات معينة . انها لا تعرض عليها أي هدف . كل ما في الأمر أنها تأمل ان تستمر هذه الحركة الى غير نهاية ، وأن لا يحقق قصف القنابل غرضه فيقضي على الثورة . وهكذا نرى أن الأحزاب الوطنية لا تستثمر ، حتى في هذه المناسبة ، الفرصة المتاحة لها ، وهي ان تضم الجماهير الريفية الى صفوفها ، وأن تبث فيها الوعي السياسي ، وأن ترفع مستوى كفاحها . انها تظل على ذلك الموقف الاجرامي ، موقف الحذر من الأرياف .

ان المسؤولين السياسيين يقبعون في المدن ، ويفهمون الاستعمار أن لا صلة لهم بالثائرين ، أو يسافرون الى الخارج . ومن النادر أن ينضموا الى الشعب في الجبال . ففي كينيا مثلا لم يعلن أي وطني معروف ، أثناء ثورة الماو ماو ، انتماءه الى هذه الحركة ، ولا حاول ان يدافع عن هؤلاء الرجال .

ما من مناقشة خصبة بين مختلف طبقات الأمة ، ولا من لقاء . لذلك نرى عدم التفاهم هذا يبقى ويتفاقم حين يتحقق الاستقلال ، بعد قمع قاست ويلاته الجماهير الريفية ، وتفاهم تم بين الاستعمار والأحزاب الوطنية . ويقف القرويون موقف التردد والاحتراس من التجديدات الاجتماعية ولو كانت تقدمية في نظر من يرى الأمور رؤية موضوعية ، وما ذلك الا لأن الذين أصبحوا الآن حكاما لم يشرحوا لمجموع الشعب أثناء فترة الاستعمار ، لا أهداف الحزب ، ولا الاتجاه القومي ، ولا المشكلات العالمية ، الخ ...

فالحذر الذي كان القرويون والاقطاعيون يشعرون به ازاء الاحـــزاب الوطنية في عهد الاستعمار ، يستمر في عهد الاستقلال عداوة مماثلة : وتأخذ

الدوائر الاستعمارية السرية التي لم تلق سلاحها في عهد الاستقلال ، تأخذ تغذي الشعور بالاستياء ، وتتوصل الى خلق مصاعب كثيرة في وجه الحكومات الفتية • وتدفع الحكومة عندئذ ثمن كسلها وتقاعسها في ابان عهد التحرير ، وثمن احتقارها للقرويين • يمكن أن يصبح للأمة رأس عاقل حكيم ، بل قد يصبح لها رأس تقدمي ، ولكن الجسم الكبير يبقى ضعيفا هزيلا غير متعاون•

ويغري الحكومة في مثل هذه الحالة أن تحطم هذا الجسم بتركيز الحكم واخضاع الشعب بالقوة • وهذا واحد من الاسباب التي تحمل كثيرا من الناس على أن يقولوا انه لا بد من شيء من الديكتاتورية في البلاد المتخلفة • ان المسؤولين يشكون في الجماهير الريفية ، حتى لقد يأخذ هذا الشك اشكالا خطيرة • من ذلك مثلا أن بعض الحكومات تظل زمنا طويلا بعد الاستقلال تعد مؤخرة البلاد منطقة لم يستتب فيها السلم ، فما يزورها رئيس الدولة ولا وزراء الحكومة الا بمناسبة قيام الجيش الوطني ببعض المناورات العسكرية ، حتى لتكاد مؤخرة البلاد أن تكون شيئا مجهولا • والغريب في الأمر أن تصرف الحكومة الوطنية ازاء الجماهير الريفية يشبه بعض صفات تصرف السلطة الاستعمارية • فترى المسؤولين يقولون : « لا يعرف المرء كيف يمكن أن يكون رد الفعل لدى هذه الجماهير » ، بل ان الحكام الجدد لا يتورعون عن القول : « لا بد من استعمال السوط اذا نحن أردنا اخراج هذه البلاد من القرون الوسطى » ولكنَّ تهاون الأحزاب السياسية بشأن الجماهير الريفية في عهد الاحتلال ، هو الذي يؤدي ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، الى تصديع الوحدة القومية ، وتعطيل انطلاق الأمة •

ويعمد الاستعمار أحيانا الى تفريق الاندفاعة القومية والى تشتيتها • فلا يثير المشايخ وزعماء القبائل على « ثوريي » المدن، وانما يشكل من الجماعات الدينية والقبائل أحزابا • وهكذا تنشأ ، في وجه حزب المدينة الذي أخذ يجسد الارادة القومية ، ويهدد النظام الاستعماري ، تجمعات وتكتلات وأحزاب تقوم على أساس قبلي أو محلي • فاذا قبيلة برمتها تصبح حزبا سياسيا يمده الاستعماريون بالنصح والتوجيه • حتى اذا حان وقت المفاوضات حول الدائرة المستديرة ، وجدت الحزب الموحد غارقا في حساب القوى والتجمعات ، ورأيت الاحزاب القبلية تعارض وجود سلطة مركزية ، وتناهض الوحدة وتندد بدكتاتورية الحزب الموحَّد •

وهذا الأسلوب نفسه تستعمله المعارضة الوطنية فيما بعد • ان سلطة الاحتلال قد اختارت من الحزبين الوطنيين أو من الأحزاب الوطنية الثلاثة التي

قامت بحركة التحرير • وأشكال هذا الاختيار كلاسيكية معروفة : اذا فاز أحد الأحزاب بالاجماع الوطني وفرض نفسه على المحتل كمفاوض وحيد قام المحتل بمناورات كثيرة لتأخير موعد المفاوضات الى أقصى حد ، مستعملا هذا التأخير في تفتيت مطالب هذا الحزب ، أو في الفوز من قيادته بابعاد بعض العناصر « المتطرفة » • أما اذا لم يستطع أي حزب من الأحـزاب أن يفرض نفسه حقا ، اكتفى المحتل بتفضيل الحزب الذي يبدو له أكثر « تعقلا واعتدالا » من غيره • وعندئذ نرى الأحزاب الوطنية التي لم تشترك في المفاوضات تأخذ باستنكار الاتفاق الذي تم بين المحتل والحزب الآخر • ويشعر الحزب الذي تسلم السلطة بخطر هذه المواقف الديماغوجية التي يقفها خصمه ، فيحاول أن يشتت الحزب المعارض ، ويتهمه بأنه غير شرعي • فلا يسع الحزب المعارض الا أن يعتصم بأطراف المدن وبالأرياف محاولا أن يؤلب الجماهير الريفية على « أهل الساحل الذين باعوا أنفسهم » ، على « سكان العاصمة الفاسديـــن المتفسخين » • ولا يدع هذا الحزب ذريعة من الذرائع الا ويستعملها ، فهو يهاجم خصمه بحجج دينية ، وهو يتهمه بالخروج على التقاليد فيما يجنح اليه من اتجاهات تجديدية ، مستغلا جهل الجماهير الريفية وما تتصف به الأرياف من انفعالية وعفوية • وتسري الشائعات هامسة هنا وهناك• الجبل قد ثار ، الأرياف مستاءة حانقة ، أطلق رجال الدرك رصاص بنادقهم على الفلاحـــين ، هبّت الحكومة ترسل الامدادات والنجدات ، النظام كله أوشك أن ينهار • وهكذا فان أحزاب المعارضة ، التي ليس لها برنامج واضح ، وليس لها هدف الا ان تحل محل الفئة الحاكمة ، تضع مصيرها بين أيذي الجماهير الريفية العفوية الجاهلية •

وقد يحدث عكس هذا ، فلا تعتمد المعارضة على الجماهير الريفيـــة ، وانما تعتمد على العناصر التقدمية ، على النقابات في الأمة الفتية • وعندئذ تستعين الحكومة بالجماهير لمقاومة مطالب العمال ، قائلة انها مناورات أناس مغامرين خارجين على التقاليد •

ان الحقائق التي أتيح لنا أن نلاحظها على صعيد الأحزاب السياسيـــة تلاحَظ هي نفسها على صعيد النقابات • ففي أول الأمر تكون التشكيـــلات النقابية في الأراضي المستعمَرة فروعا محلية لنقابات البــلاد المستعمِرة ، وتكون شعارات هذه النقابات أصداء لشعارات نقابات البلد المستعمِر •

حتى اذا توضحت المرحلة الحاسمة من الكفاح الوطني ، قرر عدد مـــن النقابيين الوطنيين انشاء نقابات وطنية ، وانسحب الوطنيون جماعات ووحدانا

من المنظمة القديمة المستوردة من الخارج ، وأصبحت المنظمة النقابية الجديدة عنصرا جديدا من عناصر الضغط على الاستعمار لدى سكان المدن • لقد سبق أن قلنا ان البروليتاريا في المستعمَرات هي بروليتاريا ناشئة ، وهي من الشعب فئة محظوظة أكثر من سائر فئاته • وتنظم النقابات التي تنشأ أثناء الكفاح صفوفها في المدن ، وترسم لنفسها برنامجا سياسيا ، وطنيا في الدرجة الأولى • وما النقابة الوطنية التي تنشأ في ابان المرحلة الحاسمة من الكفاح في سبيل الاستقلال ، ما هي في واقع الأمر الا تجنيد للعناصر الوطنية الواعية النشيطة •

ولكن الجماهير الريفية التي تزدريها الأحزاب السياسية ، تظل مبعدة• ولئن أمكن ان تتكون نقابة للعمال الزراعيين ، فان هذه المنظمة لا تزيد على أن تلبي تلك الحاجة الشكلية ، أعني « تكوين جبهة متحدة ضد الاستعمار »• أما المسؤولون النقابيون الذين تسلحوا بخبرتهم في اطار التشكيلات النقابية التابعة للبلاد المستعمِرة ، فانهم لا يعرفون كيف ينظمون الجماهير الريفية • لقد فقدوا كل اتصال بطبقة الفلاحين ، فهم لا يعنون في الدرجة الأولى الا بتنظيم عمال مصانع الفولاذ ، وعمال الموانيء ، وموظفي شركات الغاز والكهرباء وما الى ذلك •

ولهذه التشكيلات النقابية قوة ضاربة مدهشة في عهد الاستعمار • ان هذه النقابات تستطيع في المدن ان تجمّد الاقتصاد الاستعماري في كل لحظة ، أو ان تعرقله على أقل تقدير • ولما كان الأوروبيون يقطنون في المدن غالبا ، فان تأثير هذه المظاهرات في نفوسهم تأثير كبير ، فتراهم يصيحون : لا غاز، لا كهرباء ، القمامة لم تجمع ، البضائع تفسد على أرصفة الميناء •••

ان المدن ، وهي أشبه بجزر أوروبية ، تشعر في عهد الاستعمار شعورا قويا بأثر العمل النقابي • والعاصمة التي هي قلعة الاستعمار لا تستطيع أن تتحمل هذه الضربات • أما « الداخل » (الجماهير الريفية) فانها تظل غريبة عن هذا الكفاح •

هكذا نرى أنه ليس ثمة تناسب بين عمل النقابات وعمل سائر طوائف الأمة من الناحية القومية • حتى اذا تحقق الاستقلال رأينا العمال المنخرطين في النقابات يشعرون بأنهم لا يقومون بعمل ذي بال، وانهم يدورون على فراغ• فالهدف المحدود الذي رسموه لأنفسهم قد ظهر ، منذ تحقق ، انه ليس له كبير شأن اذا قيس باتساع مهمة البناء القومي • ويكتشف القادة النقابيون ، ازاء البورجوازية الوطنية التي تكون علاقاتها بالسلطة وثيقة جدا في كثير من

الأحيان ، أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يحصروا نشاطهم في نطاق العمل العمالي • ولأنهم معزولون بطبيعة الحال عن الجماهير الريفية، ولا يستطيعون أن ينشروا شعاراتهم فيما وراء ضواحي المدن ، تراهم يتبنون مواقف ما تنفك نصبح سياسية أكثر فأكثر • والواقع أن النقابات مرشحة السلطة ، فها هي ذي تحاول بجميع الوسائل أن تحرج البورجوازية : تحتج على بقاء القواعد الأجنبية في البلاد ، تستنكر الاتفاقات التجارية ، تهاجم السياسة الخارجية التي تتبعها الحكومة الوطنية • ان العمال يدورون على فراغ بعد أن فازوا « بالاستقلال » • وتدرك النقابات غداة الاستقلال أنها لو أعلنت مطاليبها لكان ذلك فضيحة في نظر سائر فئات الأمة • ذلك أن العمال هم في الواقع فئة تنعم بخيرات العهد أكثر من سائر الفئات • انهم هم الفئة التي تعيش في بحبوحة أكثر من سائر الفئات ، فلو قاموا بحركة تهدف الى الحصول على تحسين ظروف المعيشة للشغيلة وعمال الموانىء لأسخطوا الشعب، بل ولأثاروا عداوة الجماهير المحرومة في الارياف • وهكذا نرى النقابات ، وقد حرمت من العمل في سبيل الحصول على مزيد من الحقوق للعمال ، وقد أصبحت تتحرك وهي مكانها لا تبرحه •

وليس هذا الوضع الحرج الا دليلا على أن ثمة حاجة موضوعية الى برنامج اجتماعي يتناول أخيرا جميع فئات الشعب • ان النقابات تكتشف فجأة أن مؤخرة البلاد يجب أن تنور وأن تنظم هي أيضا • ولكنها ، لأنها لم تهتم يوما باقامة جسور بينها وبين جماهير الفلاحين ، لأن هذه الجماهير هي بعينها القوى الوحيدة ، الثورية من تلقاء ذاتها ، ما تلبث أن تبرهن على عجزها ، وما تلبث ان تكتشف أن برنامجها قد فات أوانه •

والقادة النقابيون ، الغارقون في بحر الاضطراب السياسي العمالي ، لا بد أن ينتهوا من ذلك أخيرا الى الاعداد لانقلاب • ولكن « الداخل » يكون مستبعدا من هذا الاعداد للانقلاب أيضا ، فالقضية محصورة بين البورجوازية الوطنية والعمالية النقابية • وتعمد البورجوازية الى الأساليب القديمة التي كان يستعملها الاستعمار ، فتعرض قواتها العسكرية والبوليسية، بينما تمضي النقابات تعقد الاجتماعات وتعبىء عشرات الألوف من أعضائها • ولا يزيد الفلاحون ، ازاء هذه البورجوازية الوطنية وهؤلاء العمال الذين يأكلون بينما الفلاحون جياع ، لا يزيد الفلاحون ازاء هؤلاء وأولئك على أن ينظروا وهم يرفعون أكتافهم غير مكترثين • انهم يرفعون أكتافهم لادراكهم ان هؤلاء وأولئك جميعا لا ينظرون اليهم الا نظراتهم الى تكأة يتكأ عليها ، فالنقابات والعمال

والحكومة انما يستغلون جماهير الفلاحين استغلالا ميكافيليا لا أخلاقيـــا ، استغلالهم لقوة عاطلة عمياء يحسن الانتفاع بها في المناورات •

ويحدث في بعض الظروف عكس ذلك ، فترى جماهير الفلاحين تتدخل تدخلا حاسما في نضال التحرير الوطني ، وفي تعيين المستقبل الذي تختاره الأمة في آن واحد • ولهذه الظاهرة أهمية أساسية في البلدان المتخلفة ، لذلك نريد ان ندرسها الآن بشيء من التفصيل •

لقد سبق أن رأينا ان في الأحزاب الوطنية ارادتين متجاورتين : أولاهما ارادة تحطيم الاستعمار ، والثانية ارادة التفاهم معه بالحسنى • ويحدث في داخل هذه الأحزاب أحيانا أمران • الأول هو عناصر مثقفة جهدت في تحليل الواقع الاستعماري والوضع الاستعماري تحليلا دائبا ، تشرع في انتقاد الفراغ العقائدي التي تلاحظه في الحزب ، وتشرع في انتقاد ما تراه في هذا الحزب من فقر في أسلوب العمل وخطة النضال ، وتأخذ تطرح على القادة في غير كلال ولا ملال أسئلة أساسية كهذه الأسئلة : « ما هي القومية ؟ ما الـــذي تعنونه من هذه الكلمة ؟ ما مضمون هذه اللفظة ؟ لماذا تريدون الاستقلال ؟ بل أولا ما هي الوسيلة التي تتصورون أنكم واصلون بها الى الاستقلال ؟ » ويأخذون يطالبونهم في الوقت نفسه بأن يعالجوا قضية خطة العمل معالجـة دقيقة صارمة ، ويقترحون على هؤلاء القادة أن يضيفوا الى الوسائل الانتخابية « جميع الوسائل الأخرى » • ولا يزيد القادة في أول هذه المجادلات على أن يتملصوا من هذا الغليان بقولهم : انه حماسة شباب مراهقين ، فان العناصر الثورية التي تدافع عن هذه المواقع ما تلبث ان تعزل ، فالقـــادة المتدثرون بتجربتهم ما يلبثوا ان ينبذوا ، في غير رحمة « هؤلاء المغامرين ، هـــؤلاء الفوضويين » •

ان آلة الحزب تبدو مستعصية على كل تجديد • وتجد الأقلية الثورية نفسها وحيدة أمام تلك القيادة المذعورة التي يقلقها أن تتصور انجرافها في اعصار لا تعرف وجهه ولا قوته ولا جهته •

وأما الأمر الآخر الذي يحدث فيتصل بالقادة الموجهين أو القادة الثانويين الذين تعرضوا بسبب نشاطهم ، للتعذيب البوليسي الاستعماري • ومن المهم أن نذكر هنا أن هؤلاء الرجال قد وصلوا الى مراكز القيادة في الحزب بفضل نشاطهم الصامد العنيد ، وبفضل ما يتصفون به من روح التضحية ، ومـــا يمتازون به من روح وطنية صادقة مثلى • وهؤلاء الرجال الذين صعدوا من القاعدة انما هم في أكثر الأحيان عمال صغار أو شغيلة موسميون أو شبـــان

عاطلون عن العمل • والانضمام الى حزب وطني لا يعني عندهم أن يعملوا في السياسة ، وانما يعني أنهم يختارون الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الارتقاء من الحالة الحيوانية الى الحالة الانسانية • ان هؤلاء الرجال الذين يزعجهم تمسك الحزب بالشرعية ، يظهرون في الأعمال التي يعهد بها اليهم مبادهة وشجاعة وحسا نضاليا ، فسرعان ما تكشفهم قوى القمع الاستعمارية ، فتعتقلهم ، وتحكم عليهم ، وتعذبهم ، ثم يخرجون الى السجن ، ولكنهم يكونون في اثناء اعتقالهم قد محصوا أفكارهم وشحذوا عزائمهم • انهم حين يضربون عن الطعام ، وحين يتضامنون في أعمال عنيفة تقوم بها زنزانة مشتركة في السجن ، يتصورون اطلاق سراحهم فرصة تتاح لهم من أجل الشروع في الكفاح المسلح • وفي ذلك الوقت نفسه ، خارج السجن ، يكون الاستعمار الذي أصبح يهاجَم في كل مكان ، أخذ يقدم عروضا للمعتدلين من الوطنيين •

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه الاستخفاف بالشرعية ، في صفوف الحزب ويشعر أصحاب الاتجاه الثاني أنهم أصبحوا أناسا غير مرغوب فيهم • فأصحاب التمسك بالشرعية يتحاشونهم ويتهربون منهم • ولئن كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة ، فهم يشعرون أنهم أصبحوا أجانب عن الحزب • وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال بأولئك المثقفين الذين أتيح لهم منذ بضع سنوات أن يعجبوا بمواقفهم ، فيخرج من هذا الاتصال حزب سري يوازي الحزب الشرعي • ولكن أعمال القمع ضد هذه العناصر التي أصبح لا يمكن استردادها ، تزداد بازدياد تقارب الحزب الشرعي من الاستعمار أملا في تبديله «من داخل» فاذا بفريق اللاشرعية يجد عندئذ نفسه في منعطف تاريخي •

فهؤلاء الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون ، أول الأمر ، في الضواحي المحيطة بالمدن • ولكن شبكة الشرطة تكتشف أمرهم • فيضطرون أخيرا الى ترك المدن نهائيا ، والى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسي ، ماضين الى الأرياف ، الى الجبال ، الى جماهير الفلاحين • والفلاحون ، في مرحلة أولى يحتضنونهم فيخفونهم عن أعين رجال الشرطة • والمناضل الوطني الذي يقرر ان يهجر لعبة التخفي التي كان يلعبها مع الشرطة ، وأن يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين ، لا يخسر أبدا • ان الفلاحين يغطونه كمعطف ، ويحنون عليه ويحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال • وهكذا نرى هؤلاء الرجال الذين نفوا من المدن نفيا ، وانقطعوا عن بيئة المدن التي أنضجوا فيها أفكارهم عن الأمة وعن النضال السياسي ، قد أصبحوا الآن ثوارا حقا • انهم ، وهم

مضطرون الى التنقل بغير انقطاع تحاشيا لرجال الشرطة ، والى السير ليلا حتى لا يلفتوا النظر ، يطوفون الآن في البلاد ويعرفونها • وداعا زمان المقاهي ، وداعا زمان المناقشات العقيمة عن الانتخابات القادمة ! ان آذانهم تسمع الآن صوت الشعب ، صوته الحق ، وان أبصارهم ترى الآن بؤس الشعب ، بؤسه الكبير الذي لا نهاية له • ويدركون أنهم أضاعوا وقتا ثمينا في تعليقات على النظام الاستعماري لا طائل فيها ولا نفع منها • ويفهمون ان التبديل لن يكون اصلاحا ولن يكون تحسينا • ويفهمون ، وهم يشعرون بدوار لن يبرحهم ، ان التحرك السياسي في المدن سيظل عاجزا عن تغيير النظام الاستعماري ، عن قلب النظام الاستعماري •

ويألف هؤلاء الرجال مخاطبة الفلاحين • ويكتشفون ان الجماهير الريفية لم تنقطع يوما عن الاعتقاد بأن تحررها لا يتم الا بالعنف ، وبأن القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب ، هي قضية كفاح وطني ، هي قضية ثورة مسلحة • الأمر بسيط واضح • يكتشف هؤلاء الرجال شعبا متجانسا منسجما ، ان كان يعيش حياة ساكنة جامدة ، فانه ما يزال محافظا على قيمه الاخلاقية وعلى ارتباطه بالأمة ، يكتشفون شعبا كريما سخيا ، مستعدا للتضحية ، راغبا في العطاء ، نافذ الصبر ، قوي الشمم والاباء • وواضح ان اللقاء بين أولئك المناضلين الذين تطاردهم الشرطة وبين هذه الجماهير المتوفزة ، يمكن أن يؤدي الى مزيج متفجر ذي قوة لا عهد بمثلها من قبل • فأولئك الرجال الوافدون من المدن يدخلون مدرسة الشعب ، وفي الوقت نفسه يفتحون للشعب مدرسة يتعلم فيها الشعب السياسة والحرب • ويأخذ الشعب يشحذ أسلحته • فالدروس في المدرسة لا تطول ، وما تلبث الجماهير التي تسترد اتصالها بعضلاتها ، أن تحمل القادة على اقتحام الامور • وينطلق الكفاح المسلح •

وتحار الأحزاب السياسية تجاه الثورة • ذلك أن عقيدتها قد أكدت دائما أنه لا جدوى من اللجوء الى القوة ، بل ان وجودها نفسه انما هو نفي دائم لقيام أية ثورة مسلحة • حتى أن بعض الأحزاب السياسية تشارك المستعمرين تفاؤلهم سرا ، وتهنيء نفسها بأنها في خارج هذا الجنون التي سيقمع باسالة الدماء • ولكن النار التي اشتعلت ما تلبث أن تسري الى مجموع البلاد سريان وباء سريع • وتعجز المصفحات والطائرات عن تحقيق النجاح الذي كان يقدر لها • ويرى الاستعمار استفحال الداء ، فيأخذ يفكر • حتى أن أصواتا في صفوف المضطهدين تأخذ تلفت النظر الى خطورة الوضع •

أما الشعب في أكواخه وفي أحلامه فانه يتجاوب مع الحركة الوطنيـــة الجديدة • ويأخذ ينشد للمقاتلين المظفرين ، بصوت خافت ، في قرارة قلبه ، أناشيد لا تنتهي • لقد اجتاحت الثورة الأمة ، والأحزاب هي التي أصبحت الآن معزولة •

غير أن قادة الثورة ما يلبثون أن يشعروا في ذات يوم أن على الثورة أن تمتد الى المدن أيضا • انهم ما يلبثون ان يعوا هذه الحقيقة • وليس وعيهم هذا أمرا عرضيا ، بل هو ثمرة محتومة للمنطق الذي يخضع له تطور الثورة المسلحة في سبيل التحرير الوطني • ذلك ان الاستعمار ، رغم أن الأرياف هي الينابيع التي لا تنضب لتدفق الطاقات الشعبية ، ورغم أن جماعـــات الثائرين قد أخذت تنشر الاضطراب في الأرياف ، يظل واثقا بقوته ، مطمئنا الى أنه غير معرض للخطر • لذلك تقرر قيادة الثورة أن تنقل الحرب الى مواقع العدو ، الى المدن الهادئة الباذخـــة •

ونقل الثورة الى المدن يطرح على القيادة مشكلات عسيرة • لقد رأينا أن أكثر القادة قد ولدوا أو شبوا وترعرعوا في المدن ، ثم فروا من بيئتهم تلك تحاشيا لمطاردات الشرطة الاستعمارية ، ولأن القيادات المتعقلة المعتدلـة في الأحزاب السياسية لم تفهمهم بوجه عام ، فانسحابهم الى الأرياف كان هربا من أعمال القمع من جهة ، وكان من جهة أخرى يأسا من التشكيلات السياسية القديمة • والأشخاص الذين يمكنهم أن يتصلوا بهم في المدن انما هم الوطنيون المعروفون في الأحزاب السياسية • ولكننا رأينا أن هؤلاء الثوار قد انشقوا عن أولئك القادة الخائفين الذين لا يزيدون على تضييع جهودهم في الكلام على مساوىء الاستعمار • ثم ان المحاولات الأولى ، التي يقوم بها رجال الثورة مع أصدقائهم القـدامى هـؤلاء ، وخاصة مـــع الذين يعدونهـم اكثرهم تطرفا تأتي مصدقـــة لمخاوفهم ، وتجعلهم ، يكرهون حتى رؤيـــة هؤلاء الأصدقاء القدامى • والواقع ان الثورة التي انطلقت في الأرياف ستدخـــل المدن عن طريق ذلك الجزء الذي لم يستطع حتى الآن ان يجد في عهد الاستعمار عظمة يقضمها • ان الرجال الذين أجبرهم تزايد السكان ، وأجبرهم تجريدهم من أملاكهم من قبل الاستعمار على ترك أرض آبائهم وأجدادهم ، يأخـــذون يدورون حول المدن في غير كلال ولا ملال ، آملين أن يسمح لهم في يـــوم من الأيام بدخولها • فبين هذه الجماهير ، بين هذا الشعب الذي يسكن أكواخ القصدير ، بين هؤلاء الفعلة الكادحين ، انما تجد الثورة حربتها في المدن •• ان هؤلاء الفعلة الكادحين ، ان هذه الجموع الساغبة التي فصلت عن قبائلها وعشائرها ، هي بين القوى الثورية في الشعب المستعمَر من أكثرها عفوية وجذرية •

في السنوات التي أعقبت ثورة الماو ماو في كينيا ، رأينا السلطات الاستعمارية البريطانية تضاعف اجراءات الارهاب ضد هذه الفئات الدنيا من الكادحين • ورأينا قوى الشرطة وقوى البعثات التبشيرية تنسق جهودها في عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ من أجل وقف تدفق الشباب الكيني من الارياف والغابات، وانغماسه في السرقة والفساد والادمان وغير ذلك ، بعد أن يعجز عن ايجاد عمل • ان جنوح الشباب في البلاد المستعمَرة انما هو ثمرة مباشرة لوجود هذه الطبقة البائسة من صغار الكادحين • ومثل ذلك جرى في الكونغو ، اد اتخذت اجراءات قوية ، منذ عام ١٩٥٧ ، من أجل ان يعاد الى الأرياف أولئك « الشبان الأوغاد » الذين يعكرون صفو النظام والأمن ، حتى لقد أنشئت معسكرات خاصة لايوائهم وعهد بهم الى البعثات التبشيرية ، تحت حماية الجيش البلجيكي طبعا •

ان نشوء هذه الطبقة البائسة من الكادحين ظاهرة تخضع لمنطق خاص ، فلا الجهود الطافحة التي تبذلها البعثات التبشيرية ، ولا القرارات الكثيرة التي تصدرها الحكومة المركزية بقادرة على وقف نمو هذه الظاهرة • فهذه الطبقة من الناس أشبه بجموع الفئران التي تستمر على قضم جذور الشجرة، رغم ركلها بالأرجل ورميها بالحجارة •

ان أكواخ القصدير التي تتجمع حول المدن تعبر عن عزم المستعمَر على أن يغزو قلعة العدو ، مهما يكن ثمن ذلك ، ومهما تكن المسارب الخفية التي يجب أن يعمد اليها لتحقيق هذا الهدف • ان نشوء هذه الطبقة الشقية التي تجثم على صدر المدينة ، وتعكر صفو « الأمن » فيها ، انما يعني أن السيطرة الاستعمارية قد أخذ السوس ينخر فيها ، وان داء قاتلا قد أخذ ينتشر في جسمها • وها هم أولاء القوادون والأوباش والعاطلون والمجرمون الذي يطاردهم الحق العام ، ينخرطون في كفاح التحرير مقاتلين اقوياء الشكيمة • ان هؤلاء العاطلين المنبوذين يجدون بالعمل النضالي الحاسم طريقهم الى الاندماج في مجموع الأمة • ان هؤلاء الناس لا يرد اعتبارهم اليهم في نظر المجتمع الاستغماري وفي نظر الأخلاق التي ينادي بها المستعمِر • ذلك أنهم ، على خلاف ذلك ، انما يسلكون الى دخول المجتمع طريق القنبلة والمسدس • ولكن بذلك يستردون اعتبارهم في نظر أنفسهم وفي نظر التاريخ • حتى المومسات ، والخادمات بألفي فرنك، واليائسات ، وجميع الرجال والنساء الذين يتأرجحون بين الجنون والانتحار ، يستردون اذ ذاك توازنهم ، ويأخذون يسيرون، ويشاركون مشاركة حاسمة في موكب الأمة التي استيقظت•

ان الأحزاب السياسية لا تفهم هذه الظاهرة التي تعجّل تفكيكها · ان ظهور الثورة في المدن على حين غرة يبدل ملامح الكفاح · لقد كانت الجيوش الاستعمارية متجهة كلها الى الأرياف ، وها هي ذي الآن تقفل راجعة الى المدن على جناح السرعة لتكفل الأمن للأرواح والأرزاق · وها هي ذي تبعثر قواها يمنة ويسرة في القيام بأعمال القمع · ان الخطر ماثل في كل مكان · أرض الوطن كلها ثائرة ، الشعب في المستعمرة قد انتفض بأسره · وتشهد جماعات الفلاحين المسلحين انفراج انحصار عنها · ان انطلاق الثورة في المدن يتيح لها أن تتنفس ·

وحين يرى قادة الثورة ان الشعب الذي عصفت به نار الحماسة قد أخذ يكيل للآلة الاستعمارية ضربات حاسمة ، فان شكهم في جدوى السياسة التقليدية يزداد ويقوى ويصبح كل انتصار جديد دليلا على أنهم كانوا على حق في عداوتهم لتلك السياسة العقيمة التي يطلقون عليها الآن أسماء جديدة : سياسة الثرثرة الفارغة واللفظية السقيمة والتهويش العقيم · ويشعرون نحو « السياسة » والديماغوجية بكره شديد · لذلك نرى تقديس العفوية ينتصر في أول الأمر ·

وتأتي الانتفاضات الكثيرة التي تولد في الأرياف ، فتؤكد حيثما تتفجر ان الأمة حاضرة في كل مكان ، وان حضورها حضور قومي كثيف · لقد أصبح كل مستعمَر مسلح جزءا من هذه الأمة التي انبعثت فيها الحياة · ان هذه الانتفاضات تهدد النظام الاستعماري ، وتحمله على تعبئة قواه وبعثرتها ، وتوشك في كل لحظة ان تخنق هذه القوى وأن تقطع أنفاسها · وعقيدتها عقيدة بسيطة : اجعلوا الأمة موجودة · وليس ثمة برنامج ولا خطب ولا قرارات ولا اتجاهات · المشكلة واضحة : يجب أن يرحل الأجانب · علينا أن نؤلف جبهة واحدة مشتركة ضد المستعمِر المضطهد ، ويجب أن تعزز هذه الجبهة بالكفاح المسلح ·

وما ظل القلق يهز الاستعمار ، فان القضية الوطنية تتقدم الى أمام ، وتصبح قضية كل فرد من أفراد الأمة · ان حركة التحرير أصبحت واضحة المعالم ، وهي تتناول مجموع البلاد منذ الآن · والعفوية هي المسيطرة في هذه المرحلة والمبادهة مبادهة محلية · ففي كل منطقة من المناطق تنشأ حكومة مصغّرة تستلم زمام الأمر · ونرى سلطة وطنية في كل مكان ، في الوديان والغابات ، في الأدغال والقرى · ان كل فرد يثبت بنضاله وجود الأمة ، ويعمل على أن يكفل لها النصر في المنطقة التي هو فيها · وهكذا نشهد قيام

استراتيجية أساسها العمل المباشر الشامل الجذري . ان هدف كل جماعة من هذه الجماعات المسلحة التي تتشكل تشكلا عفويا انما هو تحرير المنطقة التي هي فيها . ذلك هو هدفها، وذلكهو برنامجها.. ما دامتالأمة موجودة في كل مكان ، فهي موجودة هنا أيضا . وتتحد الاسلوب الخطة والاستراتيجية الحربية ، بل يستحيل فن السياسة الى فن حرب . فالمناضل السياسي انما هو المقاتل الحربي . والحرب والسياسة شيء واحد .

ان هذا الشعب المحروم الذي اعتاد أن يعيش محصورا في نطاق الصراعات والخصومات ، يعمل الآن في جو رائع من تطهر الأمة في المنطقة التي هو فيها . انه يشعر بنشوة جماعية ، فاذا الاسر المتعادية تقرر أن تمحو كل شيء ، ان تنسى كل شيء . والأحقاد الراسخة المدفونة تخرج الآن الى النور لتستأصل بمزيد من الاطمئنان الى أنها تستأصل . ان تحمل مسؤولية الأمة بأسرها يقوي الوعي . فوحدة الأمة انما هي وحدة الجماعة قبل كل شيء ، انها ازالة الخصومات القديمة وتصفية التردد . وفي الوقت نفسه يشمل التطهر ذلك العدد القليل من السكان الذين لطخوا شرف البلاد بأعمالهم وبتواطؤهم مع المحتل الغاصب . اما الخونة والأشخاص الذين باعوا أنفسهم فانهم يحاكمون وينالون العقاب الذي يستحقونه . ان الشعب الذي يسير هذا السير المتواصل ويخوض غمار المعركة ، يسن الآن القوانين ، ويكتشف نفسه ، ويريد أن يحكم نفسه بنفسه ، أن يكون سيد مصيره . ان الشعب يستيقظ كله من السبات الاستعماري ، ويعيش في جو رائع من الحماسة ، الجموع تتدفق في القرى تدفقا متصلا ، السخاء والكرم لا يقفان عند حد ، الشهامة والأريحية تنطلقان انطلاقا قويا ، الناس يريدون صادقين أن يموتوا في سبيل « القضية » التي يكافحون من أجلها . وهذا كله يشبه أن يكون دينا جديدا . ما من أحد من أهل البلاد يستطيع الآن أن لا يكترث بهذا الايقاع الجديد الذي يجرف الأمة جرفا . وتوفد الوفود سريعة الى القبائل المجاورة . هذه أول طريقة لربط الثورة بعضها ببعض . وتحمل هذه الوفود الى المناطق التي لم تتحرك بعد ، حركة وسرعة . وتتصالح القبائل التي كان يحمل بعضها لبعض عداء مستحكما معروفا ، تتصالح وهي تشعر بالفرح وتذوب الدموع ، متعهدا بعضها لبعض بالمساعدة والدعم . ان الناس، في الكفاح المسلح ، يتساندون تساند الاخوة ، كتفا بكتف وذراعا في ذراع ، ويكتشفون العدو الحقيقي . وتتسع دائرة الامة ، وتشرع قبائل جديدة في اقامة كمائن ، داخلة بذلك في المعركة . وتعد كل قرية نفسها معسكرا من

معسكرات القتال . وينعكس التضامن بين القبائل وبين القرى ، ضربات يكيلونها للعدو في كثرة ما تنفك تزداد . ويشير قيام كل فرقة جديدة من فرق المقاتلين ، وانطلاق كل معركة جديدة من المعارك التي تشب هنا وهناك، الى أن كل واحد يضرب العدو ، الى أن كل واحد يجابه العدو .

ويظهر هذا التضامن بمزيد من الوضوح في المرحلة الثانية ، المرحلة التي يبدأ فيها العدو بشن هجومه . ان القوى الاستعمارية تجمع صفوفها بعد حدوث الانفجار ، وتعيد تنظيم نفسها ، وتبدأ باستعمال طرائق في القتال تناسب طبيعة الثورة التي قامت. وهذا الهجوم الذي تشنه القوى الاستعمارية يبدل جو الانطلاق الفرح الذي ساد المرحلة الاولى . ان العدو يشن هجومه مركزا نقاط معينة تتجمع فيها قوى كبيرة . وسرعان ما تصبح قوى العدو أكبر من القوة الوطنية الضاربة في نقطة معينة . ومما يفاقم الأمر أن القوة الوطنية المحلية تميل في أول الأمر الى خوض المعركة وجها لوجه ، فالتفاؤل الذي سيطر على المشاعر في المرحلة الأولى يجعل القوة الوطنية متهورة ، ويفقدها شيئا من الشعور بالواقع . ان الجماعة التي رسخ في اعتقادها أن منطقتها هي الأمة بأسرها ، ترفض أن ترخي الحبل، ولا تطيق أن تقاتل متراجعة . وبذلك تسقط ضحايا كثيرة ، ويبدأ الشك بالتسرب الى النفوس. ان الفرقة المحلية تجابه الهجوم المحلي مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح كله . انها تتصرف تصرف من يحسب أن مصير البلاد كله يتقرر هنا .

ولكن من الواضح أن هذا الاندفاع الشديد الذي يريد أن يصفي حسابه مع النظام الاستعماري فورا ، لا بد أن يتنكر لنفسه من حيث هو مذهب يعتنق مبدأ « الفورية » . وتجيء الواقعية اليومية العملية فتحل محل اندفاعات الأمس . ان دروس الوقائع ، وضحايا التهور ، تحمل على اعادة النظر في الأمر ، وتفسير الأحداث تفسيرا جديدا شاملا . ان غريزة البقاء وحدها تحمل على اتخاذ موقف اكثر مرونة وحركة . فهذا التبدل في أسلوب القتال قد تميزت به الأشهر الأولى من حرب تحرير الشعب الأنجولي . انكم تتذكرون أن الفلاحين الأنجوليين قد هجموا في اليوم الخامس عشر من شهر آذار « مارس » ١٩٦١ على المواقع البرتغالية جماعات مؤلفة من ألفي شخص أو ثلاثة آلاف شخص . فالرجال والنساء والأطفال ، سواء أكانوا مسلحين أم كانوا غير مسلحين ، أخذوا يزحفون كتلا متراصة وموجات متعاقبة نحو المناطق التي يسيطر عليها المستوطن البرتغالي والجندي البرتغالي،

ويرفرف عليها علم البرتغال ، فحاصروا قرى ومطارات بل هاجموا قرى ومطارات، ولكنكم تعرفون أن رشاشات الاستعمار حصدت ألوفا من الأنجوليين وما هو الا وقت قصير حتى أدرك قادة الثورة الأنجولية ان عليهم ان يعمدوا الى طريقة أخرى اذا هم أرادوا أن يحرروا بلادهم حقا ، لذلك رأينا الزعيم الأنجولي هلدان روبرتو يعيد تنظيم « الجيش الوطني الأنجولي » منذ بضعة أشهر ، مستفيدا من تجارب مختلف حروب التحرير ، مستعملا أساليب حرب العصابات ·

ذلك أن القتال ، في حرب العصابات ، لا يتم في المكان الذي يكون فيه المقاتل ، بل في المكان الذي يذهب اليه · ان كل مقاتل في حرب العصابات انما ينقل الوطن الى حيث تمضي قدماه العاريتان · ان جيش التحرير الوطني ليس هو الجيش الذي يعرّض نفسه لقوى العدو مرة واحدة ، بل هو الجيش الذي يمضي من قرية الى قرية، ويختبىء في الغابات ، وتمتلىء قلوب جنوده فرحا حين يرون في الوادي سحابة الغبار التي تثيرها أقدام العدو · القبائل في حرب التحرير تتحرك ، وجماعات المقاتلين تنتقل ، وتغير مواقعها في غير انقطاع · رجال الشمال يتحركون نحو الغرب ، ورجال السهل يتجهون الى الجبال · وما من موقع استراتيجي يفضل على غيره · ان العدو يتخيل أنه يطاردنا ويلاحقنا ، ولكننا نتدبر الأمور دائما بحيث نكون وراءه ، نتعقبه ونهوي عليه في اللحظة التي يظن فيها اننا قد فنينا· نحن الذين نطارده الآن ونلاحقه · ونشعر أنه ، مع معداته وأسلحته ، يغوص في الوحل · ثم يغوص ويغوص · ونغني نحن ، ثم نغني ·

وفي أثناء ذلك يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوّروا جميع المقاتلين، أن يعلموهم ، أن يثقفوهم ، أن يبثوا فيهم عقيدة، يدرك قادة الثورة أن عليهم أن يخلقوا جيشا ، أن يمركزوا السلطة · ان علينا ان نصحح التبعثر والتشتت ، ان علينا ان نتجاوز تفتت القوى المقاتلة · وعندئذ نرى هؤلاء القادة الذين فروا من جو السياسة العقيمة الذي يسود المدن ، يعودون الى السياسة لا كأسلوب تخدير أو تضليل ، بل كوسيلة وحيدة الى تقوية الكفاح، والى اعداد الشعب لقيادة البلاد قيادة واعية · ان قادة الثورة يشعرون بأن الانتفاضات ، ولو كانت رائعة ، في حاجة الى انكار المعركة من حيث هي انتفاضة ، ويحيلونها بذلك حربا ثورية · انهم يدركون ان انتصار الكفاح يقتضي أن تكون الأهداف بينة جلية ، وأن تكون أساليب العمل واضحة ، ويقتضي خاصة أن تعرف الجماهير ما في جهودها من قوة دافعة مثمرة · ان الجماهير تصمد ثلاثة أيام وربما ثلاثة شهور باستعمال الحقد المتراكم في

صدورها ، ولكنك لا تستطيع ان تفوزبالنصر في حرب تحريرية ، وان تحطم أداة العدو الرهيبة ، وأن تبدل الناس ، اذا انت أغفلت رفع مستوى الوعي لدى المقاتل • ليس يكفيك تأجج الحماسة ، ولا عنف الشجاعة ، ولا جمال الشعارات •

ثم ان تطور حرب التحرير يتولى بنفسه تعزيز هذه القناعة لدى قـــادة الثورة • ذلك ان العدو يغير خطته • فهو يضيف الى سياسة القمع الوحشية في الظروف المؤاتية سياسة أخرى : يتظاهر بانفراج الأزمة ، ويقوم بمناورات لتفريق الصفوف ، ويعمد الى « الأساليب السيكولوجية » لتضليل الناس وهو يحاول هنا وهناك أن يبعث المنازعات القبلية من مرقدها ، حتى لينجح في ذلك أحيانا بدفع بعض الأفراد الى ارتكاب أعمال استفزازية ، مستعملا نوعين من الناس • فأما النوع الأول فعملاؤه التقليديون من زعماء ومشايخ وسحرة ومشعوذين • ونحن نعلم ان جماهير الفلاحين التي عاشت زمنا طويـــلا في جمود رتيب ، تظل تقدس الزعماء الدينيين ووجهاء الأسر العريقة ، فالقبيلة كلها تسيرُ ، كرجل واحد ، في الطريق التي يعينها الزعيم التقليدي ، وفي وسع الاستعمار ان يكفل لنفسه مساعدة هؤلاء الرجال الموتوقين بما يغدقه عليهم من ذهب • وأما النوع الثاني فيصطاده الاستعمار من بين صفـــوف الطبقة الدنيا من الفعلة الأشقياء • ان بين صفوف هذه الطبقة عددا ضخما من العاطلين عن العمل • لذلك كان ينبغي لكل حركة تحرير وطني ان تنتبه أشد الانتباه الى هذه الطبقة • ورجال هذه الطبقة يلبون دائما نداء الثورة ، ولكن اذا ظنت الثورة أن في وسعها ان تستغني عنهم ، فان جموعهم الجائعة المنبوذة ما تلبث أن تخوض غمار القتال ، وأن تشارك في الصراع ، ولكنها تقاتل عندئذ في صفوف العدو • ان العدو الذي لا يدع فرصة من الفرص لجعل الزنوج يأكل بعضهم بعضا ، سيستعمل الآن جهل أفراد هذه الطبقة البائسة وفقدان الوعي بين صفوفهم ، فاذا لم تبادر الثورة فورا الى تنظيم هـــذا الاحتياطي المهيأ للعمل ، ضمهم الاستعمار الى جنوده المأجورين • ان هذه الطبقة هي التي أمدت الاستعمار في الجزائر بأتباع مصالي الحاج • وهذه الطبقة هي التي أمدت الاستعمار في انجولا بكشافي الطرق الذين يتقدمون اليوم القوات المسلحة البرتغالية • وفي الكونغو نجد أفراد هذه الطبقة في المظاهرات الاقليمية بكاساي وكاتنجا ، كما وجدنا أعداء الكونغو يستعملونهم بمدينـــة نيوبولدفيل في تنظيم جتماعات « عفوية » تعادي لومومبا •

ان العدو يحلل قوى الثورة ، ويعمق دراسته للخصم الذي هو الشعب

المستعمَر ، فيدرك ما هنالك من فراغ ايديولوجي ، ويدرك ما هنالك من فقدان الاستقرار المعنوي في صفوف بعض طبقات السكان ، ويكتشف ان هنالك ، في مقابل الطليعة الثورية القوية المتراصة ، كتلة من الرجال يمكن دائما أن يحملها بؤسها الدائم وذلها وفقدان شعورها بالمسؤولية على النكوص. لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من الناس دافعا لها من أجل ذلك ثمنا كبيرا . ان الدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسية تتقاطر غزيرة على الكونغو ، وفي مدغشقر تدفع للخونة أجور طائلة ، وفي الجزائر يضم الى القوى الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين . وخلاصة القول ان قادة الثورة يشعرون ان العدو يحاول أن يخرب الأمة . ان قبائل برمتها تنقلب على أعقابها ، ويحمّلها العدو أسلحة حديثة ، ويوجهها الى غزو القبائل المعادية التي يعينها لها . وهكذا فان الاجماع الذي نلاحظه في الساعات الأولى من الثورة خصبا رائعا عظيما ، ما يلبث ان يتعطل . وتتفتت الوحدة القومية ، وتصل الثورة الى منعطف حاسم . عندئذ تصبح التوعية السياسية للجماهير ضرورة تاريخية .

ان ذلك الاندفاع الذي كان يريد ان ينقل الشعب المستعمَر الى مستوى السيادة المطلقة دفعة واحدة ، وذلك الاعتقاد الذي كان يخامر النفوس بأن في امكاننا أن نجر جميع أجزاء الأمة الى حركة واحدة تحت ضوء واحد ، وتلك القوة التي كان يقوم عليها هذا الأمل ، ان ذلك كله ينكشف الآن بالتجربة ضعفا كبيرا . ان المستعمَر، ما ظل يتخيل ان في امكانه ان ينتقل رأسا، بلا مراحل، من حالة المستعمَر الى حالة مواطن يملك السيادة، وما ظل يستسلم لخداع فورية عضلاته، لا يحقق تقدما حقيقيا في طريق المعرفة، بل يظل وعيه بسيطا ساذجا . ان المستعمَر ينخرط في الكفاح في حرارة كما رأينا ، وخاصة حين يكون هذا الكفاح مسلحا . والفلاحون يندفعون في الثورة بحماسة عظيمة ، خاصة وأنهم لم يكفوا لحظة عن الثبات على طراز من الحياة يعادي الاستعمار بطبيعته . ان الفلاحين قد حافظوا دائما على ذاتيتهم تجاه الاستعمار بعد كثير من المخاتلة والمكر ، حتى انهم يبلغون من ذلك الى الاعتقاد بان الاستعمار لم ينتصر عليهم يوما . ان أنفة الفلاح ، واحجامه عن النزول الى المدن ، واشمئزازه من مقاربة العالم الذي بناه الأجنبي ، وتراجعه الدائم كلما دنا منه ممثلو الحكم الاستعماري ، ان ذلك كله كان يعني دائما أنه يقابل الانقسام الذي أوجده المستعمِر بانقسام من عنده .

لا شك في أن التعصب العرقي الذي يقابل به المستعمَر تعصب المستعمِر ، وأن عزم المستعمَر على الدفاع عن جلده جوابا على اضطهاد

المستعمِر ، لا شك في أن ذلك يهيب بالمستعمَر اهابة كافية الى الانخراط في الكفاح • ولكن المرء لا يصمد في حرب طويلة • ولا يتحمل عذابا كبيرا ، ولا يطيق أن يرى فناء أسرته كلها ، لمجرد أنه يريد أن ينتصر حقده وان ينتصر تعصبه العرقي • ان التعصب العرقي ، والكره ، والحقد ، و «الرغبة المشروعة في الانتقام » ، ان ذلك كله لا يمكن أن يغذي حربا تحريرية • ان تلك البروق التي تومض في نفسي فتدفع جسمي في طرق هائجة ، وتلقيني الى تهويل تشبه ان تكون هلوسات مرضى ، فاذا تصور وجه العدو يجعلني في حالة دوار ، واذا دمي يحدوني ان أسفح دمه ، واذا موتي البطيء بالعطالة يحضني على أن أحمل اليه الموت ، ان تلك البروق وهذه الحماسة الكبيرة التي تشب في النفس في الساعات الأولى ، ما تلبث أن تنحل اذا هي أرادت ان تتغذى من ذاتها • صحيح ان الجرائم المتصلة التي ترتكبها القوات الاستعمارية ما تنفك تدخل العناصر الانفعالية في الكفاح ، وما تفتأ تمد المناضل بدواع جديدة الى الحقد ، وما تفتأ تزوده بأسباب جديدة تحفزه على أن يبحث عن « المستعمِر الذي يجب عليه أن يذبحه » • ولكن قادة الثورة يدركون يوما بعد يوم أن الكره لا يمكن ان يكون برنامجا • انك لا تستطيع أن تركن الى الخصم الذي يعرف دائما كيف يتخلص من المآزق ، وأن تطمئن الى أنه سيضاعف جرائمه ، فيعمق « الهوة » ويدفع مجموع الشعب دفعا الى أحضان الثورة ، وقد رأينا ان الخصم يحاول على كل حال أن يكتسب عطف بعض فئات السكان ، وبعض المناطق ، وبعض الزعماء • حتى أنه يصدر الى المستوطنين والى قوى الشرطة تعليمات بهذا الصدد ، فترى سلوك هؤلاء يتلطف ويصطنع شيئا من « الروح الانسانية » ، حتى لقد يأخذون يخاطبون المستعمَرين بقولهم : « سيدي وسيدتي » وما ينفكون يضاعفون التأدب والتهذب ، الى ان يشعر المستعمر حقا أن ثمة تبدلا قد حدث •

والمستعمَر الذي لم يحمل السلاح لمجرد أنه كاد يموت جوعا ، وأنه كان يرى مجتمعه بسبيل الانحلال وانما حمل السلاح أيضا لأن المستوطن كان ينظر اليه نظرته الى دابة ، ويعامله معاملة دابة ، لا بد أن يتأثر بهذه التدابير الجديدة • ان هذه الاكتشافات السيكولوجية تضعف الكره • والأخصائيون في علم النفس وعلم الاجتماع ينيرون الطريق للمناورات الاستعمارية ، ويضاعفون دراساتهم « للعقد » : عقد الحرمان ، عقد القتال ، الخ ••• وها هم الاستعماريون يرفعون منزلة السكان الأصليين ، محاولين أن يفلوا سلاحهم بعلم النفس ، وببضع قطع من النقود أيضا بطبيعة الحال • هذه التدابير التافهة ، هذه

الاصلاحات الظاهرية ، التي لا تبذل جزافا مع ذلك ، وانما تبذل بمقادير معلومة ، تتوصل الى تحقيق بعض النجاح . ذلك أن جوع المستعمَر ، جوعه الى من يعامله معاملة انسان ، ولو بأرخص الأثمان ، قد بلغ من القوة أن هذه الصداقات يمكن ان تؤثر في نفسه . ان شعوره قد بلغ من الضعف والكثافة أنه يهتز لأيسر بارقة . ان ظمأه الكبير الى الضوء في أول الأمر مهدد في كل لحظة بأن يغرر به وأن يضلَّل . فاذا المطالب العنيفة الشاملة التي كانت تشق السماء شقا تنطوي الآن على نفسها وتتواضع . ان الذئب المفترس الذي كان يريد أن يلتهم كل شيء ، والاعصار العاصف الذي كان يريد أن يحقق ثورة حقيقية ، مهددان بأن تتغير ملامحهما فما يعرفان ، اذا استمر الكفاح ، وانه ليستمر . ان المستعمَر مهدد في كل لحظة بأن يسقطوا في يده بأي تنازل .

ويكشف قادة الثورة فقدان الثبات هذا لدى المستعمَر ، يكتشفونه في رعب . ويحارون في أول الأمر ، لكنهم ما يلبثون أن يفهموا من هذه الزاوية الجديدة أن عليهم أن يشرحوا الأمور ، وأن يحملوا الى النفوس وعيا يحررها من الانزلاق . أن الحرب تستمر ، والعدو ينظم صفوفه ، ويقوي نفسه ، ويدرك استراتيجية المستعمَر . وكفاح التحرير الوطني ليس اجتياز مسافة بوثبة واحدة . ان الملحمة تتتابع فصولها كل يوم ، والآلام التي يقاسيها المقاتلون أقوى من جميع الآلام التي قاساها الشعب في عهد الاستعمار . «يظهر ان المستوطنين قد أصبحوا في المدن غير ما كانوا بالأمس . لقد تبدلوا . لقد أصبح جماعتنا أكثر سعادة» . هذا هو الخطر . ان الأيام تتلو الأيام ، وما ينبغي للمستعمَر المنخرط في الكفاح ، ولا للشعب الذي يجب أن يستمر في مساندة الثورة ، أن يتوقفا . يجب أن لا يتوهما أن الغاية قد تحققت ، وأن الهدف قد تم الوصول اليه . يجب أن تشرح لهم الأهداف الحقيقية التي يسعى الكفاح الى تحقيقها ، ويجب أن لا يتخيلوا أن بلوغ هذه الأهداف أمر مستحيل . نعم ، يجب أن تشرح لهم الأمور ، يجب أن يعرف الشعب الى أين هو ماض . وكيف ينبغي له أن يمضي الى حيث هو ماض . ليست الحرب معركة كبيرة واحدة ، وانما هي سلسلة من معارك محلية ليست واحدة منها فاصلة في حقيقة الأمر .

يجب اذن أن ندخر قوانا ، أن لا نلقيها في الميزان دفعة واحدة . ان احتياطات الاستعمار أغنى وأكبر من احتياطات المستعمَر . والحرب مستمرة . والعدو يدافع عن نفسه . وموعد التصفية الكبرى ليس اليوم ولا غدا . لقد بدأت هذه التصفية منذ أول يوم في الواقع ، ولن تنتهي يوم لا يبقى ثمة خصم ،

بل يوم يدرك هذا الخصم لأسباب كثيرة أن مصلحته نفسها تقتضي أن ينهي هذا الصراع ، وأن يعترف بسيادة الشعب المستعمر · يجب أن لا تبقى أهداف الكفاح غامضة غموضها في الأيام الأولى · فان لم ننتبه الى هذا تعرضنا في كل لحظة لأن نرى الشعب يتساءل عند أي تنازل يتنازله العدو : فيم نطيل هذه الحرب ؟ ذلك أن الناس قد بلغوا من تعودهم على احتقار المستعمِر لهم · وعلى اصراره على الاستمرار في اضطهادهم مهما كلف الأمر ، انهم ما ان يلاحظوا بادرة طيبة منه، وما أن يظهر لهم شيئا من حسن الاستعداد ، حتى يحيوا ذلك مدهوشين وحتى يباركوه فرحين · ان المستعمر يميل عندئذ الى أن يغني طربا · فيجب اذن ان نضاعف الشرح والتوضيح ، ان نفهم المناضل ان تنازلات الخصم ما ينبغي ان تضلله عن الحقيقة ، ان تعميه ، فهذه التنازلات ليست الا تنازلات ، وهي لا تمس جوهر الأمر ، حتى ليمكن ان يقال ، من وجهة نظر المستعمَر ، ان كل تنازل لا يمس جوهر الأمر ما لم يتناول النظام الاستعماري في جوهره ·

ان الأشكال الوحشية التي يكتسبها وجود المحتل قد تزول زوالا تاما · والواقع أن زوالها هذا لا يعدو أن يكون تخفيضا للنفقات التي ينفقها المحتل، ولا يعدو أن يكون اجراء ايجابيا من أجل الحيلولة دون بعثرة قواه · ولكن الشعب المستعمَر يدفع ثمن ذلك باهظا ، يدفع ثمنه مزيدا من تحكم المستعمِر بمصير البلاد ، يجب علينا ان نذكر للشعب أمثلة تاريخية تساعده على الاقتناع بأن مهزلة التنازل هذه وبأن تطبيق مبدأ التنازل هذا ، قد أديا الى سيطرة المستعمِر سيطرة ان كانت أخفى فهي أكمل وأشمل يجب أن يعرف الشعب وان يعرف مجموع المناضلين ذلك القانون التاريخي ، وهو أن هناك تنازلات ليست في حقيقتها الا أغلالا · فاذا أغفلنا هذا الشرح وهذا التوضيح رأينا قادة بعض الاحزاب السياسية تتورط بسهولة في مساومات مع المستعمِر · يجب ان يقتنع المستعمَر بأن الاستعمار لا يهب له شيئا ، وأن ما يحصل عليه المستعمَر بكفاحه السياسي أو كفاحه المسلح ليس ثمرة حسن النية أو طيب القلب لدى المستعمِر ، وانما هو افصاح عن عجز المستعمِر عن تأجيل التنازلات · ويجب أن يعلم المستعمَر أيضا أن المستعمر ليس هو الذي يقدم هذه التنازلات ، وانما المستعمَر هو الذي يقدمها · فحين تقرر الحكومة البريطانية أن تمنح السكان الافريقيين عددا من المقاعد الاضافية في « مجلس كينيا » فما من أحد يستطيع ان يدعي أن الحكومات البريطانية قد قامت بتنازلات ، اللهم الا أن يكون قليل الحياء أو عديم الوعي · ان الشعب الكيني هو الذي تنازل هنا عن حقوقه · يجب على الشعوب المستعمَرة، يجب على الشعوب التي كانت محرومة مجردة من حقوقها ، أن تتحرر من هذه

الحالة النفسية التى لازمتها الى الآن • لقد يمكن عند الاقتضاء ان يقبل المستعمَر حلا وسطا ، ولكن ما ينبغي له أبدا أن يقبل مساومة •

هذه الشروح كلها ، وهذه التوضيحات المتصلة المتعاقبة التي تحمل الى النفوس الوعي والنور ، وهذا المسير فى طريق معرفة تاريخ المجتمعات ، هذا كله لا يمكن أن يتم الا في اطار تنظيم يتناول الشعب • وهذا التنظيم انما يكون باستعمال العناصر الثورية التي وفدت من المدن في أول الثورة ، العناصر التي التحقت بالأرياف أثناء تطور الكفاح • ولكن الفلاحين الذين ينضجون معارفهم من اتصالهم بالتجربة ، يبرهنون أنهم قادرون هم ايضا على قيادات الكفاح الشعبي ، فالمؤسسات التقليدية تقوى وتعمق ؛ حتى لقد تتبدل تبدلا حقيقيا : مجالس « الجماعة » التي تفض الخلافات وتفصل في المنازعات ، ومجالس القرى ، تستحيل الى مجالس ثورية ولجان سياسية حربية ، ويظهر في كل جماعة من جماعات المقاتلين ، وفي كل قرية ، رجال يتولون التوجيه السياسي ، ويأخذ هؤلاء الرجال بتنوير الشعب الذي بدأ يشعر من عزلته بحيرة ، ولا يحجم هؤلاء الرجال عن معالجة المشكلات التي يؤدي السكوت عنها الى مزيد من الحيرة والبلبلة • من ذلك مثلا ان المناضل الذي حمل السلاح يحنقه ان يرى كثيرا من أبناء وطنه ما يزالون يتابعون حياتهم في المدن كأنهم غرباء عما يحدث في الجبال ، كأنهم يجهلون هذه الحركة الجوهرية التى انطلقت • ان صمت المدن ، واستمرار الحياة فيها على منوالها المألوف ، يولد في نفس الفلاح شعورا مرا بأن قسما بكامله من الأمة يكتفي بمشاهدة المعركة ولا يزيد على عدّ الضربات • وهذا يثير الحنق والغيظ في نفوس الفلاحين ، ويعزز ميلهم الى احتقار سكان المدن ، والى الحكم عليهم بالسوء جميعا • فعلى الموجّه السياسي في هذه الحالة أن يجعل الفلاحين قادرين على تمييز الأمور تمييزا أدق ، فيفهمهم أن هناك أجزاء من الشعب لها مصالح خاصة لا تتفق اتفاقا كاملا دائما مع المصلحة الوطنية ، ويدرك الشعب عندئذ أن الاستقلال الوطني يبرز وقائع كثيرة هي في بعض الأحيان متباعدة بل ومتعارضة • والشرح في هذه اللحظة بعينها من لحظات الكفاح ، أمر حاسم ، لأنه ينقل الشعب من أفق الوطنية العامة الغامضة الى أفق الوعي الاجتماعي والاقتصادي • ان الشعب الذي تبنى في بداية الكفاح تلك الثنائية الأولى التي أوجدها المستوطن الأجنبي : البيض والسود ، العرب والأروام ، يدرك الآن في أثناء النضال أنه يتفق لسود أن يكونوا اكثر بياضا من البيض ، وان هناك فئات من السكان لا يحملها امكان ارتفاع راية وطنية وامكان قيام أمة مستقلة على التنازل عن امتيازاتها وعن مصالحها • ويدرك الشعب أن هناك أناسا من بني

وطنه لا يتمسكون بمصالحهم فحسب ، بل ينتهزون كذلك فرصة الحرب لتعزيز وضعهم المالي وقوتهم الناشئة • ان هناك أناسا من السكان الأصليين يتاجرون ويحققون أرباحا طائلة من قيام هذه الحرب ، على حساب الشعب الذي يضحي بنفسه دائما ، ويروّي بدمه تراب الوطن • ان المناضل الذي يجابه بوسائله البدائية آلة الحرب الاستعمارية يكتشف أنه بقضائه على الاضطهاد الاستعماري يساهم في خلق جهاز استغلالي آخر • وهو اكتشاف مؤلم شاق مثير • لقد كان الأمر بسيطا في البداية : كان هناك في نظره أشرار من جهة ، وطيبون من جهة أخرى • أما الآن فقد حل محل الوضوح الخيالي اللاواقعي الأول ظلام يجزىء الشعور • ان الشعب يكتشف أن الاستغلال الظالم يمكن ان يكون زنجيا أو عربيا • وهو يندّد عندئذ بالخيانة ، ولكن يجب أن نصحح هذا التنديد • فالخيانة ههنا ليست وطنية بل اجتماعية، ينبغي لنا ان نعلّم الشعب أن يندد باللصوص • والشعب في مسيره الشاق الى المعرفة العقلية ، يترك أيضا تلك النظرة التبسيطية التي كان يتميز بها ادراكه للمتسلّط • ان النوع يتجزأ الآن أمام بصره • انه يلاحظ من حوله مستوطنين لا يشاركون في تلك الهستريا الاجرامية ، ويختلفون عن سائر أبناء جلدتهم • ان بين هؤلاء المستوطنين الذين كان يعدهم كتلة واحدة تمثل التسلط الأجنبي بغير تمييز أناسا يستنكرون الحرب الاستعمارية ، بل أعجب من ذلك أن أفرادا من هذا النوع ينتقلون الى المعسكر الآخر ، ويجعلون أنفسهم زنوجا أو عربا ويرتضون تحمل الآلام والتعذيب والموت •

هذه الأمثلة تضعف الحقد العام الذي كان المستعمَر يشعر به نحو جميع الأجانب •حتى لقد يحيط ذلك العدد القليل من الأشخاص بعاطفة حارة ، ويميل بنوع من المزايدة العاطفية، الى ان يمحضهم ثقة مطلقة • ان في عاصمة البلاد المستعمِرة ، التي ينظر اليها المستعمَر نظرته الى جلاد لا يرحم ، أصواتا كثيرة ، شهيرة في بعض الأحيان ، تستنكر بغير تحفظ سياسة الحرب التي تتبعها الحكومة الاستعمارية ، وينصحون هذه الحكومة بأن تثوب الى رشدها ، وأن تحسب أخيرا حساب الارادة القومية للشعب المستعمر • بل ان جنودا من جنود الاستعمار يفرون من بين صفوفه ، كما أن جنودا آخرين يرفضون صراحة ان يقاتلوا ضد حرية الشعب ، فيذهبون الى السجون ، ويتحملون العذاب باسم حق هذا الشعب في الاستقلال وفي ادارة شؤونه بنفسه •

وعندئذ لا يكون المستوطن رجلا يجب ذبحه ، وكفى ان افراد الكتلة

الاستعمارية يظهرون أقرب الى الكفاح الوطني، أقرب كثيرا الى الكفاح الوطني من بعض أبناء الأمة . وبذلك يصبح التفريق العنصري والتعصب العنصري متجاوزا في الاتجاهين . فلا كل زنجي وكل مسلم يستحق شهادة صدق ، ولا كل مستوطن يستقبل بتناول البندقية أو السيف . هكذا الوعي يطل بكثير من الجهد والمشقة على حقائق جزئية محدودة غير ثابتة . وذلك كله صعب كما تقدرون . وانما يسهّل مهمة ترشيد الشعب ان يكون التنظيم قويا صارما وأن يكون المستوى العقائدي لدى قادة هذا التنظيم عاليا . وعلو المستوى العقائدي انما يتحقق ويتعزز خلال اتساع النضال ومناورات الخصم وخلال الانتصارات والهزائم . والقيادة تكشف عن قوتها وسلطتها بفضح الأخطاء وبالاستفادة من كل تقهقر في الوعي لاستخلاص الدرس ولتوفير شروط جديدة من أجل التقدم . فهي تستثمر كل نكوص محلي من أجل اعادة النظر في القضية على مستوى جميع القرى وجميع الشبكات . ان الثورة تبرهن لنفسها على أنها عقلية ، وتعبر عن نضجها كلما استفادت من حالة من الحالات في تعميق وعي الشعب . وقيادة الثورة ، ولو كان ما يحيط بها يوهم أحيانا بأن الاهتمام بالفروق الطفيفة خطر ، وبأنه يحدث صدوعا في كتلة الشعب ، تظل ثابتة على مبادىء الكفاح الوطني والكفاح العام الذي يخوضه الانسان لتحقيق تحرره . صحيح أن هناك وحشية تحتقر الفروق الطفيفة والحالات الفردية ، وحشية ثورية حقا ، غير ان هناك وحشية أخرى تشبهها شبها كبيرا وليست من الروح الثورية في شيء ، بل هي منافية للثورية، مغامرة فوضوية . فاذا لم تحارب هذه الوحشية الصرفة الكلية فورا ، أدت حتما الى اخفاق الحركة في غضون أسابيع .

ان المناضل الوطني الذي هجر المدينة بعد أن آلمته المناورات الديماغوجية المتخاذلة التي يقوم بها المسؤولون في الحزب، بعد أن خيبت ظنه «السياسة»، اكتشف أثناء النضال العملي المحسوس سياسة جديدة لا تشبه السياسة القديمة بوجه من وجوهها ، انها سياسة أناس مسؤولين وقادة داخلين في التاريخ يتولون بعضلاتهم وأدمغتهم توحيد كفاح التحرير . ان هذا الواقع الجديد الذي سيعرفه المستعمَر الآن لا يوجد الا بالعمل النضالي . فالنضال الذي ينسف الواقع القديم الاستعماري ، يكشف عن جوانب كانت مجهولة ويفجّر معاني جديدة ، ويضع الاصبع على التناقضات التي كان يخبئها ذلك الواقع . ان الشعب الذي يكافح ، الشعب الذي يدرك بالنضال هذا الواقع الجديد ويعرفه ، يسير حين يتحرر من الاستعمار متنبئا بجميع محاولات

التضليل ، متهيئا لجميع الأكاذيب التي تلفق باسم الوطنية · والعنف وحده ، العنف الذي يمارسه الشعب ، العنف المنظم الواعي الذي ينيره قادة الثورة ، هو الذي يتيح للجماهير ان تحلل الواقع الاجتماعي وأن تملك مفتاحه· وبدون هذا النضال ، بدون هذه المعرفة النابعة من النضال ، لا يكون ثمة الا تهريج : قليل من التبديل ، بضعة اصلاحات في القمة ، راية وطنية ، أمـــا تحت ، فكتلة كبيرة من الناس ما تزال تعيش في « القرون الوسطى » ، وما تنفـــك تجري حياتها على وتيرة ثابتة ·

* * *

مزالق الشعور القومي

أما أن المعركة ضد الاستعمار لا تجري منذ البداية على مستوى قومي ، فذلك ما يدلنا عليه التاريخ. ان المستعمَر يظل زمنا طويلا يوجه جهوده نحو ازالة بعض المظالم: العمل الاكراهي ، العقوبات الجسمية ، تفاوت الأجور، تقييد الحقوق السياسية ، الخ . وهذا النضال من أجل الديموقراطية ضد اضطهاد الانسان ما يلبث أن يخرج شيئا فشيئا من هذا الابهـام الليبرالي الجديد ، وما يلبث أن يطل على المطامح القومية ولو بكثير من المشقة في بعض الأحيان . ولكن عدم تأهب الصفوة ، وفقدان الاتصال العضوي بين هـذه الصفوة وبين الجماهير ، وكسل هذه الصفوة ، بل جبنها في اللحظة الحاسمة من لحظات الكفاح ، كل ذلك يؤدي الى مزالق فاجعة .

ان الشعور القومي ما لم يكن تجسيدا منسجما لأعمق مطامح الشعب بمجموعه ، وما لم يكن ثمرة مباشرة حية نابضة للتعبئة الشعبية ، فلن يكون في أحسن الأحوال الا شكلا لا مضمون له ، سريع الزوال قليل الدقة والوضوح. والصدوع التي نجدها فيه عندئذ هي السبب في أن البلاد الناشئة المستقلة ، كثيرا ما تنتقل بسهولة من حالة الأمة الى حالة القبيلة ، ومن مستوى الدولة الى مستوى العشيرة . ان هذه الشقوق هي السبب فيما تعانيه الاندفاعة القومية والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية . وسنرى الآن أن مواطن الضعف هذه ، وما تشتمل عليه من أخطار فادحة ، انما هي نتيجة تاريخية لعجـز البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبي ، أي عن استخلاص معانيه ودوافعه .

ان الضعف الكلاسيكي المعروف الذي يعانيه الوعي القومي في البلدان المتخلفة لا يرجع الى أن النظام الاستعماري قد أفسد الانسان المستعمَر ، وانما

يرجع أيضا الى كسل البورجوازية الوطنية ، والى فقرها ، والى أن فكرها قد تكوّن تكونا كوزموبوليتيا في قراراته ٠

ان البورجوازية التي تستلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري هي بورجوازية متخلفة ٠ قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفرا ، أو هي على الأقل لا تقاس أبدا بالقوة الاقتصادية التي تملكها بورجوازية البلاد المستعمرة التي تريد هذه البورجوازية الوطنية أن تحل محلها ٠ لقد ظنت البورجوازية الوطنية لنرجسيتها وغرورها أن في وسعها أن تحل محل بورجوازية الاستعمار وأن تكون خيرا منها ٠ ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها في مآزق حرجة ، فاذا هي تلجأ الى وسائل تجلب الكوارث، اذ تتجه بنداءات خائفة الى الدولة التي كانت تستعمر بلادها ٠ ذلك أن العناصر الجامعية والعناصر التجارية التي هي أكثر أبناء الدولة الجديدة وعيا تتميز بأنها قليلة العدد ، بأنها متمركـــزة في العاصمة، وبأن أنواع نشاطها لا تتعدى التجارة والاستثمارات الزراعية والمهن الحرة ، فليس بين أفراد هذه البورجوازية الوطنية أناس من رجال الصناعة أو رجال المال ٠ ان البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة ليست متجهة نحو الانتاج ، والابتكار ، والبناء ، والعمل ، وانما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع الوساطة ٠ ان نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية رجال أعمال ، لا روّاد صناعة ٠ ويجب ان نعترف أن جشع المستوطنين ، ونظـام الحجر الذي أوجده الاستعمار لم يدعا للبورجوازية حرية الاختيار كثيرا ٠

انه ليستحيل على بورجوازية أن تجمع رأسمالا في ظل النظـــــام الاستعماري ٠ والرسالة التاريخية التي يبدو أن البورجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف قد خلقت للنهوض بها هي أن تنكر نفسها كبورجوازيـة ، هي أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال ، وأن تضع نفسها وضعا كاملا في خدمة رأس المال الثوري الذي هو الشعب ٠

ان على البورجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف أن تفرض على نفسها خيانة المهمة التي كانت ميسّرة لها ، أن تدخل مدرسة الشعب، أي أن تضع تحت تصرف الشعب الرأسمال الثقافي والتكنيكي الذي استطاعت ان تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار ٠ ولكننا نرى آسفين ان البورجوازية الوطنية كثيرا ما تتنكب هذا السبيل البطولي الايجابي الخصب العـــادل ، لتسير راضية النفس مطمئنة البال في طريق فظيع ، مناقض لمصلحة الأمة ، هو الطريق الذي تسلكه بورجوازية تقليدية ، بورجوازية بورجوازيـــــة ، بورجوازية ارتضت في غباء وحمق وحطة ان لا تكون الا بورجوازية ٠

لقد رأينا أن هدف الأحزاب الوطنية يصبح منذ مرحلة من المراحـــل

هدفا قوميا تماما • فهو يعبىء الشعب حول شعار الاستقلال ، مرجئا ما عــدا ذلك للمستقبل • فاذا سألت رجال هذه الأحزاب عن البرنامج الاقتصــادي الذي ستلتزمه الدولة ، وعن النظام الذي يريدون اقامته ، رأيتهم عاجزين عن الاجابة ، لأنهم يجهلون كل الجهل اقتصاد بلادهم •

ان اقتصاد بلادهم قد تطور دائما بعيدا عنهم وبدون تدخلهم • انهم لا يعرفون عن الموارد الحالية والموارد الممكنة التي تشتمل عليها الأرض ويضمها جوف الأرض الا أمورا قرأوها في الكتب ، أمورا تقريبية ، لذلك تراهـــم لا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذه الموارد الا حديثا مجردا عاما • حتى اذا تحقق الاستقلال ، رأيت هذه البورجوازية المتخلفة ، القليلة العدد ، التي لا تملك رؤوس أموال كبيرة ، والتي ترفض أن تسلك الطريق الثوري ، راكدة ركودا يرثى له • انها لا تستطيع أن تطلق العنان « لعبقريتها » التي كانت تستطيع ان تقول عنها بشيء من الطيش ان سيطرة الاستعمار هي التي حالـــت دون انطلاقها • وهكذا نرى فقر وسائلها وقلة رجالها تحصرها خلال سنوات طويلة في نطاق اقتصاد يقوم على الحرفة ، فاذا الاقتصاد القومي اقتصاد محدود الآفاق يستند الى ما يسمى بالمنتجات المحلية • ونسمع عندئذ خطبا طويلة عن قيمة الحرف، فالبورجوازية الوطنية التي وجدت نفسها عاجزة عن اقامة مصانع تدر لها وللبلاد أرباحا أوفر ، تحيط الحرف عندئذ بعواطف العزة القوميـــة والكرامة الوطنية ، وتستمد منها في الوقت نفسه فوائد جمة • وهذا التقديس للمنتجات المحلية ، هذا العجز عن خلق طرق جديدة يتجليان كذلك في انغماس البورجوازية الوطنية في الانتاج الزراعي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري • انهم لا يوجهون الاقتصاد القومي توجيها جديدا • وتظل الأمور تسير على ما كانت تسير عليه من قبل : غلال الأراشيد ، غلال الكاكاو ، غلال الزيتون • حتى ان هذه المنتجات الأساسية لا يطرأ أي تغير على طريقة استثمارهـــا • وتظل البلاد تصدّر موادِ أولية، ويظل الأهالي يعملون مزارعين صغارا لدى أوروبا ، وتظل البلاد اختصاصية في تقديم المحاصيل الخام •

ومع ذلك ما تفتأ البورجوازية الوطنية تطالب بتأميم الاقتصاد والقطاعات التجارية • ذلك ان التأميم عندها لا يعني وضع مجموع الاقتصاد في خدمة الأمة ، وتحقيق كافة حاجات الأمة ، وهو لا يعني تنظيم شؤون الدولـــة على أساس علاقات اجتماعية جديدة يراد تسهيل وجودها ، وانما يعني التأميـــم عندها نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعماري الى أهل البلاد •

ولما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل المادية ، ولا الوسائل العقلية

الكافية « مهندسين ، فنيين » ، نراها تكتفي بوضع اليد على مكاتب الأعمال وبيوتات التجارة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب • ان البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب• ان البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها الأوروبيون : أطباء ومحامين وتجارا وممثلي شركات ووكلاء عامين ووسطاء • انها تشعر أن من واجبها ، حفاظا على كرامة البلاد وحفاظا على نفسها ، أن تحتل جميع هذه المراكز •

ومنذ ذلك الحين تراها تفرض على جميع الشركات الأجنبية الكبرى أن تمر بواسطتها ، سواء أكانت تريد أن تبقى في البلاد أم كانت تنوي أن تدخل الى البلاد • ان البورجوازية الوطنية تكتشف لنفسها هذه المهمة التاريخية وهي أن تكون وسيطا • وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة ، بل جعل نفسها وسيطا بين البلاد وبين رأسمالية مضطرة الى التخفي ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد • وترتاح البورجوازية الوطنية الى هذا الدور الذي تقوم به ، أعني دور وكيل للبورجوازية الغربية ، دون أن يكون ثمة عقد ولا غضاضة • وهذا الدور الذي يدر ربحا ضئيلا ، هذه الوظيفة التي تغل رزقا يسيرا ، هذا الضيق في النظرة ، هذا النقص في الهمة والطموح ، هذا كله انما يرمز الى عجز البورجوازية الوطنية عن النهوض بالدور التاريخي الذي تنهض به البورجوازية • فما تعرف به كل بورجوازية وطنية من أنها نشيطة زائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لا نرى مثله لدى هذه البورجوازية الوطنية • ان روح التمتع والتلذذ هي المسيطرة لدى البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمَرة • ذلك أنها على المستوى النفسي تتشبه بالبورجوازية الغربية وتستمد منها تعاليمها ، وتقتفي آثارها في الجانب السلبي وتنحط دون أن تكون قد قطعت مراحل الاستكشاف والابتكار الأولى التيقطعتها البورجوازية الغربية، وحققت بها أشياء ايجابية على كل حال• ان البورجوازية الوطنية في أول عهدها تشبه البورجوازية الغربية في آخر عهدها • وما ينبغي أن نظن أنها تغذ السير وتحرق المراحل • فانما هي في حقيقة الأمر تبدأ بالنهاية • لقد دلفت الى الشيخوخة المتهدمة قبل أن تعرف ما يعرفه عهد الصبا والمراهقة من نزق ، وتهور ، واندفاع •

والانحطاط الذي تتردى فيه البورجوازية الوطنية تساعدها عليه البورجوازية الغربية مساعدة كبيرة ، بتوافد رجالها على البلاد سائحين مولعين بالغرائب والصيد والملاهي • ان البورجوازية الوطنية تنشيء مراكز للراحة والاستجمام واللذة يتقاطر عليها رجال البورجوازية الغربية • وهي

تطلق على هذا النشاط اسم السياحة ، تعده أشبه بصناعة وطنية. واذا أردتم برهانا على هذا النوع من تحول عناصر البورجوازية الغربية ، فانظروا الى ما حدث فيأميركا اللاتينية. ان ملاهيهافانا ومكسيكو وشواطىء ريوديجانيرو والبرازيليات الصغيرات ، والمكسيكيات الصغيرات ، وخلاسيات السنة الثالثة عشرة من العمر ، وآكابولكو ، وكوباكابانا ، كل تلك انما هي أمارات الفساد الأخلاقيالذيتتردى فيه البورجوازيةالوطنية. فلأنهذه البورجوازية الوطنية ليس لها أفكار ، ولأنها مغلقة على ذاتها ، منقطعة عنالشعب، عاجزة عن التفكير في مجموع المسائل على أساس مجموع الأمة ، نراها تقوم بدور الوكيل عن الغرب في ادارة مشاريعه، ونراها تنظم بلادها ماخورا لأوروبا .

أعود فأقول يجب أن يكون ماثلا في خيالنا ذلك المشهد المحزن، مشهد بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية . ان رجال الأعمال في الولايات المتحدة وكبار أصحاب المصارف ورجال الصناعة ، يطيرون بصفقة جناح الى « البلاد الحارة » ليغرقوا هنالك سبعة أيام أو ثمانية في ذلك الجو اللذيذ منالفسق الذي يهيأ لهم .

ولا يختلف سلوك ملاكي الأراضي عمليا عن سلوك بورجوازية المدن . لقد طالبكبار المزارعين، منذ اعلانالاستقلال، بتأميم الاستثماراتالزراعية، واستطاعوا بأساليب ماكرة كثيرة أن يضعوا أيديهم على المزارع التي يملكها المستوطنون الأجانب ، فزادوا بذلك سيطرتهم على المنطقة . ولكنهم لا يحاولون أنيجددوا الزراعة ، أو أنيقووها ، أو أن يجعلوها جزءا مناقتصاد قومي حقا .

ان ملاكي الأراضي يطالبون السلطات العامة بأن تحيل اليهم تلك التسهيلات والامتيازات التي كان ينعم بها المستوطنونالأجانب قبلالاستقلال. ويصبح استغلال العمال الزراعيين أقوى مما كان ، ويصبح كذلك مشروعا . ويتزود هؤلاء الوطنيون الذين لا يختلفون عن المستوطنين الأجانب في شيء ، يتزود هؤلاء المستوطنون الجدد بشعارين أو ثلاثة شعارات ، ليطالبوا العمال الزراعيين بالقيام بجهود ضخمة باسم الاشتراك في المجهود القومي العام . فلا تجديد في أساليب الزراعة ، ولا خطة للتنمية الاقتصادية ، ولا مبادهات فردية ، لأن المبادهات تقتضي حدا أدنى من المخاطرات، والمخاطرات تبث الذعر في نفوس هؤلاء الناس ، وتجعل هذه البورجوازية الزراعية المترددة « المتعلقة » يطيش صوابها ، فتؤثر ان تبقى الأحوال على ما هي عليه ، وتكتفي بالطرق المعبدة التي شقها الاستعمار ، ان المبادهات في هذه المناطق انما هي من

شأن الحكومة . الحكومة هي التي تقررها ، وهي التي تشجعها ، وهي التي تمولها . ان البورجوازية الزراعية تأبى ان تقوم بأية مجازفة . انها تكره الرهان ، تكره المغامرة . انها لا تريد ان تعمل على رمال . انها تريد أرباحا مضمونة ، وأرباحا سريعة . وهذه الأرباح التي تجنيها ، هذه الأرباح التي تعد ضخمة بالقياس الى الدخل القومي ، يضعونها في جيوبهم ، ولا يستثمرونها من جديد . ان كنز المال هو السياسة التي تسيطر على نفسية هؤلاء الملاكين الزراعيين . وفي بعض الأحيان ، خاصة في السنوات التي تعقب الاستقلال ، نرى هذه البورجوازية لا تتورع عن ايداع الارباح التي تجنيها من أرض الوطن في البنوك الأجنبية . ونراها في مقابل ذلك تنفق أموالا طائلة في اقتناء الأشياء التي يدفع الى اقتنائها حب الظهور ، فهم يشترون السيارات الفخمة والفيلات الباذخة ، وسائر تلك الأشياء التي لاحظ علماء الاقتصاد أنها مميزات البورجوازية المتخلفة .

قلنا ان البورجوازية المستعمَرة التي تتسلم مقاليد السلطة ، تصب طموحها الطبقي على احتكار الوظائف التي كان يستأثر بها الأجانب . وها هي ذي ، غداة الاستقلال ، تصطدم بالأجانب الذين خلفهم الاستعمار من محامين ، وتجار وملاكي أراض ، وأطباء ، وموظفين كبار . وها هي ذي تقتتل اقتتالا لا هوادة فيه مع هؤلاء الناس « الذين يهينون الكرامة الوطنية » ، وتنادي في كثير من القوة بفكرة تأميم الوظائف ، فكرة اسناد الوظائف الى الافريقيين حتى لنرى سلوكها يصطبغ شيئا فشيئا بتعصب عرقي . وما تلبث ان تطرح على الحكومة هذه المشكلة بكثير من العنف : تريد هذه الوظائف ، ثم لا تخفف من شراستها الا بعد أن تحتل هذه المراكز احتلالا كاملا .

ومن جهة أخرى نرى طبقة العمال في المدن ، وجمهرة العاطلين عن العمل ، وصغار أصحاب الحرف ، أولئك الذين ألفنا ان نسميهم أهل المهن الصغيرة ، نرى هؤلاء جميعا يقفون هذا الموقف الوطني المتعصب . ولكن يجب ان ننصفهم فنذكر انهم انما يقلدون في موقفهم هذا موقف بورجوازيتهم . واذا دخلت البورجوازية في تنافس مع الأوروبيين ، فان أصحاب الحرف وأهل المهن الصغيرة انما يبدأون الصراع ضد الافريقيين الذين ليسوا من أبناء هذه الامة . هكذا رأينا في ساحل العاج فتنا قائمة على تعصب عرقي ضد الداهوميين والفولتيين : ان الداهوميين والفولتيين الذين يحتكرون التجارة الصغيرة في قطاعات كبيرة قد قامت ضدهم ، في ساحل العاج ، غداة الاستقلال ، مظاهرات

عدائية قوية ، وصارت القومية هنالك الى تعصب قومي ، الى تعصب عرقي طالب المتظاهرون بترحيل هؤلاء الأجانب ، وحرقوا مخازنهم، وهدموا حوانيتهم الخشبية ، واعتدوا عليهم اعتداءات وحشية ، واضطرت الحكومة ان تستجيب لرغبة المواطنين فأجبرتهم على مغادرة البلاد • وفي السنغال قامت مظاهرات ضد السودانيين ، وهذه المظاهرات هي التي حملت مامادو ديا على أن يقول : « الحق ان الشعب السنغالي لم يتبين عقيدة مالي الا تعلقا منه بزعمائه ، وليس لاتحاده بمالي من قيمة غير قيمة تسليمه مرة أخرى بسياسة هؤلاء الزعماء • وظل شعور الناس بالوطن السنغالي شعورا قويا ، لا سيما ان وجود السودانيين في دكار كان يعلن عن نفسه اعلانا ليس فيه شيء من التخفي بحيث ينسى الناس اقليميتهم • وهذه الظاهرة هي السبب في أن جماهير الشعب لم يؤسفها انفراط عقد « الاتحاد » الفدرالي، بل استقبلته بارتياح، ثم لم تظهر في أي مكان اية محاولة للابقاء عليه » (١) •

وبينما كانت طبقات من الشعب السنغالي تنتهز الفرصة التي أتاحها لها القادة أنفسهم للتخلص من السودانيين الذين كانوا يضايقونهم سواء في قطاع التجارة أو في قطاع الادارة، رأينا الكونغوليين الذين شهدوا رحيل البلجيكيين عن بلادهم رحيلا جماعيا وهم لا يكادون يصدقون أعينهم ، رأينا هؤلاء الكونغوليين يضغطون على السنغاليين المقيمين في ليوبولدفيل واليزابثفيل من أجل ترحيلهم •

وهكذا نرى أن آلية هذين النوعين من الظاهرات واحدة • فلئن كان التنافس يقوم بين الأوروبيين وبين المثقفين والبورجوازية في الأمة الفتية ، فان تنافسا مثله يقوم بين جماهير الشعب المقيمة في المدن وبين افريقيين ينتمون الى أمة أخرى • وهؤلاء الافريقيون هم الداهوميون في ساحل العاج ، والنيجيريون في غانا ، والسودانيون في السنغال •

فاذا كانت مطالبة البورجوازية باسناد الوظائف الى السود أو الى العرب لا تهدف الى تأميم حقيقي ، وانما هي تهدف فقط الى جعل البورجوازية تملك السلطة التي كان يملكها الأجانب من قبل ، فان الجماهير تطالب بهذا الامر نفسه على مستواها ، ولكنها تقصر معنى الأسود أو العربي على الحدود الاقليمية • وثمة مواقف كثيرة تقع بين المناداة الحماسية بوحدة القارة الافريقية وبين هذا السلوك الذي تسلكه الجماهير بوحي من المصلحة الاقليمية •

---

١ ـ مامادو ديا، « الامم الافريقية والتضامن العالمي » ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ص ١٤٠ •

وهكذا نرى تأرجحاً دائما بين الوحدة الافريقية التي ما تنفك تضعف وتهزل ، وبين عودة يائسة الى عصبية اقليمية كريهة خانقة • قال مامادو ديا : « أما من جهة السنغال ، فان الزعماء الذين كانوا هم دعاة الوحدة الافريقية ، والذين ضحوا اكثر من مرة بمنظماتهم السياسية المحلية وبمراكزهم الشخصية في سبيل هذه العقيدة ، يتحملون مسؤوليات لا سبيل الى نكرانها ، نتيجة خطأ ارتكبوه عن حسن نية طبعا • ان خطأ هؤلاء الزعماء ، ان خطأنا ، هو أننا بحجة محاربة التجزئة نسينا واقع الاقليمية ، فلم نتنبه في تحليلاتنا انتباها كافيا الى هذه الظاهرة التي هي ثمرة الاستعمار طبعا ، ولكنها أيضا واقع اجتماعي لا يمكن ان تقضي عليه أية نظرية في الوحدة مهما تكن محمودة ومهما تكن محببة • لقد فتننا المثل الأعلى ثم ظننا المثل الأعلى واقعا واقعا ، وحسبنا أنه يكفي أن نستنكر الاقليمية وما ينشأ عنها من تعصب لقوميات صغيرة حتى ننتصر عليها وحتى نحقق الظفر لمشروعنا الخيالي » (١) •

ولن تكون المسافة كبيرة بين التعصب السنغالي وبين القبيلة الأوولوفية • والواقع أنه حيثما تعجز البورجوازية الوطنية بسلوكها الرخيص ، وبغموض مواقفها العقائدية عن تنوير مجموع الشعب ، وعن طرح المشكلات على أساس الشعب أولا وقبل كل شيء ، حيثما تعجز هذه البورجوازية الوطنية عن توسيع نظراتها الى العالم توسيعا كافيا ، نشهد انتكاسا نحو الأوضاع القبلية ، وانتصارا للانقسامات العنصرية يثير في النفس أشد الحنق • فما دام الشعار الوحيد الذي تنادي به البورجوازية هو الحلول محل الأجانب ، وما دامت تبادر فتنتصف لنفسها في جميع القطاعات وتحتل المراكز ، فان صغار الوطنيين من سائقي سيارات الأجرة وباعة الحلوى وماسحي الأحذية ، لا بد أن يطالبوا أيضا بأن يعود الداهوميون الى بلادهم ، وقد يذهبون الى أبعد من هذا فيطالبون بأن يرجع الفولتيون والبوهليون الى براريهم أو الى جبالهم •

على هذا الأساس انما يجب أن نؤول هذه الظاهرة التي نلاحظها في البلاد المستقلة الناشئة ، وهي أن النظام الفدرالي هو الذي ينتصر هنا وهناك • ان السيطرة الاستعمارية ، كما تعلمون ، قد خصت بعض المناطق بامتيازات خاصة ، فجعلت اقتصاد المستعمرة غير متكامل مع مجموع الأمة ، وانما نظمته على أساس التكامل مع اقتصاد البلاد المستعمِرة المختلفة • ان الاستعمار لا يستثمر مجموع البلاد ، وانما يكتفي باكتشاف موارد طبيعية معينة ، فيستخرجها ويصدرها الى صناعات البلاد المستعمِرة ، وبذلك يتيح لبعض المناطق شيئا من

---

١ ــ مامادو ديا المرجع المذكور •

الثراء ، بينما يبقى سائر المستعمرة على حاله من التخلف والبؤس ، وربما ازداد تخلفا وبؤسا .

حتى اذا تحقق الاستقلال كان الوطنيون الذين يقطنون في المناطق المزدهرة يشعرون بما أوتوا من حظ ، فاذا هم بمنعكس لا أثر للتفكير فيه ، يرفضون أن يطعموا الوطنيين الآخرين الذين يعيشون في المناطق البائسة . ان المناطق الغنية بالأراشيد والكاكاو والألماس تبرز بروزا ظاهرا على تلك الصفحة الخالية الخاوية التي يتألف منها سائر الأمة . ويشعر الوطنيون في هذه المناطق بكره نحو الآخرين ، ويصفونهم بأنهم أناس حاسدون وحاقدون شرهون ميالون الى الجريمة والقتل . وتنبعث الحزازات القديمة ، وتنتعش الأحقاد القبلية . ان قبائل البالوبا ترفض أن تطعم قبائل اللولوا ، واقليم كاتانجا يعلن أنه دولة مستقلة ، ألبير كالونجي يتوج نفسه ملكا علىجنوبي كاساي .

ان الوحدة الافريقية ، هذا الشعار الغامض « ولكنه الشعار الذي تعلقت به قلوب الرجال والنساء بأفريقيا تعلقا حماسيا قويا ، وكان يضغط على الاستعمار ضغطا هائلا » يكشف الآن عن وجه آخر ، فاذا هو عصبيات أقليمية في داخل واقع قومي واحد . فالبورجوازية الوطنية ، لأنها منكمشة على مصالحها المباشرة ولأنها لا تنظر الى أبعد من أطراف أظافرها ، تتكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية ، عاجزة عن بناء الأمة على أسس وطيدة خصبة مثمرة . ان الجبهة الوطنية التي طردت الاستعمار تتفتت الآن وتنهزم .

وهذا الصراع القومي الذي يقوم بينالقبائل، هذا الحرصالعنيف على احتلال المراكز التي أصبحت شاغرة برحيل الأجنبي ، سيولّدان أيضا تنافسات دينية . ففي الأرياف والبراري نجد الطوائف الدينية الصغيرة ، والأديان المحلية ، وجماعات الطرق الصوفية ، تستعيد نشاطها وحيويتها وتستأنف لجوءها الى تكفير غيرها . وفي المدن الكبرى ، على مستوى الوظائف الادارية ، نجد صراعا يقوم بين الديانتين المنزلتين الكبريين : الاسلام والكاثوليكية .

ان الاستعمار الذي ترنحت قواعده أمام نشوء فكرة الوحدة الافريقية يسترد الآن آماله ، ويحاول أن يحطم هذه الارادة ، مستعملا جميع مواطن الضعف في هذه الحركة ، فهو يعبىء الشعوب الافريقية كاشفا لها عن وجود خصومات « روحية » ، ففي السنغال تصدر جريدة « افريقيا الجديدة » كل أسبوع لتعبر عن كره أصفر نحو الاسلام والعرب ، وتستعدي الشعور القومي

على اللبنانيين الذين يملكون في الساحل الغربي القسم الأكبر من التجارة الصغيرة • وتحض على الانتقام منهم • ورجال البعثات التبشيرية ما يفتأون يذكرون للجماهير ان الغزو العربي ، قبل وصول الاستعمار الغربي بكثير، قد خطم أمبراطوريات زنجية كبرى • ولا يترددون عن القول ان الاحتـــلال العربي هو الذي مهّد للاستعمار الغربي • وهم يتحدثون عن استعمار عربي ، ويندون بالاستعمار الثقافي الذي يمارسه الاسلام • والمسلمون يقصَون عن المراكز التوجيهية • وفي مناطق أخرى تلاحظ عكس هذه الظاهرة ، فالسكان الذين اعتنقوا المسيحية هم الذين يعدون هنالك أعداء الاستقـــلال القومي عامدين واعين •

ان الاستعمار يحرك هذه الأسلاك كلها بدون خشية ولا حياء ، سعيدا كل السعادة بأنه يثير الافريقيين بعضهم على بعض بعد أن اتحدوا بالأمس ضده • وتبرز في بعض الاذهان فكرة مذبحة دينية على نوع مذبحـــة سان بارتلمي ، ويضحك الاستعمار ساخرا في هدوء حين يسمع بعدئذ تلـــك التصريحات الفخمة التي تتحدث عن الوحدة الافريقية • لقد أخذ الدين ، في نطاق أمة واحدة ، يجزىء الشعب ويثير الطوائف الدينية بعضها على بعض ، والاستعمار وأجهزته من وراء ذلك تغذيه وتقويه • وتنفجر هنا وهناك أحداث لم تكن في الحسبان • ففي بلاد تهيمن عليها الكاثوليكية أو البروتستانتيـة نرى الأقليات الاسلامية تظهر تمسكا بأهداب الدين لم يكن مألوفا من قبل ، ونرى الأعياد الاسلامية تنشط وتقوى ، فالمسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد التعصب المتطرف المعهود في الكاثوليك • ونسمع وزراء يخاطبون بعض الأفراد بقولهم : اذا كنتم غير راضين فما عليكم الا ان تذهبوا الى القاهرة • وقد تحمل البروتستانتية الاميركية الى الأرض الافريقية تعصبها ضد الكاثوليك ، فتثير بواسطة الدين خصومات قبلية •

وعلى مستوى القارة الافريقية يمكن أن يتخذ هذا التوتر الديني وجهـا بغيضا رخيصا • فتراهم يقسمون افريقيا قسمين : قسما أبيض وقسمـــا أسود ، حتى إذا استبدلوا بهذه التسمية تسمية أخرى فقالوا : افريقية جنوب الصحارى وافريقية شمال الصحارى ، ولم تخف هذه التسمية الجديـــدة ما وراءها من تعصب عرقي • فهنا يزعمون ان لافريقيا البيضاء حضارة عريقـــة ترجع الى ألوف السنين ، وانها تنتمي الى حوض البحر الأبيض المتوســط ، وانها امتداد لأوروبا ، وانها تشارك في الحضارة الاغريقية اللاتينية ، في حين أن افريقيا السوداء منطقة جامدة ، بدائية غير متحضرة •• متوحشة • وهناك ما ينفكون يتحدثون حديثا بغيضا كريها عن تحجب النساء عند العرب ، وعن

تعدد الزوجات عند العرب ، يزعمون ان العرب يحتقرون المرأة ٠ ان هــذه الاحاديث يذكّر تهجمها بالأحاديث التي طالما دارت بها ألسنــة المستعمرين ٠ ان البورجوازية الوطنية في كل منطقة من هاتين المنطقتين الكبيرتين ، هذه البورجوازية التي تشرّبت أحقر مبادىء التفكير الاستعماري تحمل العبء عن الأوروبيين ، وتنوب عنهم في ترسيخ فلسفة عرقية تستشري في القارة وتحمل الى مستقبل القارة أشد الأذى ٠ ان هذه البورجوازية ، بكسلها وتقليدهـا الأعمى تشجع وتعزز غرس التعصب العرقي الذي كان يتميز بــه العهــد الاستعماري ٠ لذلك يجب أن لا يدهشنا ان نسمع في بلد يسمي نفسه افريقيا افكارا أقل ما توصف به هو أنها أفكار عرقية ، وأن نرى تصرفات تفرق بين الناس في القيمة ، حتى ليحس المرء في البلد الافريقي بأنــه في باريـز أو بروكسل أو لندن شاعرا بكثير من المرارة ٠

بل اننا لنرى تلك الفكرة الجارحة التي تفرق بين الناس في القيمة ، تلك الفكرة المأخوذة عن الثقافة الغربية ، القائلة بأن الأسود لا يمكن أن ينفذ المنطق الى عقله ولا يمكن أن يفهم العلوم ، تتجلى عارية كل العري مسيطرة كل السيطرة في بعض مناطق افريقيا ٠ حتى لقد يتاح لنا ان نرى الاقليات السوداء تعامَل هنالك معاملة أشباه العبيد ، وهو أمر يبرر ما تشعر به بلدان افريقيا السوداء من تحفظ بل ومن حذر وسوء ظن ٠ ليس نادرا أن يقــع لمواطن من افريقيا السوداء حين يتنزه في مدينة من مدن افريقيا البيضاء ، ان يسمع أطفالا ينادونه « زنجي » ، أو أن يسمع موظفين يسمونه « عبدا » ٠

لا وليس مستبعدا ، وا أسفاه ، أن يقع لطلاب من افريقيا السوداء في كليات بافريقية شمال الصحارى أن يسألهم رفاقهم في المدرسة : هــل في بلادكم بيوت ، هل تعرفون الكهرباء ، هل يأكل أهلكم لحوم البشر ؟ لا وليس مستبعدا وا أسفاه أن نرى في بعض مناطق الشمال افريقيين آتين من الجنوب يبتهلون الى وطنيين أن يأخذوهم « الى أي مكان ، ولكن مع زنوج » ٠ وكذلك نرى ، في بعض الدول الناشئة بافريقيا السوداء ، رجالا من أعضاء المجالس النيابية بل ومن الوزراء ، يقولون غير ضاحكين : ليس الخطر أن يعــود الاستعمار الى احتلال بلادهم ، بل الخطر ان يغزوهم « عرب الشمال » ٠

وهكذا ترون أن افلاس البورجوازية لا يتجلى في الصعيد الاقتصــادي فحسب ٠ ان البورجوازية ، وقد وصلت الى السلطة باسم قومية ضيقة ، باسم العرق ، رغم تصريحات جميلة جدا من ناحية الشكل ، ولكنها تصريحــات فارغة كل الفراغ من ناحية المضمون ، تصريحات تستعمل على غير شعــور

بالمسؤولية جملا مستمدة رأسا من كتب الأخلاق او الفلسفة السياسية التي تصدرها مطابع اوروبا ، ان هذه البورجوازية تبرهن على عجزها عن تحقيق النصر لحد أدنى من العقيدة الانسانية • ان البورجوازية حين تكون قوية وحين تنظم العالم على أساس سلطتها لا تتردد عن تأكيد أفكار ديموقراطية تساوي بين البشر ، ولا بد لهذه البورجوازية ، القوية اقتصاديا ، من ظروف استثنائية حتى تضطر الى الخروج على نظريتها الانسانية هذه• والبورجوازية الغربية تتوصل في أكثر الأحيان ، رغم أنها في حقيقة أمرها عرقية ، الى اخفاء هذه العرقية بأقنعة كثيرة تتيح لها الابقاء على مناداتها المعروفة بالكرامة الانسانية • لقد هيأت البورجوازية الغربية عددا كافيا من الحواجز والسدود حتى لا تخاف حقا من منافسة هؤلاء الذين تستغلهم وتحتقرهم • ان التعصب العرقي البورجوازي الغربي تجاه الزنجي انما هو تعصب احتقار ، وتعصب استهانة • ولكن النظرية البورجوازية التي تنادي بأن البشر متساوون في جوهرهم ، تحتال على الأمر من أجل أن تظل منطقية مع نفسها ، فتدعو هؤلاء البشر المتخلفين الى أن يصبحوا بشرا أسوياء من خلال النموذج الانساني الغربي الذي تجسده •

أما التعصب العرقي لدى البورجوازية الوطنية في البلاد المستعمَرة فهو تعصب دفاعي ، تعصب قائم على الخوف • انه لا يختلف في جوهره عن القبلية الرخيصة بل لا يختلف عن الخصومات بين الفرق الصوفية أو الجماعات الدينية • لذلك رأينا المراقبين الدوليين الأذكياء لا يأخذون مأخذ الجد تلك النداءات الحماسية التي تدعو الى الوحدة الافريقية • فالصدوع التي يرونها بأم أعينهن تجعلهم يشعرون شعورا واضحا بأنه لا بد من أن تنحل جميع هذه التناقضات قبل أن يأتي أوان الوحدة •

ان الشعوب الافريقية قد اكتشفت نفسها مؤخرا ، وقررت باسم القارة الافريقية كلها أن تحطم النظام الاستعماري • ولكن البورجوازيات الوطنية التي تسارع ، اقليما بعد اقليم ، الى تشييد كيانها الخاص ، والى اقامة نظام وطني استغلالي ، تنشىء الحواجز تلو الحواجز من أجل الحيلولة دون تحقيق هذا « الحلم »• ان البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المنسق الذي يقوم به مائتان وخمسون مليونا من البشر في سبيل الانتصار على الحيوانية والجوع واللاانسانية• لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة الافريقية لا يمكن ان تتحقق الا باندفاع الشعوب وبقيادة الشعوب ، اي رغم أنف البورجوازية ومصالحها •

وعلى الصعيد الداخلي ، في الاطار الدستوري ، نجد البورجوازية تبرهن على عجزها أيضا ، ففي عدد من البلدان المتخلفة نرى النظام البرلماني فاسدا فسادا عميقا . ان البورجوازية الوطنية وهي ضعيفة اقتصاديا ، وعاجزة عن اقامة علاقات اجتماعية متسقة قائمة على مبدأ سيطرتها كطبقة ، تختار الحل الذي يتراءى لها أنه أسهل الحلول ، أعني نظام الحزب الواحد . انها لا تملك راحة البال والطمأنينة اللتين لا يمكن ان تؤمنهما لها الا القوة الاقتصادية والهيمنة على نظام الدولة . انها لا تخلق دولة تطمئن المواطن بل تقيم دولة تبث القلق في نفس المواطن .

ان الدولة التي تؤهلها متانتها ويؤهلها تخفيها في الوقت نفسه، لأن تهب للناس الثقة ، وان تفل سلاحهم وان تنميهم ، تصبح هنا دولة تفرض نفسها فرضا صارخا ، وتعرض قواها ، وتضرب وتقسو ، وتفهم المواطن بذلك انه في خطر دائم . ان نظام الحزب الواحد هو الشكل الحديث للدكتاتورية البورجوازية التي لا تتقنع ولا تتزين ولا يزعها وازع ولا يردعها حياء .

وهذه الدكتاتورية لا تعمر طويلا . ذلك واقع . ان هذه الدكتاتورية ما تنفك تولد تناقضها ذاته . اذ لما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل الاقتصادية لضمان سيطرتها وتوزيع شيء من الفتات على مجموع البلاد، ولما كانت من جهة أخرى مشغولة بملء جيوبها بأقصى سرعة ممكنة ، وبأتفه طريقة ممكنة أيضا ، فان البلاد تزداد ركودا وجمودا . ومن أجل أن تخفي البورجوازية هذا الركود ، ومن أجل أن تقنّع هذا التراجع ، ومن أجل أن تطمئن نفسها ، من أجل أن تهيىء لنفسها أسباب الزهو والافتخار ، تراها لا تجد سبيلا الى ذلك كله غير ان تبني في العاصمة أبنية ضخمة فخمة ، وأن تعمد الى ما يسمى بنفقات الهيبة .

وشيئا فشيئا تزداد البورجوازية اهمالا للداخل ، وتزداد اهمالا لواقع البلاد البور ، وتأخذ تنظر الى البلد الأوروبي الذي كان يستعمرها ، تأخذ تنظر الى الرأسماليين الأجانب الذين يضمنون ان تقدم لهم خدماتها . ولما كانت لا تقتسم أرباحها مع الشعب ، ولا تتيح له أبدا أن يستفيد من المغانم التي تصبها عليها الشركات الأجنبية الكبرى ، فانها سرعان ما تكتشف ضرورة وجود زعيم شعبي تقع على عاتقه مهمة مزدوجة هي ضمان استقرار العهد القائم وضمان استمرار سيطرة البورجوازية في آن واحد . فالدكتاتورية البورجوازية في البلاد المتخلفة انما تستمد متانتها من وجود زعيم . ان البورجوازية الدكتاتورية في البلاد المتطورة هي كما تعلمون نتيجة القوة الاقتصادية التي تتمتع بها البورجوازية . أما في البلاد المتخلفة فان الزعيم هو القوة المعنوية التي تريد البورجوازية ، الهزيلة الفقيرة ، ان تغتني في ظلها وتحت حمايتها .

والشعب الذي ظل خلال سنين طويلة يرى الزعيم ويسمع خطبه ، ويتابع من بعيد ، وهو فيما يشبه الحلم ، ما يقوم بين الزعيم وبين السلطة الاستعمارية من مشاجرات ، يمحض هذا الزعيم ثقة من تلقاء نفسه • لقد كان الزعيم قبل الاستقلال يجسّد آمال الشعب بوجه عام : الاستقلال ، الحريات السياسية ، العزة القومية • ولكنه بعد الاستقلال ، بدلا من أن يجسّد حاجات الشعب تجسيدا محسوسا ، وبدلا من أن يكون رائد العزة القومية الحقيقية ، العزة القومية التي تمر بالخبز والأرض واعادة البلاد الى أيدي الشعب المقدسة ، تراه يكشف عن وظيفته الصميمة ألا وهي أن يكون الرئيس العام لشركة المنتفعين المسرعين الى التمتع ، أعني البورجوازية الوطنية •

ان الزعيم ، رغم أنه كثيرا ما يكون شريفا ، وكثيرا ما يقول أقوالا صادقة ، انما هو من الناحية الموضوعية المدافع المتحمس عن مصالح أصبحت اليوم مترابطة ، هي مصالح البورجوازية الوطنية ومصالح الشركات الاستعمارية السابقة • أضف الى ذلك أن شرفه وصدقه ما يلبثان أن يأخذا بالتفتت شيئا بعد شيء • ذلك أن اتصاله بالشعب اتصال غير واقعي ، فسرعان ما يقتنع ان الشعب أصبح متنكرا لسلطته ، وأن الناس أخذوا يشكون في الخدمات التي قدمها لوطنه • ويقسو الزعيم قسوة شديدة في الحكم على هذه الجماهير التي لا تعترف بالجميل ، وما ينفك ينحاز يوما بعد يوم الى معسكر المستغلين ، ثم ينقلب انقلابا واعيا الى شريك للبورجوازية الناشئة التي تتخبط في أحضان الفساد واللذة •

وتنحدر الحياة الاقتصادية للدولة الفتية نحو بنيان الاستعمار الجديد • لقد كان الاقتصاد القومي محميا ، فأصبح اقتصادا موجها • والميزانية تغذيها قروض وهبات • ورؤساء الدولة أو الوفود الوزارية تزور كل بضعة أشهر العواصم الأوروبية التي كانت مستعمِرة أو غيرها من البلدان تطلب المال •

والدولة التي كانت مستعمِرة تضاعف الآن مطاليبها وشروطها ، وتطلب مزيدا من التنازلات والضمانات ، ولا تقوم بما كانت تقوم به قبل ذلك من احتياطات لاخفاء سيطرتها على السلطة الوطنية • ويركد الشعب ركودا محزنا على بؤس لا يطاق ، ويدرك ادراكا بطيئا تلك الخيانة التي يرتكبها قادته ، والتي لايمكن أن تسمى باسم • وتقوى حدة هذا الشعور لدى الشعب على قدر عجز البورجوازية عن تكوين نفسها كطبقة • فاذا تنظيمها لتوزيع الثروات لا يجعل هذا التوزيع متدرجا على طبقات ، وانما يحصر الثروة في أيدي فئة محتكرة • وهذه الفئة المحتكرة الجديدة تبعث على الشعور بالمهانة ، وتثير

المحنق والتمرد ، خاصة وأن الأكثرية الساحقة من السكان ، وهي تشكل نسعة أعشار السكان ، ما تزال تموت جوعا • ان هذا الاثراء الفاضح السريع الذي لا يرحم ، هذا الاثراء الذي تحققه لنفسها الفئة المحتكرة ، يوقظ الشعب ايقاظا حاسما • ويتصور الشعب عندئذ أنه لا بد من غد عنيف يحمل اليه الفرج ويعده بالخير • وهذه الفئة البورجوازية المحتكرة ، هذا الجزء من الشعب الذي يستأثر بمجموع ثروات البلاد ، ينتهي ، بمنطق مفهوم وان يكن غير متوقع ، الى أن يرى في سائر الزنوج أو في سائر العرب آراء تحط من قيمتهم ، وتذكّر من عدة وجوه بالنظرية العرقية التي كان يدين بها ممثلو الدولة المستعمرة • فهذا البؤس الذي يعانيه الشعب،وهذا الاثراء الفوضوي الذي تحققه الفئة البورجوازية المحتكرة ، وهذا الاحتقار العلني الذي تشعر به هذه الفئة نحو سائر الأمة ، هذا كله هو الذي سيعمق الآراء ويقوي الاتجاهات •

غير أن هذه الأخطار التي تلوح في الأفق ، تؤدي الى تشديد السلطة وظهور الدكتاتورية • فالزعيم الذي يجر وراءه حياة مناضل جريء وطني مخلص هو حاجز يقوم بين الشعب وبين البورجوازية الجشعة ، لأنه يحمي أعمال هذه الفئة ، ويغمض عينيه عن وقاحة هؤلاء البورجوازيين وحقارتهم ومجافاتهم للأخلاق • ان الزعيم يساهم في لجم وعي الشعب• انه يهب الى نجدة الفئة المحتكرة ، ويخفي عن الشعب مناوراتها ، ويصبح بذلك من أشد العاملين حماسة في تضليل الجماهير وتخديرها • انه كلما خاطب الشعب ذكّره بحياته وهي حياة بطولية في كثير من الأحيان ، وذكّره بالمعارك التي خاضها باسم الشعب ، وبالانتصارات التي حققها باسم الشعب ، مشيرا بذلك الى ان على الجماهير أن تستمر في محضه ثقتها • ما أكثر الأمثلة على أولئك الوطنيين الافريقيين الذين أدخلوا على السياسة النضالية المتحفظة التي كان يتبعها سابقوهم أسلوبا حاسما قوميا ! ان هؤلاء الرجال قد جاءوا من الأرياف وكانوا يتكلمون باسم الزنوج ، وكان ذلك مثار دهشة المستعمر المتسلط ، ومثار خجل الوطنيين المقيمين بالعاصمة ! ان هؤلاء الرجال يصبحون اليوم ـ وا أسفاه ! ـ على رأس فئة من الناس تدير ظهرها للأرياف ، وتعلن أن رسالة الشعب هي أن يكون تابعا، وان يظل تابعا •

ان الزعيم يهدىء الشعب • انه لعجزه عن دعوة الشعب الى أعمال محسوسة ملموسة ، لعجزه عن أن يفتح للشعب باب المستقبل حقا ، وأن يدفع الشعب في طريق بناء الأمة ، وبالتالي في طريق بناء نفسه ، يظل سنين

طويلة لا يزيد على أن يجتر تاريخ الحصول على الاستقلال ، وعلى ان يذكّر بالوحدة المقدسة التي رافقت نضال التحرير . ان الزعيم لرفضه تحطيم البورجوازية الوطنية ، يطلب الى الشعب ان ينكفىء الى الماضي وأن يسكر بذكرى الملحمة التي أدت الى الاستقلال . وفي وسعنا أن نقول ان الزعيم يوقف سير الشعب ـ موضوعيا ـ ويعمل جاهدا اما على طرده من التاريخ واما على منعه من دخول التاريخ . لقد كان الزعيم أثناء كفاح التحرير يوقظ الشعب ويعِده بزحف بطولي جذري . أما اليوم فهو يضاعف جهوده من أجل تخدير الشعب وتنويمه ، ويذكّره ثلاث مرات أو أربعا كلّ عام بعهد الاستعمار طالبا أن يقدّر الطريق الطويل الذي قطعته البلاد .

ولكن يجب أن نعترف بأن الجماهير تعجز عجزا كاملا عن تقدير الطريق الطويل المقطوع . ان الفلاح الذي ما يزال يجهد في الأرض ، والعاطل الذي ما يزال عاطلا ، لا يستطيعان رغم الاحتفالات ورغم الأعلام الجديدة أن يقتنعا بأن شيئا في حياتهما قدتغير حقا . ومهما تكثر البورجوازية الحاكمة من التظاهرات ، فان الجماهير تظل عاجزة عن أن تؤخذ بالأوهام . الجماهير ما تزال جائعة ، ومفوضو الشرطة الذين أصبحوا الآن افريقيين بعد ان كانوا أوروبيين لا يطمئنون هذه الجماهير كثيرا . وتأخذ الجماهير بالحرون والاشاحة ببصرها وعدم الاكتراث بهذه الأمة التي لا تفسحلها أي مجال ولا تخلق لها أي مكان .

وأثناء ذلك يعبىء الزعيم قواه من حين الى حين ، فيتحدث في الراديو ، ويقوم بجولة لتهدئة الخواطر وتضليل العقول . والزعيم ضروري خاصة حين لا يكون ثمة حزب . لقد كان هناك حزب يقوده هذا الزعيم نفسه أثناء مرحلة الكفاح في سبيل التحرير . ولكن هذا الحزب قد تحلل بعد ذلك ، ولم يبق منه الا الشكل والاسم والرمز . ان الحزب المنظم الذي كان يتيح سريان فكرة تكونت على أساس الحاجات الحقيقية للجماهير ، قد استحال الآن الى نقابة لضمان مصالحأفراد . لقد أصبحالحزب منذ الاستقلاللا يساعد الشعب في التعبير عن مطالبه ، وفي وعي حاجاته مزيدا من الوعي وفي توطيد قوته مزيدا من التوطيد . لقد أصبحت وظيفة الحزب الآن هي أن يوصل الى الشعب التعليمات الآتية من القمة . وزال ذلك الذهاب والاياب من القاعدة الى القمة ومن القمة الىالقاعدة ، زال ذلك التواصل الخصب الذي هو أساس الأحزاب وضمانة ديموقراطيتها . ان ما بقي من الحزب هو نقيض ذلك تماما : لقد

اصبح الحزب حاجزا بين الجماهير وبين القيادة · أصبح الحزب بغير حياة · ان الخلايا الحزبية التي نظمت في عهد الاستعمار قد سرحت الآن من الخدمة تسريحا كاملا ·

ويقضم الجاهل لجامه · ويدرك الناس صواب المواقف التي اتخذها بعض المناضلين أثناء كفاح التحرير · ان كثيرا من المناضلين قد طلبوا من أجهزة القيادة ابان المعركة ان تنشيء عقيدة، وان توضح أهدافا معينة، وان تضع برنامجا · ولكن القادة رفضوا يومئذ رفضا باتا ان يواجهوا هذه المهمة، بحجة المحافظة على الوحدة الوطنية · كانوا يرددون قولهم : عقيدتنا هي الوحدة الوطنية ضد الاستعمار · وكانوا بتسلحهم بهذا الشعار القوي الذي اتخذوه عقيدة، وبقصرهم النشاط العقائدي على أقوال شتى عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، يمضون مع تيار التاريخ الذي لا بد أن يعصف بالاستعمار، وان يطوح به · حتى اذا طالبهم المناضلون بأن يحللوا تيار التاريخ هذا مزيدا من التحليل جابهوهم بقولهم : ان الاستعمار صائر الى زوال لا محالة ··

ويجيء الاستقلال، ويوشك الحزب أن يصبح جثة هامدة · انهم الآن لا يعبئون اعضاء الحزب الا لمظاهرات يسمونها شعبية، وللمؤتمرات دولية ولاحتفالات بأعياد الاستقلال · ان القيادات الحزبية المحلية قد عينت بوظائف ادارية، والحزب استحال الى دائرة حكومية، وعاد الحزبيون الى أماكنهم يحملون هذا الاسم الأجوف : مواطن ·

انهم بعد أن قاموا بمهمتهم التاريخية، وهي ايصال البورجوازية الى سدة الحكم، مدعوون بقوة الى الانسحاب، حتى يتيحوا للبورجوازية أن تقوم برسالتها الخاصة في جو هادىء · ولكن البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عاجزة، كما رأينا ذلك، عن تحقيق أية رسالة · وما هي الا بضع سنين حتى يصبح تحلل الحزب واضحا لكل عين، ويدرك كل مراقب عندئذ، ولو كان سطحيا، أن الحزب القديم الذي أصبح الآن هيكلا عظيما، لا يفيد الا في تجميد الشعب · ان الحزب الذي جذب اليه أثناء معركة الكفاح مجموع الأمة يتحلل الآن · والمثقفون الذين انضموا الى الحزب غداة الاستقلال يؤكدون بسلوكهم أن انضمامهم ذاك لم يكن له من هدف الا الاشتراك في المائدة التي جاء بها الاستقلال · لقد أصبح الحزب وسيلة نجاح فردي ·

على ان هنالك تفاوتا في الاثراء والاحتكار في داخل العهد الجديد ·

فبعض الأفراد يأكلون على عدة موائد ، ويظهرون في مجال الانتهازية مقدرة فائقة واختصارا باهرا • وتتكاثر الامتيازات ، وتنتصر الرشوة ويعم الفساد وتنهار الأخلاق • لقد أصبحت الغربان أكثر عددا وأشد شراهة من ان تكفيها المغانم الوطنية الهزيلة • والحزب الذي أصبح أداة للسلطة في أيدي البورجوازية ، يقوّي جهاز الدولة ويجمّد الشعب ، وما ينفك يصبح اداة قمع وعدوا للديموقراطية • لقد أصبح الحزب شريكا للبورجوازية المتاجرة ، عن غير وعي وعن وعي • وكما تنسحب البورجوازية من مرحلة البناء وتغوص في حمأة الملذات ، كذلك هي على الصعيد الدستوري تقفز فوق المرحلة البرلمانية وتختار دكتاتورية من النوع الفاشستي • وأننا نعلم اليوم أن تلك الفاشستية الصغيرة التي انتصرت في أمريكا اللاتينية خلال نصف قرن ان هي الا ثمرة منطقية لقيام دولة شبه استعمارية في عهد الاستقلال •

ففي هذه البلاد الفقيرة المتخلفة ، التي نرى فيها ، وفقا للقاعدة ، أكبر ثراء يتاخم أبأس فقر ، يكون الجيش والشرطة أعمدة النظام القائم ، وهما جيش وشرطة يشرف على توجيهما خبراء أجانب ، وهذه قاعدة أخرى يجب ان نتذكرها • وتكون قوة هذه الشرطة وسلطة هذا الجيش متناسبتين مع حالة الركود التي يعيش فيها سائر الأمة • ان البورجوازية الوطنية تبيع نفسها للشركات الأجنبية الكبرى بصراحة ما تنفك تزداد • وبالرشوة ينتزع الأجنبي الامتيازات تلو الامتيازات ، وتتكاثر الفضائح ، ويغتني الوزراء وتستحيل نساؤهم الى دمى ، ويدبر النواب أمورهم أيضا ، ولا يبقى شرطي ولا موظف من موظفي الجمرك الا ويشارك في هذه القافلة من الرشوة والفسود •

ويزداد تهجم المعارضة ، ويدرك الشعب دعايتها بنصف كلمة• وتبرز معاداة البورجوازية •ان البورجوازية الفتية التي دلفت الى الشيخوخة وهي في ريعان الشباب لا تقيم وزنا للنصائح التي تبذل لها ، وتبدو عاجزة عن ان تفهم ان من مصلحتها ان تحجّب استغلالها ولو بغلالة رقيقة •

ان جريدة مسيحية جدا ، جريدة « الأسبوع الأفريقي » ، هي التي كتبت تخاطب أمراء العهد القائم بقولها : « يا أيها الرجال الذين تحتلون المراكز ، وأنتن يا نساءهم ، انكم تتمتعون الآن بالثراء والرخاء ، وربما كنتم تنعمون ايضا بالتعليم والثقافة ، كما تنعمون بمنزلكم الجميل ، وبعلاقاتكم الاجتماعية ، وبالمهمات التي تسند اليكم فتفتح لكم آفاقا جديدة • ولكن ثراءكم يعصب أعينكم فيحول بينكم وبين رؤية البؤس الذي يحيط بكم • ألا فاحذروا

العواقب » • ولعل القارىء يدرك ان هذا التحذير الذي توجهه جريدة «الاسبوع الأفريقي » الى اعوان السيد « يوليو » لا يشتمل على أي روح ثورية ، فانما الأمر الذي تريد جريدة « الأسبوع الأفريقي » أن توصله الى اسماع مجوَّعي الشعب الكونغولي هو أن الله سيعاقبهم على سلوكهم هذا : « اذا لم يكن في قلوبكم مكان للعطف على هؤلاء الناس الذين هم دونكم ، فلن يكون لكم في بيت الله مكان » •

واضح ان البورجوازية الوطنية لا تهتم كثيرا بهذه الاتهامات • انها ، وهي معلقة بأوروبا ، تظل مصممة تصميما قويا على انتهاز الفرصة • والأرباح التي تجنيها من استغلال الشعب ما تلبث ان تصدِّرها الى الخارج • ان البورجوازية الوطنية الفتية كثيرا ما يكون سوء ظنها بالنظام الذي أقامته أشد من سوء ظن الشركات الأجنبية به • فهي تأبى ان تستثمر أموالها في الوطن ، وتتصرف تجاه الدولة التي تحميها وتغذيها تصرفا يتصف بنكران الجميل ، وهو أمر واضح يجب ان تشير اليه • انها تشتري سندات مالية من أوروبا ، وتمضي الى باريس أو هامبورغ لقضاء عطلة الاسبوع • ان سلوك البورجوازية الوطنية في بعض البلدان المتخلفة أشبه بسلوك أفراد عصابة من اللصوص ، ما ان يفرغوا من القيام بعملية من العمليات حتى يخفوا مرابحهم عن شركائهم ، ويستعدوا للانسحاب في حكمة وتعقل • وهذا السلوك يدل على أن البورجوازية الوطنية تشعر قليلا أو كثيرا أن لعبتها خاسرة على المدى الطويل • انها تدرك ان هذا الوضع لن يدوم الى غير نهاية ، ولكنها تريد ان تستفيد منه الى أقصى حد ممكن من الاستفادة • غير ان هذا الاستغلال وهذا الظن السيىء بالدولة لا بد ان يثير الاستياء في صفوف الجماهير • وفي هذه الظروف انما يتصلب النظام القائم ويقسو ، ويصبح الجيش سندا لا بد منه للقيام بأعمال قمع منظم • فالجيش يصبح هو الحكم وهو المرجع ، لأنه ليس ثمة مجلس نيابي • ولكن الجيش يكتشف عاجلا أو آجلا أهميته ، ويصبح خطرا يهدد البورجوازية في كل لحظة بانقضاضه على الحكم •

وهكذا نرى ان البورجوازية الوطنية في بعض البلاد المتخلفة لم تتعلم من الكتب شيئا • فلو انها أمعنت النظر في بلدان أميركا اللاتينية، لأدركت الأخطار التي تتربص بها : ونخلص اذن الى هذه النتيجة : ان هذه البورجوازية الصغيرة التي تحدث كثيرا من الضجيج مآلها الى التحرك وهي في مكانها • ذلك ان المرحلة البورجوازية مستحيلة في البلاد المتخلفة • فقد تنشأ دكتاتورية

بوليسية ، وقد تنشأ فئة من المنتفعين ، ولكن قيام مجتمع بورجوازي أمر مخفق لا محالة • ان فئة المنتفعين ، الذين ينتزعون لأنفسهم أموالا طائلة من رزق البلاد ، لا بد ان يروا أنفسهم ، عاجلا ، أو آجلا ، كقشة بين يدي الجيش الذي يحركه خبراؤه الأجانب في مهارة• وهكذا نرى العاصمة الاوروبية التي كانت مستعمرة تحكم البلاد حكما غير مباشر ، بواسطة البورجوازيين الذين تغذيهم وبواسطة الجيش الوطني الذي ينظمه خبراؤها والذي يجمد الشعب ويرهبه •

هذه الملاحظات التي سقناها بصدد البورجوازية الوطنية تقودنا الى نتيجة يجب ألا تدهشنا : في البلاد المتخلفة يجب ان لا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والازدهار • وبتعبير آخر : يجب أن ينصب الجهد المتعاون المنسق الذي تقوم به الجماهير المنظمة في حزب ، ويقوم به المثقفون الواعون وعيا رفيعا والمسلحون بمبادىء ثورية ، يجب أن ينصب هذا الجهد على سد الطريق أمام قيام هذه البوجوازية العقيمة الضارة •

ان المسألة النظرية التي تطرح منذ خمسين عاما حين يعالج تاريخ البلاد المتخلفة ، أعني : هل يجب الوثب فوق المرحلة البورجوازية أم لا ، هذه المسألة يجب حلها على صعيد النضال الثوري لا بواسطة الاستدلال النظري • ان المرحلة البورجوازية في البلاد المتخلفة لا تكون مبررة الا اذا كانت البورجوازية الوطنية تملك من القوة الاقتصادية والتكنيكية ما يكفي لبناء مجتمع بورجوازي ، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة ، لتصنيع الزراعة• ، وأخيرا لقيام ثقافة وطنية أصيلة •

ان بورجوازية كالبورجوازية التي نشأت في أوروبا قد استطاعت أن تضع ايديولوجيا ، مع تعزيزها لقوتها الخاصة • ان تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتغلمة العلمانية ، قد نجحت نجاحا كبيرا في مهمة جمع الرساميل ، وأعطت الشعب حدا أدنى من الرخاء • أما في البلاد المتخلفة ، فقد رأينا أنه ليس هناك بورجوازية حقيقية ، بل فئة محتكرة طويلة الأنياب نهمة شرهة تسيطر عليها فكرة الربح التافه وتتمتع بحصص من المنافع تخصها بها الدولة المستعمرة القديمة • وهذه البورجوازية الرخيصة عاجزة عن تمثل أفكار كبرى ، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار • انها تتذكر ما قرأته في الكتب المدرسية الغربية ، فاذا هي تستحيل شيئا فشيئا لا الى نسخة عن أوروبا ، بل الى كاريكاتور لأوروبا •

أن النضال ضد بورجوازية البلدان المتخلفة ليس موقفا نظريا • ليس الامر هاهنا أمر ادانة مستمدة من حكم التاريخ • يجب علينا ان لا نكافح البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة على أساس أنها قد تعوق نمو الامه نموا شاملا منسجما ، وأنما يجب علينا ان نعارضها معارضة قاطعة لانها في حقيقة الامر لا تقوم بأي دور وليس لها آية فائدة • ان هذه البورجوازية التافهة في أرباحها وفي أعمالها وفي فكرها تحاول ان تحجب هذه التفاهة بأقنعة شتى : بأبنية فخمة على المستوى الفردي ، بسيارات أمريكية غنية بالكروم ، باجازات تقضيها على شواطيء الريفييرا ، بعطل أسبوعية في الكباريهات المتوهجة بأضواء النيون • ذلك كل شأنها •

ان هذه البورجوازية التي تزداد تحولا عن الشعب برمته يوما بعد يوم لا تظفر حتى بحمل الغرب على تقديم بعض التنازلات : كتوظيف رؤوس اموال تهم اقتصاد البلاد ، أو كاقامة بعض الصناعات • وفي مقابل ذلك نرى مصانع التجميع تزداد وتتكاثر، معززة نموذج « الاستعمار الجديد » الذي يتخبط فيه الاقتصاد القومي • يجب ان لا نقول اذن ان البورجوازية الوطنية تؤخر تطور البلاد ، وانها قد تسير بالأمة الى طرق مسدودة غير نافذة • فالواقع هو ان المرحلة البورجوازية في تاريخ البلاد المتخلفة مرحلة لا لزوم لها • وحين ستزول هذه الفئة اذ تلتهمها تناقضاتها فسندرك أنه لم يتحقق شيء منذ الاستقلال ، وأن علينا أن نستأنف كل شيء من أوله ، ان نعود فنبدأ من الصفر • ولن يتم قلب الأمور عندئذ على مستوى البنيانات التي أنشأتها البورجوازية خلال حكمها ، لأن هذه الفئة لا تكون قد فعلت شيئا غير استلام ميراث الاقتصاد الاستعماري والتفكير الاستعماري والمؤسسات الاستعمارية دون أي تغيير او تبديل •

ومما يسهل تجميد هذه الطبقة البورجوازية أنها كما رأينا ضعيفة سواء من ناحية العدد ومن ناحية الثقافة ومن ناحية الاقتصاد• ان الطبقة البورجوازية في البلاد المستعمرة تستمد قوتها الأساسية من الاتفاقات المعقودة مع السلطة الاستعمارية القديمة • وحظ البورجوازية الوطنية من الحلول محل المضطهد الاستعماري يكون على قدر ما أتيح لها من خلوة مع السلطة الاستعمارية القديمة • ولكن تناقضات عميقة تحدث الاضطرابات والبلبلة في صفوف هذه البوجوازية ، وهذا ما يجعل المراقب اليقظ يشعر بأنه ليس ثمة استقرار • انه لم يتحقق لهذه الفئة حتى الآن شيء من التجانس • فكثير من المثقفين يدينون هذا النظام القائم على سيطرة عدد من الأفراد • ان في البلدان المتخلفة مثقفين وموظفين ونخبة صادقة تشعر شعورا قويا بضرورة التخطيط الاقتصادي وبضرورة أبعاد المنتفعين ومنع التضليل منعا صارما • أضف الى ذلك ان هؤلاء الرجال يناضلون الى حد ما في سبيل اشراك الشعب اشراكا كبيرا في ادارة الشؤون العامة •

انك تكاد تجد دائما في البلاد المتخلفة التي نالت الاستقلال عددا صغيرا

من المثقفين الشرفاء الذين لهم أفكار سياسية معينة واضحة ، ولكنهم بغريزتهم يكرهون هذا السعي الحثيث الى المراكز والى المغانم ، الذي تتميز به الأيام التالية للاستقلال في البلدان المتخلفة • ان الظروف الخاصة بهؤلاء الرجال « كاعالة أسرة كبيرة العدد » وتاريخهم الشخصي « تجارب صعبه ، تربية أخلاقية صارمة » هما السبب فيما يشعرون به من احتقار نحو الانتهازيين المنتفعين •فيجب استعمال هؤلاء الرجال في المعركة الحاسمة التي يراد خوضها لتوجيه الأمة توجيها سليما • واذا كان سد الطريق أمام البورجوازية الوطنية يحقق ابعاد الاثراءات السريعة التي تعقب الاستقلال ، وتحاشي مزالق الوحدة القومية ، وتفسخ الاخلاق وهيمنة الرشوة والفساد والتقهقر الاقتصادي وقيام حكم دكتاتوري مستند الى القوة والتخويف ، فانه أيضا السبيل الوحيد الى التقدم •

ان مما يضعف عزيمة العناصر التي تؤمن بالديموقراطية والتقدمية ايمانا عميقا بين أبناء الأمة الفتية ، ومما يجعلها خائفة وجلة ، هو ان البورجوازية تبدو في الظاهر قوية وطيدة الأركان • ذلك أن جميع القيادات في البلاد المتخلفة التي نالت استقلالها حديثا انما تتجمع في المدن التي بناها الاستعمار• فيظن المراقب الذي لا يحلل مجموع السكان أن هناك بورجوازية قوية منظمة تنظيما كاملا • والحقيقة أن الأمر ليس كذلك • فنحن نعلم الآن أن البلدان المتخلفة ليس فيها بورجوازية • ان البورجوازية لا يخلقها فكر ولا ذوق ولا آداب ، حتى ولا آمال ، وانما البورجوازية ثمرة مباشرة لوقائع اقتصادية معينة •

والواقع الاقتصادي في المستعمَرات انما هو واقع بورجوازي أجنبي • ان بورجوازية البلد المستعمِر هي الموجودة في مدن المستعمرات بممثلها • ان البورجوازية في المستعمَرات هي قبل الاستقلال بورجوازية غريبة ، هي فرع لبورجوازية البلد المستعمر يستمد منها مشروعيته وقوته واستقراره • وفي أثناء فترة الاضطراب التي تسبق الاستقلال تحاول عناصر ثقافية وتجارية من السكان الأصليين الذين يعيشون في نطاق هذه البورجوازية المستوردة ، ان تتشبه بها • ان المثقفين والتجار من السكان الأصليين يريدون دائما أن يتشبهوا بممثلي بورجوازية البلد المستعمِر •

فهذه البورجوازية التي تبنت متحمسة ، وبلا تحفظ ، الأساليب الفكرية التي تتميز بها عاصمة البلد المستعمِر ، هذه البورجوازية التي ضيعت تفكيرها الخاص تضييعا عجيبا ، وأقامت وعيها على أسس أجنبية صرفة ، لا بد أن تدرك وقد جف حلقها ، أنه يعوزها ذلك الشيء الذي يصنع البورجوازية أعني المال • ان بورجوازية البلدان المتخلفة هي بورجوازية بالفكر • فلا قوتها الاقتصادية ولا نشاط أفرادها ولا سعة نظراتها هي التي تكفل لها صفة البورجوازية • لذلك نراها في بداياتها وخلال مدة طويلة تظل بورجوازية موظفين • فالوظائف التي تحتلها في الادارة الوطنية الجديدة هي التي تهب

لها الهدوء والمتانة • حتى اذا أتاح لها الحكم الوقت الكافي والامكانيات اللازمه استطاعت أن تنسج لنفسها جوربا صغيرا من الصوف يعزز سيطرتها • ولكنها تظل عاجزة عن خلق مجتمع بورجوازي حقيقي مع كل النتائج الاقتصاديـــة والصناعية التي يعترضها قيام هذا المجتمع •

ان البورجوازية الوطنية تتجه منذ البداية الى فعاليــــات وساطية • فالأساس الذي تقوم عليه سلطتها انما هو براعتها في التجارة وقدرتها على خطف الوكالات • فليست أموالها هي التي تعمل ، بل مهارتها في عقد الصفقات انها لا تستثمر أموالا ، ولا تستطيع تحقيق ذلك التجمع لرأس المـــال ، الضروري لقيام بورجوازية حقيقية وازدهارها • ولو سارت بهـــذه الخطى لاحتاجت الى قرون من أجل أن تنشىء نواة تصنيع ، ولاصطدمت على أقل تقدير بمعارضة الدولة المستعمِرة القديمة التي تكون في اطار الاتفاقات التي تنتمي الى نوع « الاستعمار الجديد » قد اتخذت جميع احتياطاتها •

فاذا أراد الحكم أن يخرج البلاد من الركود وأن يسير بها في طريـق النمو والتقدم بخطى سريعة ، كان يجب عليه قبل كل شيء أن يؤمم قطـاع الوساطة • ذلك أن البورجوازية التي تغلّب روح الربح واللذة وتقف مـــن الجمهور مواقف احتقار ، وتتهالك على الفائدة بل على السرقة ذلك التهالك الفاضح ، انما تصب كل نشاطها على ذلك القطاع ، ان البورجوازية الوطنية الناشئة تغزو ميدان الوساطة الذي كان يحتله المستوطنون المستعمِرون • ان ميدان الوساطة هو في الاقتصاد الاستعماري أهم الميادين • فاذا أردنا التقدم كان علينا أن نؤمم هذا القطاع منذ الساعات الأولى ولكن من الواضح أن هذا التأميم يجب أن لا يأخذ طابع سيطرة الدولة على هذا القطاع سيطرة صلبـــة جامدة • يجب أن لا نعين لهذه المصالح رؤساء لا يملكون وعيا سياسيا • فلقد لاحظنا في جميع الحالات التي تم فيها التأميم بهذه الطريقة السيئة أن السلطة قد ساهمت في انتصار دكتاتورية يمارسها موظفون تلقوا ثقافتهم في عاصمة البلاد المستعمِرة ، فسرعان ما ظهروا عاجزين عن فهم الأمـــور على أساس مجموع الأمة • ان هؤلاء الموظفين سرعان ما يأخذون في تخريب الاقتصـــاد القومي ، وتفكيك الأجهزة ، فاذا الفساد والرشوة والتحيز والمحاباة والتهريب والتحايل والسوق السوداء ، اذا كل ذلك يظهر ويستقر • يجب أن يكـــون تأميم قطاع الوساطة تنظيما ديموقراطيا لتعاونيات البيع والشراء ، وأن تكون هذه التعاونيات لا مركزية لجعل الجماهير تهتم بادارة الشؤون العامة • وذلك كله لا يمكن تحقيقه ، كما ترون ، الا بادخال الجماهير في الحياة السياسية • والواقع أن مبدأ ادخال الجماهير في الحياة السياسية أصبح مبدأ معروفا في البلدان المتخلفة • ولكن ليس يبدو أن هذه المهمة الأساسية مفهومة فهمـــا صحيحا • فحين يؤكدون ضرورية ادخال الشعب في الحياة السياسية فأنما يعنون في الوقت نفسه أنهم يريدون أن يدعمهم الشعب في عملهم • ان الحكومة التي تصرح بأنها تريد ادخال الشعب في الحياة السياسية انما تعبر عن رغبتها

في أن تحكم من الشعب ومن أجل الشعب ٠ولكن يجب ان لا يكون هذا لغايتها تقنيع اتجاه بورجوازي ٠ ان الحكومات البورجوازية في البلاد الرأسمالية قد تجاوزت منذ زمن طويل هذه المرحلة الصبيانية من الحكم ٠ إنها الآن تحكم ، بهدوء وبرود ، بواسطة قوانينها وقوتها الاقتصادية وشرطتها ، انها ، وقد أصبحت سلطتها متينة وطيدة ، غير مضطرة الى ان تضيع وقتها في مواقف ديماغوجية ، انها تحكم بما يحقق مصالحها ، جريئة غير هيابة ٠ لقد أوجدت مشروعية ، فهي قوية بحقها ٠

أما الفئة البورجوازية في البلاد التي استقلت حديثا فانها لا تتصف بعد بما تتصف به البورجوازية القديمة من استخفاف ورباطة جاش قائمين على القوة ٠ ومن ثم نرى لديها ذلك الاهتمام باخفاء قناعاتها العميقة ، وبالتظاهر بالشعبية ٠٠٠ ولكن ادخال الشعب في الحياة السياسية لا يكون بحشد عشرات الألوف أو مئات الالوف من الرجال والنساء ثلاث مرات أو أربع مرات في العام ٠ ان هذه الاجتماعات التي تعقد من حين الى حين تشبه الأسلوب القديم الذي كان يتبع قبل الاستقلال حين كان هؤلاء الناس يعرضون قواهم بغية أن يبرهنوا لأنفسهم وللآخرين على أن الشعب معهم ٠ ان ادخال الشعب في الحياة السياسية لا يعني أن ترده طفلا ، بل أن تجعله راشدا ٠

وهذا يقودنا الى الكلام على دور الحزب السياسي في بلد متخلف ٠ لقد رأينا في الصفحات السابقة أن هناك أناسا ممن ينظرون الى الامور نظرة تبسيطية ، وهم ينتمون من جهة أخرى الى البورجوازية الناشئة ، ما يفتاون يرددون في كثير من الأحيان أن من الضروري أن تقاد الامور في البلد المتخلف بسلطة قوية وحتى بحكم دكتاتوري ٠ وعلى هذا الأساس يكلف الحزب بمهمة مراقبة الجماهير ٠ ويكون سندا لرجال الادارة والشرطة ، فيراقب الجماهير لا ليتأكد على أنها تشارك في شؤون الامة حقا ، بل ليذكرها دائما بأن السلطة تنتظر منها الطاعة والنظام والخضوع ٠ ان هذه الدكتاتورية التي تظن انها ضرورية غداة الاستقلال ، انما تشير في الواقع الى أن الفئة البورجوازية قد قررت أن تحكم البلد المتخلف بمساندة الشعب أولا ، وضد الشعب بعد ذلك ٠ وما تحول الحزب شيئا فشيئا الى مصلحة مخابرات الا دليل على أن الحكومة اخذت تقف موقفا دفاعيا أكثر فأكثر ٠ ان الحكومة التي تنظر الى الشعب نظرتها الى كتلة ليست بذات شكل ، تعد الشعب قوة عمياء يجب ترويضها سواء بالتضليل أو بالخوف الذي توقظه في نفسها قوى الشرطة ٠ وليس الحزب الا بارومترا ، الا مصلحة مخابرات ٠ انهم يحيلون عضو الحزب الى جاسوس ويعهدون اليه بمهمات تأديبية في القرى ٠ فاذا كانت هناك نواة حزب معارض ضرب أعضاؤه بالعصا والحجارة من أجل تصفيتهم ٠ حتى أن مرشحي المعارضة يرون الحريق يشب في بيوتهم - وتضاعف الشرطة استفزازاتها ٠ وطبيعي ان الحزب في هذه الظروف حزب واحد ، والطبيعي والحالة هذه أن يفوز مرشح الحكومة بـ ٩٩ر٩٩ ٪ من الأصوات ٠ يجب علينا ان نعترف ان سلوك عدد من

حكومات افريقيا هو هذا السلوك ٠ ان جميع أحزاب المعارضه ــ وهي احزاب نقدمية على وجه انعموم ــ التي عملت على ان يكون للجماهير مزيد من التاثير في ادارة الشؤون العامة ، والتي تمنت ازاحة البورجوازيه الحقيرة التجارية ، قد اضطرت الى الصمت بقوة السياط والسجون ، ثم الى التنظيم السري ٠

ان الحزب السياسي في كثير من المناطق الافريقية التي أضبحت الآن مستقلة يعاني افلاسا خطيرا كل الخطورة ٠ والشعب لا يزيد ، اذا حضر عضو من أعضاء الحزب ، على ان يصمت وعلى ان يتظاهر بأنه حمل وديع ، وعلى ان يكيل الأماديح جزافا للحكومة وللزعيم ٠ ولكن ليتكم تسمعون في الشارع عند المساء ، في ظاهر القرية أو في المقهى أو على النهر ، ليتكم تسمعون تعبير الشعب عن خيبة ظنه ، عن المرارة التي تعتمل في نفسه ، عن اليأس الذي يملأ قلبه ، ولكن أيضا عن الحق المكظوم الذي يضطرم في أعماقه ٠ ان الحزب، بدلا من ان يشجع على تعبير الشعب عن شكاواه وأوجاعه ، وبدلا من ان يجعل مهمته تسهيل انتقال أفكار الشعب الى القيادة انتقالا حرا ، ينصب نفسه حاجزا ومانعا ٠ ان قادة الحزب يتصرفون تصرف جنود برتبة عريف ، وما يفتأون يذكرون الشعب بضرورة « الصمت في الصف » ٠ ان هذا الحزب الذي كان يعلن أنه خادم الشعب ، وانه يعمل على تحقيق الازدهار للشعب ، ما ان تعهد اليه السلطة الاستعمارية بالحكم حتى يسارع الى اعادة الشعب الى كهوفه٠ وعلى صعيد الوحدة القومية ايضا يرتكب الحزب الاخطاء تلو الاخطاء ٠ ان الحزب الذي يزعم أنه حزب قومي يتصرف تصرف حزب قبلي ٠ انه قبيلة صارت حزبا ٠ ان هذا الحزب الذي ينادي بالقومية ويؤكد أنه يتكلم بلسان الشعب كله ، يمارس في السر دكتاتورية قبلية حقيقية ، حتى لقد تكون هذه الدكتاتورية القبلية صريحة مكشوفة في بعض الأحيان ٠ ونحن لا نشهد عندئذ دكتاتورية بورجوازية ، بل دكتاتورية قبلية ٠ فالوزراء ، ورؤساء المكاتب ، والسفراء والمحافظون ، أنما يتم اختيارهم من بين أفراد قبيلة الزعيم ، حتى لقد يتم اختيارهم من بين أفراد أسرته رأسا في بعض الأحيان ٠ ان هذه الأنواع العائلية من الحكم تذكر بالقوانين القديمة التي كانت تفرض ان لا يتزوج الرجل الا امرأة من أسرته ٠ والمرء لا يشعر ازاء هذه الحماقة بالغضب بل بالعار ، انه يشعر بالعار تجاه هذا الانحطاط العقلي والروحي ٠ ان رؤساء الحكومات هم الخونة الحقيقيون ، هم الذين يخونون أفريقيا ، لأنهم يبيعونها لعدو هو ألد أعدائها طرا : الحماقة ولا شك في أنكم تقدرون أن سيطرة هذه القبلية على الحكم لا بد أن تؤدي الى الاقليمية والى الانفصالية٠ فاذا نحن نرى اتجاهات لا مركزية تظهر وتنتصر ، واذا الشعب يتفكك وتتقطع أوصاله ٠ ان الزعيم الذي كان ينادي « وحدة افريقيا » وهو لا يفكر الا في عائلته ، يستيقظ ذات صباح فاذا هنالك خمس قبائل تطالب هي أيضا بأن يكون لها سفراؤها ووزراؤها ، فيأخذ يندد « بالخيانة » وهو لا يزال على ما كان عليه من فقدان الشعور بالمسؤولية ، ومن فقدان الوعي ، ومن صغار النفس ٠

لقد أشرنا مرارا الى ان الدور الذي يقوم به الزعيم كثيرا ما يكون دورا ضارا مشؤوما • ان الحزب في بعض المناطق يكون منظما تنظيم عصابة يتولى قيادتها الشخص الذي يكون أشد أعضائها قسوة • ويحلو لبعضهم أن يتحدث عن سيطرة هذا الزعيم وعن قوته ، حتى قد يتورع أن يقول بلهجة فيها الرضا والاعجاب انهذا الزعيم يرعبأقرب المقربين اليه منمعاونيه• فلكي نتحاشى هذه المخاطر الكثيرة يجب أن نناضل في كثير من العناد والصمود في سبيل أن لا يستحيل الحزب أبدا الى أداة طيعه بين يدي زعيم • ان كلمة زعيم الانكليزية Leader مشتقة من فعل : ساق يسود • فيجب ان نعلم ان الشعب لا يساق الآن سوقا • ليست الشعوب الآن قطعانا تساق ، ولا هي في حاجة الىأن تساق: واذا ساقني الزعيم فانني أريد ان يعلم في الوقت نفسه أنني أسوقه • ما ينبغي ان تكون الأمة كتلة يصرّف شؤونها رجل • ومن هنا نفهم ذلك الذعر الذي يستولي على الاوساط الحاكمة حين يصاب واحد من هؤلاء الزعماء بمرض • ذلك أن المسألة التي تشغل بال هذه الاوساط وتقض مضاجعها هي مسألة الخلف الذي سيخلف الزعيم اذا مات • ما عسى ان تسير اليه البلاد اذا مات الزعيم ؟ ان الأوساط الحاكمة التي امّحت أمام الزعيم غير شاعرة بالمسؤولية غير واعية للوضع ، مشغولة بالحياة المرفهة التي تعيشها ، وبالحفلات التي تشهدها ، وبالأسفار المأجورة التي تقوم بها والأرباح الكثيرة التي تجنيها ، ان هذه الاوساط الحاكمة تشعر من حين الى حين بالفراغ الروحي الذي يرين في قلب الشعب •

ان البلاد التي تريد حقا أن تحل القضايا التي يطرحها عليها التاريخ ، التي تريد حقا أن تحقق لمدنها الازدهار ، وأن تنمي عقول سكانها ، يجب ان يكون لها حزب حقيقي • وليس الحزب أداة بين يدي الحكومة ، بل الحزب أداة بين يدي الشعب •الحزب هو الذي يقرر السياسة التي تطبقها الحكومة• ليس الحزب ، وما ينبغي للحزب أن يكون ــ المكتب السياسي الذي يلتقي فيه اعضاء الحكومة وكبار المسؤولين على راحتهم • ان المكتب السياسي كثيرا ما يكون الحزب كله وا أسفاه ! وأعضاء المكتب السياسي يقيمون دائما في العاصمة • مع أن من الضروري في البلاد المتخلفة أن يفرّ المسؤولون الحزبيون من المدن فرارهم من الطاعون • ان عليهم أن يقيموا في المناطق الريفية ، الا عددا قليلا منهم • يجب أن نتحاشى تركيز كل شيء في المدينة الكبيرة • وما من عذر من الاعذار الادارية يمكن أن يسوّغ هذا الغليان الشديد في العاصمة التي تشكو منذ الآن من فرط عدد السكان ومن فرط النمو بالقياس الى تسعة أعشار مساحة البلاد • يجب تخليص الحزب من التمركز الى كل حد ممكن • فتلك هي السبيل الوحيد الى تنشيط المناطق الميتة التي لم تستيقظ على الحياة بعد•

يجب عمليا أن يقيم عضو واحد على الأقل من أعضاء المكتب السياسي في كل منطقة من المناطق ، ويجب أن نتحاشى تعيينه رئيسا للمنطقة • يجب أن لا يتسلم سلطات ادارية • ليس من الضروري أن يحتل عضو المكتب السياسي

أعلى مركز في الجهاز الاداري للمنطقة • يجب أن لا يكون جزءا من السلطة بالضرورة • يجب أن لا يكون الحزب في نظر الشعب هو السلطة ، بل الجهاز الذي بواسطته يستطيع الشعب من حيث هو شعب ان يمارس سلطته ويحقق ارادته • وكلما فرقنا بين الحزب والحكم ، أزلنا ازدواج السلطة وكنا نكفل للحزب ان يحقق رسالته كمرشد وموجه، كما كنا نكفل له أن يكون في نظر الشعب ضمانة حاسمة • أما اذا كان هناك اندماج بين الحزب والسلطة ، كان الانتساب الى الحزب يعني سلوك الطريق الأقصر الى تحقيق غايات أنانية ، الى الحصول على منصب في جهاز الحكم ، الى نيل ترفيع في الوظيفة أو تغيير في الوضع ، أو ما الى ذلك •

ان من شأن القيادات المحلية النشيطة في البلاد المتخلفة أن توقف عملية تضخم المدن ، وأن تحول دون تدفق الجماهير الريفية الى هذه المدن تدفقا مضطربا غير متسق • ان خلق قيادات محلية منذ الايام الأولى للاستقلال ، قيادات تملك في المنطقة كل الصلاحيات اللازمة لايقاظ المنطقة واحيائها وتعجيل وعي المواطنين فيها ، ان خلق هذه القيادات المحلية ضرورة ليس في وسع أي بلد يريد التقدم أن يفلت منها • والا رأينا المسؤولين الحزبيين ورجال الحكم يتجمعون حول الزعيم ، ورأينا الادارات تتضخم ، لا لأنها تنمو وتتنوع ، بل لأن أقرباء جددا وحزبيين جددا ينتظرون منصبا ويأملون أن يتسربوا الى عجلة الوظائف ، ورأينا كل مواطن يحلم أن يجيء الى العاصمة لينال نصيبه من الحلوى ، ورأينا المناطق البعيدة تخلو من سكانها ، والجماهير الريفية التي ما نظمت ولا ربيت ولا دعمت ، تتحول عن الأرض التي لم تحسن حرثها وتتجه الى الضواحي المحيطة بالمدن ، فتتضخم بها البروليتاريا تضخما لا يقف عند حد •

وتوشك الأمة أن تعاني أزمة وطنية اقتصادية جديدة •اننا نعتقد أن المناطق الداخلية في البلاد هي التي يجب أن تخص بالامتياز • بل قد لا يكون هناك أي ضرر من انتقال الحكومة الى مكان غير العاصمة • يجب أن لا تظل العاصمة عاصمة الى الأبد • يجب أن نبرهن للجماهير المحرومة أننا من أجلها انما نقرر ان نعمل • وهذا ما حاولته الحكومة البرازيلية ، بمعنى من المعاني ، حين شيدت برازيليا • ان امتيازات ريودي جانيرو اهانة للشعب البرازيلي • ولكن من المؤسف ان العاصمة الجديدة برازيليا لا تقل عن العاصمة الأولى شموخا أشوه • والفائدة الوحيدة التي تحققت من تشييد هذه العاصمة الجديدة انه يوجد الآن طريق يشق الغابات ليدخل اليها • نعم ليس هناك أي باعث ذي بال يمكن أن يحول دون اختيار عاصمة أخرى • وان يمنع انتقال مجموع الحكومة الى منطقة من المناطق المحرومة • ان فكرة العاصمة في البلاد المتخلفة هي فكرة تجارية من مخلفات عهد الاستعمار • يجب علينا في البلاد المتخلفة أن نضاعف الاتصال بالجماهير الريفية • علينا أن نجعل سياستنا قومية تتناول الجماهير • يجب أن لا نفقد اتصالنا بالشعب الذي كافح في سبيل استقلاله وفي سبيل تحسين حياته تحسينا محسوسا ملموسا •

ان على الموظفين والفنيين من أهل البلاد ان يغوصوا لا في الخطوط البيانية والاحصاءات ، بل في جسم الشعب · يجب عليهم أن لا يغضبوا أشد الغضب كلما أريد نقلهم الى « المناطق الداخلية »· يجب أن لا نرى بعد الآن أولئك النساء الشابات في البلدان المتخلفة يهددن أزواجهن بالطلاق اذا هم لم يتوسلوا بجميع الذرائع الممكنة ليحولوا دون تعيينهم لوظيفة في الريف· لذلك كان لزاما على المكتب السياسي للحزب أن يجعل المناطق المحرومة هي المناطق التي يخصها بالامتياز · وينبغي لحياة العاصمة، الحياة المصطنعة السطحية اللازقة بالواقع القومي لزوق جسم غريب عنه ، أن لا تحتل الا أقل مكان ممكن في حياة الأمة التي هي الحياة الأساسية المقدسة ·

وعلى الحزب في البلاد المتخلفة أن لا يكتفي بالاتصال بالجماهير ، وانما ينبغي له أن يكون تعبيرا مباشرا عن الجماهير · ليس الحزب جهازا مهمته نقل أوامر الحكومة ، بل الحزب هو الناطق القوي بلسان الجماهير ، وهو المدافع الصامد عن الجماهير · وللوصول الى فهم الحزب هذا الفهم يجب قبل كل شيء أن نتحرر من تلك الفكرة الغريبة جدا ، البورجوازية جدا وبالتالي المسيئة جدا ، الفكرة القائلة بأن الجماهير عاجزة عن قيادة نفسها · ان التجربة تبرهن في الواقع على أن الجماهير تفهم أعقد المشكلات فهما كاملا · ان من أهم الخدمات التي أدتها الثورة الجزائرية للمثقفين الجزائريين أنها وصلتهم بالشعب ، وأتاحت لهم أن يروا ذلك البؤس الفظيع الرهيب الذي يعانيه الشعب ، وأن يشهدوا في الوقت نفسه يقظة الذكاء وتقدم الوعي لدى هذا الشعب· ان الشعب الجزائري، هذه الكتلة من الجائعين والأميين، من الرجال والنساء الذين ظلوا غارقين في أحلك ظلمات الجهل قرونا طويلة ، قد صمد للدبابات والطائرات ، للقذائف المحروقة والدوائر السيكولوجية، وصمد خاصة لمحاولات الرشوة والافساد وغسل الدماغ ، وصمد للخونة والجيوش «الوطنية» التي يقودها الجنرال بيلوني · صمد هذا الشعب رغم الضعاف والمترددين والأجراء ، صمد لان كفاحه خلال سبع سنين قد فتح له ميادين كان لا يتصور حتى وجودها · واليوم تعمل مصانع الأسلحة في الجبال على عمق عدة أمتار تحت الأرض ، وتعمل محاكم للشعب بجميع درجاتها ، وتتولى لجان محلية للتخطيط حصر الملكيات الكبيرة ، استعدادا لبزوغ جزائر الغد · قد يعجز رجل منعزل عن فهم مشكلة من المشاكل أما الجماعة ، أما القرية بكاملها فانها تفهم الأمور بسرعة تحيّر العقل · صحيح أنك اذا حرصت كل الحرص على أن تستعمل لغة لا يفهمها الا الحاصلون على شهادة الليسانس في الحقوق أو العلوم السياسية ، تستطيع أن تبرهن على أن الجماهير يجب أن تساق سوقا أما اذا استعملت اللغة المحسوسة الواضحة ، ولم تكن ممن يستبد بهم حرص شاذ على تلبيس الأمور ، على التخلص من الشعب ، فانك ما تلبث أن تدرك أن الجماهير تدرك أدق المشكلات وأرهف المسائل · ان لجوءك الى لغة تكنيكية معناه أنك قررت أن تعد الجماهير جاهلة · ان هذه اللغة تدل على رغبة

اصحابها من المحاضرين في آن يخدعوا الشعب وفي أن يدعوه خارج القضية . ليس استعمال لغة غامضة الا قناعا يخفي وراءه حرصا على النهب . ان من يستعمل هذه اللغة الغامضة انما ينتزع من الشعب رزقه وسيادته معا . ان المرء يستطيع أن يشرح للشعب كل شيء متى أراد حقا أن يفهمه الشعب . فاذا ظن انه ليس في حاجة الى الشعب ، اذا حسب أن الشعب يعرقل سير الشركات الخاصة ذات المسؤولية المحدودة ، التي تهدف الى جعل الشعب يعاني مزيدا من البؤس والفقر ، فقد حسمت المشكلة ..

من ظن أن في الامكان أن يقاد بلد من البلدان دون أن يقحم الشعب أنفه في ذلك ، من ظن أن الشعب يبلبل مجرد حضوره الأمور ، فيؤخر التقدم أو يخرب الوضع بجهله الطبيعي ، من ظن ذلك فلا تردد عنده: يجب ابعاد الشعب. ولكن الواقع هو أن الشعب اذا دعي الى قيادة البلاد لا يؤخر الحركة بل يعجلها. وقد أتيح لنا نحن معشر الجزائريين خلال هذه الحرب التي نخوضها أن نلمس بأيدينا عدة أشياء . ان المسؤولين السياسيين والعسكريين من رجال الثورة قد واجهوا في بعض المناطق الريفية ظروفا اقتضت حلولا جذرية . وسنعرض الآن لبعض هذه الظروف .

في أثناء عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧، حرّم الاستعمار الفرنسي بعض المناطق، فأصبح تنقل الأشخاص في هذه المناطق خاضعا لقيود صارمة . وأصبح الفلاحون لا يستطيعون أن يذهبوا الى المدينة بحرية لتجديد مؤنهم . فأخذ البقالون يكدسون أرباحا ضخمة ، حتى بلغت أسعار الشاي والقهوة والسكر والتبغ أرقاما خارقة ، وانتصرت السوق السوداء انتصارا هائلا . وأصبح الفلاحون الذين لا يستطيعون المقايضة يرهنون محاصيلهم بل وأراضيهم ، أو يأخذون يبيعون ارث الأسرة قطعة قطعة ، ثم ينتهون في مرحلة ثانية الى العمل في الأرض لحساب البقال . فما أن أدرك المفوضون السياسيون هذا الخطر حتى بادروا الى اتخاذ الاجراءات اللازمة فورا ، فوضعوا نظاما عقليا للتموين : فالبقال الذي يذهب الى المدينة عليه أن يشتري بضائعه من تجار وطنيين يعطونه فواتير تذكر فيها أسعار البضائع ، حتى اذا عاد الى القرية كان عليه أن يذهب فورا الى المفوض السياسي الذي يدقق في الفواتير ، ويحدد الربح ويعين تسعيرة البيع . وعلى البقال بعد ذلك أن يسجل على البضائع في حانوته أسعارها المفروضة ، ويكون هنالك رجل من رجال القرية يبصّر الفلاح بأسعار البضائع ويكون أشبه برقيب على البقال . غير أن البقالين ما لبثوا أن اكتشفوا حيلة يلجأون اليها ، فما هي الا أيام ثلاثة أو أربعة حتى يدعوا أن البضاعة قد نفذت ، ثم يأخذون يبيعون خفية بأسعار فاحشة .

وكان رد السلطة السياسية العسكرية جذريا ، فرضت غرامات ضخمة على المخالفين ، وجمعت الغرامات وأودعتها صندوق القرية لانفاقها في البرّ ، أو لاستعمالها في أعمال ذات مصالح مشتركة . حتى لقد تقرر في بعض الأحوال اغلاق الحانوت الى أجل مسمى . فاذا تكررت المخالفة صودر المحل فورا وعهد

الى لجنة منتخبة بادارته ، وأعطي صاحب المحل مرتبا شهريا ٠

وعلى أساس هذه التجارب شرحنا للشعب القوانين الاقتصادية الكبرى بالاستناد الى حالات محسوسة ٠ فلم يعد قانون تجميع رأس المال نظرية من النظريات ، بل سلوكا واقعيا جدا راهنا جدا : أدرك الشعب كيف أن في وسع فرد من الأفراد يعمل في تجارة أن يصيب ثراء كبيرا ، وأن يوسع تجارته وعندئذ فقط أخذ الفلاحون يقصون كيف ان هذا البقال كان يقرضهم أموالا بربا فاحش ، وذكر آخرون كيف أنه طردهم من أراضيهم وكيف أصبحوا عمالا بعد أن كانوا مالكين ٠ وكلما ازداد الشعب فهما للأمور ، ازدادت يقظته وأصبح يدرك أن كل شيء متوقف عليه، وأن سلامته رهن باتحاده ، وبمعرفة مصالحه وبتعيين أعدائه ٠ وفهم الشعب أن الغنى الذي حصّله الأغنياء لم يكن ثمرة العمل بل كان ثمرة سرقة منظمة محمية ٠ وأصبح لا ينظر الى الاغنياء نظرته الى أناس محترمين بل الى حيوانات مفترسة ، الى ذئاب ، الى غربان تتمرغ في دماء الشعب ٠ وفي مضمار آخر قرر المفوّضون السياسيون ان لا يعمل أحد أجيرا لأحد ، فالأرض لمن يزرعون الأرض ٠ وهذا مبدأ أصبح بالشرح قانونا أساسيا في الثورة الجزائرية ، وحمل المزارعون الذين كانوا يستعملون عمالا زراعيين على أن يدفعوا لهؤلاء الذين عملوا لهم أنصبة من الأرباح ٠

ولاحظنا عندئذ أن غلة الهكتار قد تضاعفت ثلاثة أضعاف، وذلك رغم هجمات الفرنسيين وقصف الطائرات وصعوبة الحصول على الأسمدة ٠ وأراد الفلاحون الذين استطاعوا عند الحصاد أن يقدروا محاصيلهم وأن يزنوها ، أرادوا أن يفهموا هذه الظاهرة ، فسرعان ما اكتشفوا أن العمل ليس أمرا بسيطا ، وأن العبودية لا تتيح العمل ، وأن العمل يفترض الحرية والمسؤولية والوعي ٠

في هذه المناطق التي استطعنا أن نطبق فيها هذه التجارب البناءة ، في هذه المناطق التي شهدنا فيها تحقق الانسان بالتشريع الثوري ، أدرك الفلاحون ادراكا واضحا جدا ذلك المبدأ الذي يقول ان الانسان يستمتع بالعمل على قدر اقدامه على بذل الجهد عن وعي واضح ٠ لقد استطعنا أن نفهم الجماهير أن العمل ليس انفاق طاقة أو تشغيل عضلات فحسب ، فانما يعمل المرء بعقله وقلبه أكثر مما يعمل بعضلاته وعرقه ٠ وكذلك اضطررنا في هذه المناطق التي تحررت ولكنها أبعدت في الوقت نفسه عن الدورة التجارية القديمة ، اضطررنا أن نبدل الانتاج الذي كان قبل ذلك متجها نحو المدن ونحو التصدير فحسب ٠ فنظمنا الانتاج على أساس حاجة الشعب وحاجة وحدات جيش التحرير الوطني الى الاستهلاك ٠ ضاعفنا انتاج العدس أربعة أضعاف ونظمنا صنع فحم الخشب ٠ وأصبحت الخضَر والفحم الحجري تأتي من مناطق الشمال الى الجنوب عن طريق الجبال ، وأخذت مناطق الجنوب ترسل اللحوم الى الشمال ٠ وكانت جبهة التحرير الوطني هي التي قررت احداث هذا التنسيق ووضعت خطة نقل المحاصيل ٠ ولم يكن لدينا اخصائيون في التخطيط متخرجون من مدارس

الغرب الكبرى ، ولكن هذه المناطق المحررة قد بلغ الراتب الغـذائي اليومي فيها حدا لم تعرفه من قبل وهو ٣٢٠٠ حريرة • ولم يكتف الشعب بتحقيق النصر في هذه التجربة ، بل أخذ يطرح مسائل نظرية • مثال ذلك : لماذا كان بعض المناطق لا يرى البرتقال قبل حرب التحرير مع أن البلاد كانت تصدر منه الى الخارج ملايين الأطنان سنويا ، ولماذا كان عدد كبير من الجزائريين لا يعرف العنب مع أن ملايين العناقيد من عنب الجزائر كانت تتلذذ بها الشعوب الأوروبية ؟ لقد أصبح الشعب يعرف اليوم ما يملكه معرفة واضحة • أصبح الشعب الجزائري يعلم اليوم أنه المالك الوحيد لأرض بلاده ولما يضمه جوف هذه الأرض من ثروات • واذا كان هناك أناس لا يفهمون لماذا تحرص جبهة التحرير الوطني هذا الحرص كله على أن لا تتهاون أي تهاون في حق التملك هذا ، ولا يفهمون عزمها العنيد الوحشي على رفض أية تسوية حول هذه المبادىء ، فليتذكروا أن الشعب الجزائري أصبح اليوم شعبا راشدا ، مسؤولا ، واعيا • ان الشعب الجزائري قد أصبح اليوم شعبا مالكا •

لقد استشهدنا بمثال الشعب الجزائري في توضيح كلامنا ، لا من أجل أن نمجد شعبنا ، بل لأننا أردنا أن نبين الدور الكبير الذي حققته معركته في تنمية وعيه • وواضح أن هناك شعوبا أخرى وصلت الى هذه النتيجة نفسها بطرق شتى • ان لجوء الشعب الجزائري الى استعمال القوة أمر لم يكن منه بد ، والناس يدركون اليوم ذلك أكثر مما كانوا يدركونه من قبل ، غير أن هناك مناطق أخرى استطاعت بالنضال السياسي والشرح والتنوير الذي تولاه الحزب ، أن تصل الى هذه النتائج نفسها • لقد أدركنا في الجزائر أن الجماهير في مستوى المشكلات التي تجابهها • والتجربة تدل على أن المهم في بلد متخلف ليس هو أن يفهم وأن يقرر ثلاثمائة شخص ، وانما المهم أن يفهم الشعب كله وأن يقرر كله ولو اقتضى ذلك وقتا مضاعفا ضعفين أو ثلاثة أضعاف • فالوقت الذي تنفقه في الشرح ، الوقت الذي « تضيّعه » في توعية العاملين ، لا يذهب هدرا ، بل يتدارك ويسترد في التنفيذ • يجب أن يعرف الناس الى أين هم ماضون ، ولماذا يمضون الى حيث هم ماضون ؟ ينبغي لرجل السياسة أن لا يجهل أن المستقبل سيظل مسدودا ما ظل وعي الشعب قاصرا ضعيفا كثيفا • ان علينا ، نحن رجال السياسة الافريقيين ، أن تكون أفكارنا عن حالة شعبنا واضحة جدا • ولكن هذا الادراك الواضح يجب أن يظل ديالكتيكيا الى الأعماق • ان يقظة الشعب كله لن تتم دفعة واحدة ، وانخراط الشعب في عمل البناء القومي انخراطا منظما أمر طويل ، أولا لأن طرق المواصلات ووسائل النقل غير متطورة تطورا كافيا ، وثانيا لأن الزمانية لن تكون زمانية اللحظة الراهنة أو المحصول القادم بل زمانية العالم ، وأخيرا لأن اليأس الراسخ في قرارة العقول بنتيجة السيطرة الاستعمارية ما يزال متأهبا • ولكن يجب علينا أن لا نجهل أن الانتصار على عقدة الانزلاق في الطريق الأسهل ، وهي من مواريث السيطرة على البلاد ماديا وروحيا ، ضرورة ليس في وسع أية حكومة

أن تتملص منها • انظروا مثلا الى العمل في عهد الاستعمار • ان المستوطنين المستعمرين لم ينقطعوا لحظة عن القول ان السكان الأصليين كسالى بطيئون • اليوم نرى في بعض البلاد المستقلة أناسا مسؤولين يعودون الى هذه النغمة ويرددون هذه الادانة • وواقع الأمر ان المستوطن المستعمر كان يريد أن يكون العبد متحمسا • كان يريد ، بنوع من التضليل ، أن يقنع العبد بأن الارض التي يزرعها هي له ، وأن المناجم التي يفقد فيها عافيته هي ملكه • وكان المستوطن المستعمر ينسى نسيانا عجيبا أنه انما يغتني بفضل احتضار العبد• لقد كان المستوطن المستعمر يقول للمستعمَر عمليا : « لتفطس أنت ، ولأغتن أنا » • وعلينا الآن أن لا نفعل مثل هذا • علينا أن لا نقول للشعب : « لتفطس أنت ولتغتن البلاد » اذا نحن أردنا أن نزيد الدخل القومي، واذا نحن أردنا أن نمنع استيراد بعض المنتجات غير المفيدة بل والضارة ، واذا نحن أردنا أن نزيد الانتاج الزراعي ، وأن نحارب الأمية ، فعلينا أن نشرح للشعب الأسباب التي تدفع الى ذلك كله • يجب أن يفهم الشعب أهمية ما نقدم عليه من عمل • يجب أن يعرف الشعب الشؤون التي تتصل بالشعب • ومن هنا تفهمون ضرورة اكثار خلايا القاعدة• ان ما يحدث في كثير من الأحيان هو أننا نكتفي بانشاء منظمات وطنية في القمة وفي العاصمة دائما • « اتحاد النساء » ، « اتحاد الشباب » ، « النقابات » ، الخ ••• حتى اذا بدا لك أن ترى ماذا وراء المكتب الذي مقره العاصمة ، اذ بدا لك أن تنتقل الى القاعة الخلفية التي يجب أن توجد فيها الاضبارات والملفات ، هالك ما ستراه من فراغ ، من عدم ، من خديعة •• لا بد من قاعدة ، لا بد من خلايا هي التي تبث في الحركة مضمونا ونشاطا • ينبغي أن تمكّن الجماهير من أن تجتمع وتناقش وتقترح وتتلقى تعليمات • ينبغي أن يستطيع المواطنون ان يتكلموا وأن يعبروا وأن يبتكروا• ان اجتماع الخلية أو اجتماع اللجنة أشبه بصلاة• انه فرصة فذة تتاح للانسان فيستطيع أن يصغي وأن يتكلم • وفي كل اجتماع ، يغتني عقل الانسان تطل عيناه على آفاق ما تنفك تتسع •

وكثرة الشباب في البلاد المتخلفة تطرح على الحكومة مشكلات خاصة يجب أن تعالج معالجة واضحة • ان الشبيبة التي تعيش في المدن ولا تقوم بعمل والتي هي أمية في كثير من الأحيان ، تنساق في طرق كثيرة من طرق الانحلال والتفسخ • ان ألهيات البلاد المصنّعة معروضة على شبيبة البلاد المتخلفة في أكثر الأحيان • والأمر الطبيعي في الواقع هو أن هناك تجانسا بين المستوى العقلي والمادي لأفراد مجتمع من المجتمعات وبين اللذات التي يستمتع بها هذا المجتمع • ولكن الشبيبة في البلاد المتخلفة تنعم بألهيات خلقت لشبيبة البلاد الرأسمالية : الروايات البوليسية ، ماكينات القمار، الصور الفوتوغرافية الماجنة ، الأدب الخليع ، الأفلام الممنوعة عمن هم دون السادسة عشرة من العمر ، والمشروبات الكحولية خاصة • ففي الغرب نرى الجو العائلي ، والمواظبة على المدارس ، ومستوى معيشة الطبقات الكادحة ، العالي نسبياً ، نرى كل

ذلك يحول بعض الشيء دون انجراف الشبيبة في هذه الألهيات انجرافا مؤذيا. أما في بلد افريقي ، حيث النمو النفسي متفاوت ، وحيث يصطدم عالمان اصطداما عنيفا فتزعزع من ذلك التقاليد القديمة تزعزعا كبيرا ويتفكك عالم الادراك ، فان عواطف الفتى الافريقي وحساسيته يخضعان لهجمات الحضارة الغربية ويتأثران بها تأثرا كبيرا ، وكثيرا ما تعجز أسرة الفتى عن محاربة هذه الاندفاعات العنيفة بالاستقرار والتجانس .

ففي هذا المجال يجب على الحكومة أن تكون مصفاة وان تكون عامل استقرار وصمود . ان قادة « منظمات الشبيبة » في البلاد المتخلفة كثيرا ما يرتكبون خطأ فادحا ، اذ يتصورون رسالتهم على غرار رسالة قادة « منظمات الشبيبة » في البلاد المتطورة . انهم يتكلمون على ضرورة تقوية النفس ، وتربية الجسم ، وخلق الصفات الرياضية . وعندنا أن على هؤلاء القادة أن يعزفوا عن هذا المفهوم الخاطىء . ان شبيبة البلد المتخلف شبيبة عاطلة عن العمل في كثير من الأحيان ، فيجب شغلها بالعمل أولا وقبل كل شيء . لذلك يجب أن يكون قادة منظمات الشبيبة تابعين لوزارة العمل . ووزارة العمل التي هي حاجة ماسة في البلاد المتخلفة . يجب أن تكون على تعاون وثيق مع وزارة التخطيط التي هي حاجة ماسة أخرى في البلاد المتخلفة . يجب أن لا توجّه الشبيبة الأفريقية نحو الملاعب الرياضية ، بل نحو الحقول ، نحو الحقول ونحو المدارس . ويجب أن لا يكون ملعبهم ذلك المكان المخصص للعرض في المدن ، بل فسحة في طرف من أطراف الأرض التي يحرثونها ويزرعونها ويقدمونها للأمة . ان المفهوم الرأسمالي للرياضة مختلف اختلافا أساسيا عن المفهوم الذي يجب أن تأخذ به البلدان المتخلفة . يجب على السياسي الافريقي أن لا يعنى بخلق رياضيين بل بخلق رجال واعين يكونون من جهة أخرى رياضيين . اذا لم نجعل الرياضة متكاملة مع الحياة القومية أي مع البناء القومي، اذا نحن خلقنا رياضيين لا رجالا واعين ، فسرعان ما سنشهد تفسخ الرياضة لعبا . يجب أن لا تكون الرياضة ألهية تلهو بها بورجوازية المدن . ان المهمة الكبرى التي تقع على عاتقنا هي أن ندرك في كل لحظة ما يحدث في بلادنا . يجب أن لا ينصرف همنا الى ايجاد الفرد الفذ ، الى خلق البطل ، يجب أن نرفع مستوى الشعب ، أن ننمّي عقل الشعب ، أن نجهز الشعب ، أن ننوعه أن نجعله انسانيا .

وها نحن أولاء نعود الى تلك الفكرة الهامة التي نريد أن يعتنقها جميع السياسيين الافريقيين ، أعني ضرورة تنوير الجهد الشعبي ، ضرورة تنوير العمل ، وتخليصه من الظلام الذي تراكم عليه عبر التاريخ . ان على من يتحمل مسؤولية الحكم في بلد متخلف أن يدرك أن كل شيء مرهون أخيرا بتربية الجماهير ، بتثقيف الجماهير ، برفع مستوى تفكير الجماهير ، بما يسمى ادخال الجماهير في السياسة .

وكثيرا ما يظن في خفة وطيش اجرامي أن ادخال الجماهير في السياسة

انما يكون بالقاء خطاب سياسي كبير من حين الى حين • كثيرا ما يظن أنه يكفي أن يتولى الزعيم أو أحد المسؤولين أن يتحدث الى الجماهير بلهجة متفيهقة متعالمة عن كبريات مشكلات الساعة حتى يكون قد قام بواجبه في مضمار توعية الجماهير وادخالها في الحياة السياسية • ولكن التوعية السياسية انما تعني في الواقع فتح الأفهام ، ايقاظ العقول ، اقحام الأذهان في العالم • انها كما قال سيزار : « خلق نفوس » • ان ادخال الجماهير في الحياة السياسية لا يكون ولا يمكن أن يكون بالقاء خطاب سياسي ، وانما يكون بالعمل العنيف الدائب على افهام الجماهير أن كل شيء رهن بها ، فاذا ركدنا فهي المسؤولة عن ركودنا واذا تقدمنا فهي المسؤولة أيضا عن تقدمنا ، وأن الشعب هو الخالق ، وأنه ما من رجل شهير يمكن أن يكون مسؤولا عن كل شيء ، وأن الأيدي الساحرة التي تحقق المعجزات انما هي أيدي الشعب • ومن أجل تحقيق هذه الأمور ، ومن أجل تجسيدها حقا ، لا بد من الابتعاد عن السيطرة المركزية الى أبعد حد ممكن من الابتعاد • ان الانتقال من القمة الى القاعدة ومن القاعدة الى القمة يجب أن لا يكون هو المبدأ الصلب الذي نتمسك به أشد التمسك لا من قبيل الحرص على الشكل ، بل لأن التقيد بهذا المبدأ هو الذي يكفل لنا السلامة • فمن القاعدة انما تصعد القوى التي تحرك القمة وتتيح لنا أن نحقق وثبة جديدة : وأعود فأقول اننا معشر الجزائريين قد أدركنا هذه الأمور بسرعة عظيمة ، فما من عضو من أعضاء أية قمة احتكر لنفسه مهمة تحقيق الخلاص • ان القاعدة هي التي تقاتل في الجزائر ، وهذه القاعدة لا تجهل أن القمة لا يمكن أن تصمد الا بما تخوضه القاعدة من كفاح يومي بطولي شاق ، لا ولا تجهل أنه ما لم يكن هنالك قمة وما لم يكن هنالك قيادة فان الفوضى والبلبلة ما تلبثان أن تهدما القاعدة • ان القمة لا تستمد قيمتها وقوتها الا من وجود الشعب في ساحة القتال ، بل قل ان الشعب هو الذي يخلق لنفسه قمة ، وليست القمة هي التي تحمل الشعب •

يجب أن تعلم الجماهير أن الحكومة والحزب هما في خدمتها • والشعب الذي يشعر بكرامته ، الشعب الذي يعي كرامته ، لا يمكن أن ينسى هذه الحقائق • لقد قيل للشعب أثناء الاحتلال الاستعماري ان عليه أن يضحي بحياته في سبيل الكرامة ، ولكن الشعوب الافريقية سرعان ما أدركت أن كرامتها لا يجحدها المحتل فحسب ، سرعان ما أدركت أن هناك تساويا مطلقا بين الكرامة والسيادة • فالشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي ينعم بالسيادة • ان الشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي يتحمل المسؤولية • وليس يجديكم أن « تبينوا » أن الشعوب الافريقية كالأطفال أو كضعاف العقول • ان للحكومة والحزب شعبا هو الذي يستحقانه ، وان للشعب بعد زمن يقصر أو يطول حكومة هي التي يستحقها •

ان التجربة المحسوسة في بعض المناطق تدل على وجود مثل هذه المواقف • ففي أثناء بعض الاجتماعات يتفق لبعض اعضاء الحزب أن يعودوا

من أجل حل المسائل الصعبة، الى هذه الصيغة: « لا شيء الا ٠٠٠» ٠ وهذا الاختصار القطعي الذي تسيطر عليه العفوية والتبسيطية سيطرة خطرة ولا يقوم على انضاج عقلي هو الذي ينتصر في كثير من الأحيان ٠ فعلينا حين نصادف مثل هذا الصدوف عن المسؤولية لدى عضو من أعضاء الحزب أن لا نكتفي بتخطئته ، وانما يجب أن نجعله مسؤولا ، أن ندعوه الى المضي في تفكيره الى أقصاه ليلمس باصبعه ما يتصف به هذا القول : « لا شيء الا ٠٠٠ » من قسوة وشراسة ، ومن بعد عن الروح الانسانية ، ومن عقم في آخر الأمر ٠ ما من أحد يستأثر بالحقيقة ، لا القائد ولا العضو ٠ ان البحث عن الحقيقة في أوضاع محلية انما هو من شأن الجماعة كلها ٠ قد تكون تجربة بعض الأفراد أقدر من بعض في سرعة البت في الأمور ، قد يكون بعض الأفراد أوسع من بعضهم نظرة بحكم ما أتيح لهم من خبرة ٠ ولكن على هؤلاء أن لا يطغو على الشعب طغيانا ، لأن نجاح القرار المتخذ متوقف على التزام الشعب كله لهذا القرار التزامـا منسجما واعيا ٠ ما من أحد يمكن أن يتنصل من القضية ٠ ان جميع النـاس سيصرعون أو سيعذبون ، وان جميع الناس في اطار الاستقلال سيجوعـون وسيشاركون في الفقر والركود ٠ ان المعركة الجمـاعية تستلزم مسؤوليـة جماعية في القاعدة ومسؤولية مشتركـة في القمة ٠ نعـم يجب أن نورط جميع الناس في المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العـام ٠ ليس هناك أيد نقية ، ليس هناك أبرياء ، ليس هناك « متفرجون » ٠ نحن جميعـا بسبيل تلطيخ أيدينا في مستنقعات أرضنا وفي الفراغ الرهيب الذي يرين على عقولنا ٠ كل « متفرج » جبان أو خائن ٠

ان من واجب القيادة أن تكون الجماهير معها ٠ والمنـاصرة تفترض الوعي ، تفترض فهم المهمة التي يجب النهوض بها ، تفترض حدا أدنى مـن ادراك الأمور ادراكا عقليا ٠ يجب أن لا نفتن الشعب ، يجـب أن لا نغرق الشعب في الانفعال والابهام ٠ ان البلاد المتخلفة التي تقودها صفوة ثوريـة منبثقة عن الشعب تستطيع وحدها اليوم أن تتيح للجماهير أن تصعد الى مسرح التاريخ ٠ ولكنني أعود فأقول يجب علينا أن نعارض معارضة شديدة حاسمة في نشوء بورجوازية وطنية ، في قيام طبقة من أصحاب الامتيازات ٠ ان ادخـال الجماهير في السياسة معناه أن نجعل الأمة كلها حاضرة في كل مواطن ، معناه أن نجعل تجربة الأمة تجربة كل مواطن ٠ وكما قال الرئيس أحمد سيكوتوري في رسالته التي وجهها الى المؤتمر الثاني للكتـاب الافريقيين : « يستطيع الانسان على صعيد الفكر أن يتشوف الى أن يكون دماغ العـالم ، أما على صعيد الحياة المحسوسة الملموسة حيث نرى كل عمـل يؤثر في الوجود المادي والروحي فان العالم هو دماغ الانسان دائما ، اذ على هذا المستوى انما تتجمع القدرات والوحدات المفكرة والقوى المحركة التي تحقق التقدم والكمال، على هذا المستوى انما يتم انصهار الطاقات ويتحقق مجموع القيم الفكرية للانسان٠» ان التجربة الفردية متى كانت قومية ، متى كانت خيطـا في نسيج الوجـود

القومي لم تبق فردية محدودة ضيقة ، بل أصبحت قادرة على أن تطل على حقيقة الأمة والعالم ٠ وكما كان كل مقاتل في مرحلة الكفاح يحمل الأمة كلها على ذراعيه ، فكذلك يجب في مرحلة البناء القومي أن يستمر كل مواطن على أن يرتبط في عمله اليومي المحسوس بمجموع الأمة ، على أن يجسّد حقيقة الأمة في حركتها ، على أن يريد انتصار الانسان هنا والآن ٠ إذا كان بناء جسر لا يغني وعي أولئك الذين يبنون الجسر ، فلا كان الجسر ٠٠٠ وليظل المواطنون يعبرون النهر سباحة أو على قارب ٠٠٠ يجب أن لا يهبط الجسر من السماء ، يجب أن لا ينزل الجسر على المجتمع من أعلى ، بل يجب ان يخرج الجسر عن عضلات المواطنين ومن أدمغتهم ٠ صحيح أننا ربما احتجنا الى مهندسين والى معماريين قد يكونون أجانب تماما ، غير أن على المسؤولين المحليين في الحزب أن يعملوا على ان ينفذ التكنيك الى دماغ المواطن ، بحيث يستطيع المواطن ان يفهم الجسر جملة وتفصيلا وعلى ان يتصوره ويتبناه ٠ يجب ان يستطيع المواطن ان ينسب الجسر اليه ٠ وعندئذ فقط انما يصبح كل شيء ممكنا ٠

ان على حكومة تنادي بأنها قومية ان تحمل مجموع الامة ، والشبيبة في البلاد المتخلفة هي أهم قطاعات الأمة ، فيجب أن نرفع مستوى وعي الشبيبة ، يجب أن ننور الشبيبة ٠ وهذه الشبيبة هي التي يجب أن نجدها في الجيش الوطني ٠ فمتى قمنا بالشرح والتنوير على مستوى الشبيبة ، متى حقق « اتحاد الشبيبة الوطني » مهمته ، أعني مهمة ادماج الشبيبة في الأمة ، كان في وسعنا عندئذ أن نتفادى الأخطاء التي آذت بل خرّبت مستقبل جمهوريات أمريكا اللاتينية ٠ ليس الجيش مدرسة حرب بل مدرسة تنوير للمواطنين ، مدرسة سياسية ٠ ليس الجندي في أمة راشدة جنديا مستأجرا بل هو مواطن يدافع عن الأمة بالسلاح لذلك كان من الأمور الأساسية أن يعرف الجندي أنه في خدمة بلده لا في خدمة ضابط من الضباط مهما يكن لهذا الضابط من هيبة وتأثير ٠ يجب أن نستفيد من الخدمة الوطنية ، المدنية والعسكرية ، في رفع مستوى الوعي القومي ، في القضاء على القبلية ، في توحيد الصفوف ، ويجب في البلاد المتخلفة أن نعمل بأقصى سرعة ممكنة على تعبئة الرجال والنساء ٠ يجب على البلاد المتخلفة أن تتحاشى الاستمرار على التقاليد الاقطاعية التي تغلّب عنصر الرجال على عنصر النساء ٠ يجب أن تنال النساء منزلة كمنزلة الرجال سواء بسواء لا في مواد الدستور بل في الحياة اليومية ، في المصنع ، وفي المدرسة ، وفي المجالس ٠ واذا كانت البلاد الغربية تضع العسكريين في ثكنات ، فليس هذا أحسن الحلول دائما ٠ لسنا مضطرين الى جعل المجندين عسكريين ٠ ان خدمة العلم يمكن أن تكون مدنية مثلما يمكن أن تكون عسكرية ، ويجب على كل حال أن يكون كل مواطن سليم قادرا على أن ينضم في كل لحظة الى وحدة من وحدات القتال دفاعا عن المكتسبات القومية والاجتماعية ٠

ان الانشاءات الكبرى ذات المصلحة المشتركة يجب أن نستطيع تنفيذها

بواسطة المجندين • تلكم وسيلة رائعة لتنشيط المناطق الراكدة ، ولاطلاع عدد كبير من المواطنين على واقع البلاد • يجب أن نتحاشى تحويل الجيش الى هيئة مستقلة يحملها الفراغ والتعطل وعدم وجود مهمة تضطلع بها على ان « تعمل في السياسة » عاجلا أو آجلا • إن جنرالات الصالونـــات يحلمون باستلام السلطة من كثرة ما يختلفون الى مكاتب السلطة • والسبيل الوحيدة الى تفادي ذلك هي أن نحمل الوعي السياسي الى الجيش ، هي أن ندخل الجيش في حياة الأمة • وكذلك يجب أن نبادر الى مضاعفة الحرس الوطنـــي • فاذا قامت حرب كانت الأمة كلها تقاتل وتعمل • يجب أن لا يكون هناك جنـــود محترفون ، ويجب أن نخفض عدد الضباط المحترفين الى أدنى حد ، أولا لان الضباط ينتقون في أكثر الأحوال من بين صفوف الجامعيين الذين يمكن أن يكونوا أنفع كثيرا في هذا المجال : ان الأمة أحوج ألف مرة الى مهندس منها الى الضابط ، وثانيا لأن علينا أن نتحاشى تبلور عقلية طبقية عسكرية • لقد رأينا على الصفحات السابقة أن الدعوة القومية ، هذه الأنشودة الرائعة التي أثارت الجماهير على المتسلط الغاشم ، تتحلل غداة الاستقلال ، لأنها لم تكن عقيدة سياسية ولم تكن برنامجا اجتماعيا • فاذا أردنا حقا أن نجنب البلاد أمثال هذه النكسات وهذه الوقفات وهذه التدهورات كان علينا أن نســـارع إلى الانتقال من الوعي القومي الى الوعي السياسي والاجتماعي • لا وجود للأمة الا ببرنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقا قائما على الفهم الواضح والحماسة الثابتة • ويجب علينا دائما أن نضع الجهد القومي في هذا الاطار العام ، اطار البلاد المتخلفة • يجب أن تكون الجبهات التي نقاتل فيها ، جبهة الجوع ، جبهة الجهل ، جبهة البؤس ، جبهة تأخر الوعي ، يجب أن تكون هذه الجبهات ماثلة في أذهان رجالنا ونسائنا وفي عضلاتهم ، ويجب أن يكون عمل الجماهير وعزمها على تحطيم الحواجز التي أبعدتها عن تاريخ العقل الانساني قرونا طويلة ، يجب أن يكون هذا العمل وهذا العزم مرتبطين بعمل وعزم سائر الشعوب المتخلفة • هناك نوع من الجهد الجماعي والمصير المشترك في مستوى الناس المتخلفين • ان الأنباء التي تهم شعوب العالم الثالث ليست هي الأنباء التي تتحدث عن زواج الملك بودوان أو عن فضائح البورجوازية الايطالية • ان ما نريد أن نعرفه هو التجارب التي قام بها الأرجنتينيون أو البرمانيـــون في مضمار مكافحة الامية أو محاربة النزعات الدكتاتورية لدى الحكام • تلكـم عناصر تقوينا ، وتعلمنا ، وتضاعف جدوى عملنا • هكذا ترون أن وجـــود برنامج أمر لا بد منه لحكومة تريد حقا أن تحرر الشعب سياسيا واجتماعيا : هو برنامج اقتصادي ، ولكنه أيضا يذهب في توزيع الثروات وفي العلاقات الاجتماعية • فالواقع أنه يجب أن يكون لنا مفهوم عن الانسان ، يجـــب أن يكون لنا مفهوم عن مستقبل الانسانية • معنى ذلك انـــه مـــا من أسلوب ديماغوجي ، وما من تواطؤ مع المحتل القديم يمكن أن يغني عن برنامج • ان الشعوب التي كان ينقصها الوعي ثم أصبحت تسير في طريق الوعي سيرا حثيثا

تطالب بهذا البرنامج مطالبة قوية • ان الشعوب الافريقية ، الشعوب المتخلفة، تبني وعيها السياسي والاجتماعي بسرعة كبيرة خلافا لما يظن والأمر الذي يمكن أن يكون خطرا هو أن تصل الى هذا الوعي الاجتماعي قبل المرحلة القوميـة ، لذلك قد نجد في البلدان المتخلفة مطالبة بالعدل الاجتماعي مرتبطة ارتباطا غريبا بقبلية كثيرا ما تكون بدائية • ان سلوك الشعوب المتخلفة هو سلوك أناس جائعين • معنى هذا ان أيام أولئك الذين يتسلون وينهون في افريقيا هي أيام معدودات • أريد أن أقول ان حكمهم لا يمكن أن يستمر الى غير نهاية • ان البورجوازية لا تقدم للجماهير غذاء غير الحماسة القومية مخفقة في تحقيق مهمتها ، متورطـة حتما في سلسلة من المزالق والمهالك • انك ما لم تبرز مضمون الدعوة وتعمقها، وما تحلها بسرعة الى وعي سياسي واجتماعي ، الى تطلع انساني ، فانك تسير في طريق مسدودة غير نافذة • ان القيادة البورجوازية في البلاد المتخلفة تحيل الشعور القومي الى شكلية عقيمة • لا شيء غير انخراط جماهير الرجـــال والنساء في القيام بأعمال نيِّرة خصبة يمكن ان يبث في هذا الشعور القومي مضمونا ، وان يهب له كثافة • وعندئذ لا يظل العلم الوطني وقصر الحكومة هما الرمزين اللذين يمثلان الأمة ، وانما تهجر الأمة هذه الاماكن الاصطناعيـة ، وتمضي الى الأرياف تستمد منها الحياة والحركة • ان التعبير الحي عن الأمة انما هو الوعي الذي يحرك مجموع الشعب ، هو العمل المنسق النيِّر يندفع فيه الرجال والنساء • إن تولي الجماعة بناء مصيرها هو تحمل مسؤولية على مستوى التاريخ • والا فثمَّ الفوضى ، والقمع ، وظهور الاحزاب القبليـــة ، وظهور الدعوة الفدرالية، وما الى ذلك • على الحكومة القومية ، اذا هي أرادت أن تكون قومية ، أن تحكم بالشعب ومن أجل الشعب ، ان تحكم من أجـــل المحرومين وبالمحرومين • ما من زعيم ، مهما تكن قيمته ، يمكن أن يحل نفسه محل الارادة الشعبية • وعلى الحكومة القومية قبل أن تعنى بمهابتها الدولية ، أن ترد الكرامة الى كل مواطن ، أن تجز العقول ، أن تملأ الأعين بأشياء انسانية، أن تملأ الأفق بنظر انساني ، انساني لأنه يسكنه أناس واعون أسياد •

في الثقافة القومية

« ليس يكفي ان تؤلف اغنية ثورية حتى تشارك في الثورة الافريقية ، وانما ينبغي ان تصنع هذه الثورة مع الشعب ، ثم تاتي الاغاني من تلقاء ذاتها .

من اجل ان تؤثر تاثيرا صادقا ، يجب ان تكون انت نفسك جزءا حيا مـــن افريقيا وفكرها ، يجب ان تكون عنصرا من عناصر هذه الطاقة الشعبية المجندة كلهـا لتحرير افريقيا وتقدمها وسعادتها . ليس هناك اي مكان في خارج هذه المعركة .. لا للفنان ولا للمثقف الذي ليس منخرطا هو نفسه وليس معبا كله مع الشعب ، في المعركة الكبرى التي تخوضها افريقيا والانسانية المعذبة » .

سيكوتوري (١)

لا بد لكل جيل أن يكتشف رسالته وسط الظلام ، فاما أن يحققها واما أن يخونها . والأجيال السابقة في البلاد المتخلفة قد قامت بعملين في آن واحد : قاومت أعمال الاستنزاف التي تابعها الاستعمار ، وهيأت نضج الكفاح الذي نخوضه الآن . فيجب علينا ونحن في قلب المعركة أن نقلع عن تلك العادة التي تعودناها وهي أن نبخس الأعمال التي قام بها آباؤنا حقها ، وأن نتعجب من صمتهم أو سلبيتهم . فالحق أن آباءنا قد ناضلوا كما استطاعوا ، ناضلـــوا بالأسلحة التي كانوا يملكونها أيامئذ ، واذا لم تترجع أصداء نضـــالهم على المستوى الدولي ، فليس مرد ذلك الى نقص بطولتهم بل الى أن الظرف الدولي في ذلك العهد يختلف عن الظرف الدولي الحالي اختلافا كبيرا . لقد كان لا بد أن يقول أكثر من مستعمَر : « لا يمكن أن يدوم هذا الوضع » ، وكان لا بد أن تقوم أكثر من قبيلة بعصيان ، وكان لا بد أن تخمد أكثر من ثـورة ، وأن تقمع أكثر من مظاهرة ، كان لا بد من ذلك كله حتى نستطيع نحن اليوم أن نقوم بكفاحنا مؤمنين بالنصر .

١ ــ احمد سيكوتوري ، « الزعيم السياسي كممثل لحضارة » ، خطاب في المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود ، روما ، ١٩٥٩ .

أن مهمتنا التاريخية نحن الذين قررنا أن نمزّق أحشاء الاستعمار ، هي أن نرتب جميع الثورات وجميع الأعمال المستميتة وجميع المحاولات التي أجهضت أو غرقت في الدم ٠

وسأحلل في هذا الفصل تلك المسألة التي نشعر أنها أساسية ، أعني مشروعية المطالبة بانشاء أمة ٠ يجب أن نعترف ان الحزب السياسي الذي يعبىء الشعب لا يعنى كثيرا بمسألة المشروعية هذه فالأحزاب السياسية تنطلق من الواقع الحيّ المعيش ، وهي باسم هذا الواقع ، باسم هذا الواقع الراهن الذي يجثم على الحاضر والمستقبل ، انما تدعو الى العمل ٠ قد يتحدث الحزب السياسي عن الأمة بعبارات تؤجج العاطفة ، ولكن الشيء الذي يهمه هو أن يفهم الشعب الذي يسمع حديثه ضرورة المشاركة في المعركة اذا هو كان يطمح الى الوجود والبقاء ٠

لقد أصبحنا نعرف الآن أن الاستعمار ، في المرحلة الأولى من مراحل الكفاح الوطني ، يحاول ان يشل المطمح القومي ، باسباغ طابع اقتصادي عليه، فتراه منذ بزوغ المطالب الأولى يتظاهر بالفهم ويعترف في تواضع مسرحي بأن البلاد تشكو من تخلف خطير يوجب بذل جهد اقتصادي واجتماعي كبير ٠

حتى ليحدث في الواقع ان يتخذ الاستعمار بعض الاجراءات الخدّاعة ، كفتح ورشات لتشغيل العاطلين هنا وهناك ، فاذا بهذه الاجراءات تؤخر تبلور الوعي القومي بضع سنين ٠ ولكن الاستعمار يدرك عاجلا أو آجلا أنه ليس في وسعه أن يحقق اصلاحات اقتصادية اجتماعية يمكن ان ترضي مطامح الجماهير المستعمَرة ٠ فحتى على مستوى البطن يبدو الاستعمار عاجزا راسخا ٠ وسرعان ما تدرك الدولة الاستعمارية ان اسكات الأحزاب الوطنية في المجال الاقتصادي الصرف سيوجب عليها أن تفعل في المستعمرات ما لم تشأ أن تفعله في أراضيها نفسها ٠ وليس من قبيل الصدفة أن نرى النظرية الكارتييرية تزدهر اليوم بعض الازدهار في كل مكان «١» ٠

ان المرارة التي شعر بها كارتييه ازاء اصرار فرنسا على أن تربط بها أناسا يجب عليها ان تطعمهم في حين أن كثيرا من الفرنسيين يعيشون في حالة اعسار ، ان تلك المرارة تظهر عجز الاستعمار عن ان يصبح برنامجا مجردا عن المنفعة للمعونة والمساعدة ٠ لذلك أعود فأقول ان علينا ان لا نضيّع وقتنا في ترديد ذلك الشعار القائل بأن الجوع مع الكرامة خير من الخبز مع العبودية ٠ فانما يجب أن نقتنع بأن الاستعمار عاجز عن أن يوفر للشعوب المستعمرة الظروف المادية التي يمكن ان تنسيها اهتمامها بالكرامة ٠ وكلما فهم الاستعمار الى أين يمكن ان يجرّه أسلوب الاصلاحات الاجتماعية رأيناه يعود الى

---

١ ـ نسبة الى جاك كارتييه ، البحار الفرنسي « ١٤٩١ ـ ١٥٥٧ » الذي وصل الى كندا وسماه الفرنسيون مكتشف كندا ٠ « المترجم »

طرائقه السابقة ، فيعزز قوى الشرطة ، ويرسل فرق الجيش ، ويقيم نظاما ارهابيا يتلاءم مع مصالحه ونفسيته تلاؤما أكمل ٠

أننا نرى بين رجال الأحزاب السياسية حينا ، وعلى موازاة هذه الاحزاب أحيانا ، أناسا من أهل الثقافة المستعمـرين يتخذون المطالبة بحضارة قوميـة والبرهان على وجود هذه الحضارة القومية ميدانا لمعركة مفضلة ٠ فبينما نجد السياسيين يتخذون الواقع الراهن ميدانا لعملهم ، نرى رجال الثقافة هؤلاء يضعون نشاطهم في اطار التاريخ ٠ ومن الملاحظ ان الاستعمار لا يهتم كثيرا بالرد على المثقف المستعمَر الذي قرر أن يفند تفنيدا عنيفا النظرية الاستعمارية القائلة بأن الهمجية هي التي كانت تسود المستعمَرات قبل استعمارها ، لا سيما وان الأفكار التي تقول بها الطبقة المثقفة المستعمَرة الناشئة يقول بهـا المختصون الأوروبيون أنفسهم على نطاق واسع ، فان عددا كبيرا من الباحثين الأوروبيين قد أخذوا منذ عدة عقود من السنين يحاولون ، على وجه الاجمال ان يردوا الاعتبار الى حضارات افريقيا والمكسيك وبيرو ٠ وقد استغرب بعضهم الحماسة الشديدة التي يظهرها المثقفون المستعمَرون في الدفاع عن وجـود حضارة قومية ٠ ولكن الذين يستنكرون هذه الحماسة المتأججه ينسـون ان نفسيتهم ، ان ذواتهم تعتصم مرتاحة وراء حضارة فرنسية او ألمانية برهنت على نفسها ولا يستطيع احد أن يجحدها ٠

واني لأسلـّم بأن وجود حضارة أزتكية قديمة ليس له ، على صعيد الحياة، كبير شأن ، فهو لا يبدل شيئا من النظام الغذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي اليوم ٠ واني لأسلمَ ايضا بأن جميع البراهين التي يمكن الاتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قد قامت في الماضي لا تبدل شيئا من الواقع الذي يعيشه شعب سونغاي اليوم ، وهو ان أفراد هذا الشعب لا ينـالون نصيبهم من الغذاء ، ولا يعرفون القراءة والكتابة ، وانهم مقيمون بين السمـاء والماء قد فرغت رؤوسهم وفرغت أعينهم٠ ولكن سبق ان قلنا غير مرة انهذا البحث المجموع عن حضارة قومية سابقة على العهد الاستعماري انما يستمد مشروعيته من حرص المثقفين المستعمَرين على أن يبتعدوا قليلا الى الوراء أمام الحضارة الغربية التي يهون ان يغوصوا فيها ٠ ان هؤلاء الرجال يشعرون بأنهم يوشكون ان يفقدوا أنفسهم ، وأن يفقدهم شعبهم ، فتراهم يندفعون اندفاعـا عنيفا ، وقد تأججت قلوبهم وطاشت عقولهم ، الى الاتصال بأقدم ينابيـع شعبهم ، بأبعدها عن عهد الاستعمار ٠

ولنوغل في التحليل اكثر من ذلك ٠ ان هذه الحماسة الشديدة وهذا التأجج المحموم ربما كان يغذيهما او يوجههما على الأقل ذلك الأمل الخفي الذي يقوم في نفوس هؤلاء المثقفين ، وهو ان يكتشفوا وراء البؤس الراهن ، وراء هذا الاحتقار للذات ، وراء هذا الانسحاب وهذا الانكار ، عصرا جميلا جدا ساطعا جدا يرد الينا الاعتبار في نظر أنفسنا وفي نظر الآخرين معا٠ اقول انني اردت ان اوغل في التحليل : لعل المثقفين المستعمرين قد ارادوا ، لا شعوريا ، حين

رأوا أنهم لا يستطيعون أن يحبوا التاريخ الراهن الذي تعيشـــــه شعوبهم المضطهدة ، ولا أن يعجبوا بتاريخ همجياتهم الحالية ، أرادوا ان يذهبوا الى ابعد من ذلك ، ان يهبطوا الى أبعد من ذلك ، ويجب ان لا نشك ابدا في انهم حين اكتشفوا ان الماضي لم يكن عارا بل كرامة ومجدا وعظمة قد شعروا بنشوة لا تدانيها نشوة • ان البرهان على وجود حضارة قومية قديمة ،لا يرد الاعتبار فحسب ، لا يدل على أن حضارة قومية جديدة ستقوم في المستقبل فحسب ، وانما هو ايضا ، على صعيد التوازن النفسي العاطفي، يحقق للمستعمَر وثبة كبرى • لعل الباحثين لم يوضحوا توضيحا كافيا الى الآن كيف ان الاستعمار لا يكتفي بتكبيل الشعب ، ولا يكتفي بأن يفرغ عقل المستعمَر من كل شكل وكل مضمون ، بل هو يتجه ايضا الى ماضي الشعب المضطهَد فيحاول بنوع من فجور المناطق أن يهدّمه وأن يشوهه وأن يبيده • ان هذه المحاولة التي يحاولها الاستعمار اذ يجرد تاريخ البلاد المستعمَرة ، السابق على الاستعمار من كل قيمة ، انما تتخذ اليوم دلالتها الجدلية •

اننا اذا فكرنا في الجهود التي بذلت من أجل تحقيق الضياع الحضاري الثقافي الذي يتميز به العهد الاستعماري ، أدركنا انه ما من شيء تمّ مصادفة، وان النتيجة الكلية التي ابتغتها السيطرة الاستعمارية هي ان تقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام • ان النتيجة التي سعى اليها الاستعمار سعيا واعيا هي ان يدخل في روع السكان الأصليين أن رحيل المستوطن الأوروبي سيردهم الى الهمجية والوحشية والحيوانية • فالاستعمار لم يكن يحاول اذن ان يجعل السكان الأصليين ينظرون اليه نظرتهـــم الى أم تترفق بهم وتعطف عليهم وتحاول ان تحمي أطفالها من بيئة ضارة ، بل نظرتهم الى أم تعمل بغير انقطاع على أن تمنع طفلا فاسد التكوين من ان يؤذي نفسه وأن يستطيع الانتحار ، وان ينجرف مع غرائزه الخبيثة • ان هذه الأم المستعمِرة تحمي الطفل من نفسه ، من ذاته ، من تكوينه الفزيولوجي ، من تكوينـــــه البيولوجي ، من شقائه الوجودي •

وفي مثل هذا الظرف لا يكون مطمح المثقف المستعمَر ترفا كماليا بل ضرورة عملية منسجمة • ان المستعمَر الذي يضع معركتــــه على مستــوى المشروعية ، الذي يريد ان يأتي ببراهين ، الذي يرتضي ان يعرّي جسمه في سبيل ان يعرض تاريخ جسمه عرضا أصح ، انما هو محمول حملا على الغوص في أعماق شعبه •

وليس هذا الغوص قوميا فحسب • ان المثقف المستعمَر الذي يقرر أن يعلن الحرب على الأكاذيب الاستعمارية ، ان يخوض المعركة على مستوى القارة كلها • انه يحاول ان يظهر قيمة الماضي بالنسبة الى جميع الشعوب الافريقية • ان الحضارة التي ينتزعها من غياهب الماضي لينشرها بكل ما فيها من روعـــة وسناء ، ليست حضارة وطنه وحده • ان الاستعمار لم يفرق في جهوده التي بذلها في هذا المضمار بين بلد وبلد ، وانما أكد دائما ان الزنجـــي متوحش ، والزنجي عنده ليس هو الأنجولي او النيجري ، وانما هو الزنجي عامة على

اطلاق القول · لقد تحدث الاستعمار عن « الزنجي » · قال ان هذه القـــارة الواسعة هي مرعى متوحشين ، بلد موبوء بالخرافات والتعصب ، بلد منحـــط محتقر ملعون من السماء ، بلد يسكنه أكلة لحوم البشر ، بلد زنـــوج · ان الاحتقار الذي يمحضنا اياه الاستعمار يتناول القارة الافريقية كلها · ان قول الاستعمار بأن العهد السابق عليه كان ظلاما وهمجية ووحشية يشمل مجموع القارة الافريقية · فمن المنطقي والحالة هذه أن تتم الجهود التي يبذلها المستعمَر في سبيل استرداد اعتباره وفي سبيل الافلات من هذا الشتم الذي يكيله له الاستعمار ، من المنطقي ان تتم هذه الجهود على النطاق الـذي يتنـــاوله الاستعمار نفسه · فالمستعمَر المثقف الذي وعى ثقافة الغرب وقرر أن ينادي بوجود حضارة قومية ، لن يفعل ذلك باسم أنجولا او باسم داهومي · بـــل ستكون الحضارة التي يؤكد وجودها هي الحضارة الافريقية عامة · ان الزنجي الذي لم ينقطع يوما عن ان يكون زنجيا منذ تسلط عليه الأبيض ، لا بد ان يدرك حين يقرر أن يبرهن على ثقافة وحين يقرر أن يصنع حضارة ، لا بد أن يدرك أن التاريخ يفرض عليه أفقا معينا ، ويدله على طريق معينة ، وأن عليه أن يظهر حضارة زنجية ·

ولا مشاحة ان المسؤولين عن اضفاء هذا الطابع العرقي على الفكر أو على الخطوات التي خطاها الفكر انما هم الاوروبيون · ان الأوروبيين هم المسؤولين عن هذا ، وسيظلون مسؤولين عنه لأنهم هم الذين ظلوا وما يزالون يقابلون بين حضارة البيض وبين اللاحضارات الاخرى · لقد رأى الاستعمار أن عليه ان لا يضيع وقته في انكار حضارات الأمم الافريقية فرادى ، واحدة بعد أخرى ، وانما انكرها كلها دفعة واحدة ، لذلك كان رد المستعمَر عليه يشمل القــارة بأسرها كذلك · ان أدب البلاد المستعمَرة الذي ظهر في افريقيا في السنـين العشرين الأخيرة ليس ادبا قوميا بل هو أدب زنجي · وما هذا الاعتـــــزاز بالانتماء الى الأدب الزنجي الا بالرد العاطفي ، ان لم يكن المنطقي ، على الاهانة التي يلحقها الانسان الأبيض بالانسانية · ان مثقفي غينيا او كينيا الذين وجدوا أنفسهم عرضة لتعصب عرقي شامل ، ولاحتقار منظم يمحضهم ايـــاه المستعمِر المتسلط قد ردوا على ذلك بالزهو بأنفسهم والتغني بذواتهم · لقد تباهى الغرب بالحضارة الأوروبية بغير تحفظ ، فأعقب ذلك أن تبــــاهى الأفريقيون بالحضارة الافريقية بغير تحفظ أيضا فرأينا الشعراء الذين يتغنون بالانتماء الى الزنج يقابلون بين أوروبا التي دبت فيها الشيخوخة وبين افريقيا الفتية ، بين العقل المضجر وبين الشعر ، بين المنطق الخانق وبين الطبيعـة المنطلقة المتدفقة ، بين التجمد والاحتفالات والبروتوكول والريبية وبين صفاء القلب والاندفاع والحرية والفيض والغزارة ·

ولا يتردد المغنون بالزنوج عن تجاوز حدود القارة الافريقية · وها هي ذي أصوات زنجية من أمريكا تتلقف النشيد وتزيده سعة وقوة · سيبزغ فجر « العالم الزنجي » · وهؤلاء هم بوزيا الغـــاني ، وبيراغو ديوب السنغالي ،

وهامباتي السوداني ، وسان كيلر دراك الشيكاغوي ، يؤكدون في غير تردد وجود صلات مشتركة واتجاهات واحدة ٠

ونستطيع أن نضرب هنا مثالا بالعالم العربي ايضا ٠ انكم تعرفون ان القسم الأكبر من الأراضي العربية قد شملته السيطرة الاستعمارية ٠ وقد بذل الاستعمار في هذه المناطق جهودا كبيرة من أجل ان يرسخ في عقول أهلها أن تاريخهم السابق على الاستعمار تاريخ تسوده الهمجية ٠ فرأينا كفاح التحرير القومي مصحوبا بظاهرة ثقافية تعرف باسم يقظة الاسلام : رأينا الكتّاب العرب يتحمسون أشد التحمس لتذكير شعوبهم بالصفحات الرائعة من تاريخهم ، ردا على أكاذيب المستعمرين ، فهم يستعرضون أسماء عظماء الأدب العربي ، ويشهرون تاريخ الحضارة العربية بعنف وقوة كما فعل الأفريقيون بشأن الحضارات الافريقية ، ورأينا القادة العرب يحاولون بعث تلك الحضارة الشهيرة ، حضارة الاسلام ، التي سطعت سطوعا عظيما في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ٠

وعلى الصعيد السياسي نرى الجامعة العربية اليوم تجسد هذه الارادة ، ارادة بعث تراث الماضي ودفعه الى الذروة ، كما نرى الأطباء العرب والشعراء العرب يتنادون عبر الحدود محاولين خلق ثقافة عربية جديدة ، وحضارة عربية جديدة ٠ وباسم الوحدة العربية انما يجتمع اليوم هؤلاء الرجال ، وباسمها انما يحاولون ان يفكروا ٠ على اننا نلاحظ في العالم العربي ان الشعور الوطني ، قد احتفظ حتى أثناء السيطرة الاستعمارية ، بقوة لا نجد مثلها في افريقيا ٠ لذلك لا نرى في الجامعة العربية ذلك التواصل العفوي بين كل قطر وسائر الأقطار ، بل نرى كل قطر يحاول المفاخرة بما حققه ٠ ان الظاهرة الثقافية قد خرجت من اللاتميز الذي تتصف به في العالم الافريقي ، والعرب لا يتوصلون دائما الى التخلي عن النظرة الذاتية ازاء الواقع الموضوعي ٠ فتراهم لا يعيشون واقعا ثقافيا وطنيا بل عربيا ٠ والمشكلة التي يطرحها المثقفون العرب او الافريقيون على أنفسهم لم تصبح بعد مشكلة اقامة ثقافة وطنية ، لا ولا مشكلة اللحاق بحركة الأمم ، بل مشكلة تبني ثقافة عربية او افريقية ازاء ما يعمد اليه الاستعمار من ادانة شاملة واحتقار عام ٠ فعلى هذا الأساس نرى ، سواء لدى العرب ولدى الافريقيين ، أن مطمح المثقف في البلد المستعمَر مطمح شامل هو لدى المثقف الافريقي يشمل القارة كلها ، وهو لدى المثقف العربي يشمل العالم العربي كله «١» ٠

١ ـ يلاحظ القارىء العربي في هذه الفقرة من كلام المؤلف انه ليس محيطا بحركة القومية العربية الثورية احاطة تتيح له ان يستشهد بها في هذا السياق دون ارتكاب عدة اخطاء ، وواضح ان الخطأ الاساسي الذي انحدرت منه الاخطاء الأخرى هو ظنه أن هناك قوميات عربية ، كالقوميات الافريقية ، وأن هناك ثقافات قومية عربية كالثقافات القومية =

هذه الظروف التاريخية التي اضطرت رجال الثقافة الافريقيين الىأن يضفوا على مطالبهم ومطامحهم طابعا عرقيا ، فاذا هـــم يتحدثون عن ثقافة افريقية اكثر مما يتحدثون عنثقافة قومية ، ستؤذي بهم الىحرج لا يعرفون كيف يخرجون منه • انظروا مثلا الى « الجمعية الافريقية للثقافة » ان هذه الجمعية قد انشأها مثقفون افريقيون أرادوا أن يتعارفوا وأن يتبـــادلوا الخبرات والتجاربوالبحوث • فكان هدف هذه الجمعية اذنهو أن يؤكدوا وجود ثقافة افريقية، وانيثمنوا هذه الثقافة فياطار أمم معينة ، وأن يبرزوا الحيوية العميقة في كل ثقافة منهذه الثقافات الوطنية• ولكن هذه الجمعية كانت تلبي في الوقت نفسه مطلبا آخر ، هو أنتصطف الى جانب «الجمعية الأوروبية للثقافة » التي كانت تهدد بأن تصبح « جمعية عالمية للثقافة » • فلقد كان من البواعث التي دعت الى انشاء هذه الجمعيـــة اذن ان تكون حاضرة في الاجتماع العالمي ، متسلحة لذلك الاجتماع بجميع ما تملـك من اسلحة هي ثقافة نابعة من أزحام القارة الافريقية• والواقعان هذه الجمعية سرعان ما بدت عاجزة عن القيام بهذه المهمات المختلفـــة ، فاذا هي تكتفي بتظاهرات تفاخر ، ولا تزيد على أن تبينللأوروبيين المتبجحين النرجسيين أن هناك ثقافة افريقية ، فكذلك كانالسلوك المألوف لأعضاء هذه الجمعية• لقد سبق أن أوضحنا أن هذا الموقف طبيعي ، وأنـه يستمد مشروعيته من الأكاذيب التي أشاعها رجال الثقافة الغربيون • ولكن انهيار أهداف هـذه الجمعية قد تفاقم بنشوة فكرة الانتماء الى العرق الزنجـي • ان « الجمعية الافريقية للثقافة » قد اصبحت جمعية ثقافية للعالم الأسود كله ، وأصبحت تشمل جميع الزنوج ، وضمت اليها عشرات الألوف من السود المتـوزعين في القارتين الأمريكيتين •

والواقع أن الزنوج الموجودين فيالولايات المتحدة وفيأمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية كانوا في حاجة الى ان يتشبثوا باطار ثقـافي • وكانت المشكلة المطروحة عليهم لا تختلف اختلافا عميقا عن المشكلة التي يواجههـا الافريقيون • فان سلوك بيض أمريكا ازاءهم لا يختلف عن سلـوك البيض

الافريقية • لقد جهل ان العرب في جميع اقطارهم انما ينتمون الى قومية واحدة ، وان نضال العرب في جميع مراحله انما كان يهدف دائما الى التحرر القومي والى الوحدة القوميـة معا ، وأن تحقيق الوحدة انما هو عودة الى الواقع القومي السابق على الاستعمار ، لأن الاستعمـار هو الذي جزأ الوطن العربي ، وأن الثقافة العربية ثقافة واحدة من فجر وجودها الى يومنـا هذا ، وأن هناك تراثا ثقافيا واحدا للعرب جميعا في وطنهم العربي كله ، وان هـذا التراث الثقافي ظل حيا طوال تاريخ العرب ، لم ينقطعوا عنه ولا انقطع عنهم ، وان انقطعوا عـن اغنائه خلال فترات مظلمة من تاريخهم ، فليست عودتهم اليه كعودة شعوب افريقيا الىالتغني بحضارات قديمة ردا على محاولات الاستعمار •

« المترجم »

المسيطرين على افريقيا ازاء الافريقيين • وقد سبق ان رأينا ان البيض قد اعتادوا ان ينظروا الى جميع الزنوج نظرة واحدة ، ان يضعوهم جميعا في كيس واحد • فلما عقد المؤتمر الأول « للجمعية الأفريقية للثقافة » بباريز عام ١٩٥٦ ، رأينا الزنوج الأمريكيين يطرحون مشكلاتهم من تلقاء انفسهم على نفس الصعيد الذي كان اخوتهم الافريقيون يطرحون مشكلاتهم عليه •

ولكن الزنوج الأمريكيين ما لبثوا أن اخذوا يدركون شيئا بعد شيء أن المشكلات الوجودية التي يعانونها لا تلتقي مع مشكلات الزنوج الافريقيين• لقد كان زنوج شيكاغو لا يشبهون النيجريين والطانغانيقيين الا من حيث أن هؤلاء واولئك جميعا كانوا يعرّفون أنفسهم على أساس التعارض بينهم وبين البيض • حتى اذا انتهت المواجهات الأولى ، وهدأت الذاتية ، أدرك الزنوج الأمريكيون أن المشكلات الموضوعية مختلفة اختلافا عميقا ، وليس بينها شيء من التجانس • ان سيارات الحرية التي يطوفون عليها بيض وسود منادين بعدم التفريق العنصري لا تمت في مبدئها وفي أهدافها بصلة الى الكفاح البطولي الذي بخوض غماره شعب أنجولا ضد الاستعمار البرتغالي ، لذلك رأينا الزنوج الأمريكيين يقررون في المؤتمر الثاني « للجمعية الافريقية للثقافة » أن ينشئوا « جمعية أمريكية » لرجال الثقافة السود •

وهكذا فان فكرة الانتماء الى العرق الزنجي تصطدم أولا بالوقائع التي تفسر تاريخية الناس • لقد تفتتت فكرة الثقافة الزنجية، فكرة الثقافة الزنجية الافريقية ، لأن الناس الذين ارادوا أن يجسدوها أدركوا ان كل ثقافة انما هي ثقافة قومية قبل كل شيء، وان المشكلات التي أيقظت ريتشارد رايت أو لانجستون هوجز تختلف اختلافا اساسيا عن المشكلات التي أيقظت ليوبولد سنغور او جومو كنياتا •

كذلك نرى ان المشكلة الثقافية ، على نحو ما هي مطروحة في البلدان المستعمرة ، يمكن ان تؤدي الى التباسات خطيرة • ان اتهام الاستعمار للزنوج بأنهم لا ثقافة لهم قد أدى منطقيا الى تمجيد حماسي لا للظاهرات الثقافية القومية بل للظاهرات الثقافية الخاصة بالقارة كلها ، كما أدى الى اسباغ طابع عرقي على هذه الظاهرات الثقافية • ان سعي المثقف في افريقيا هو الى ثقافة زنجية افريقية لا الى ثقافة قومية خاصة• وبذلك تنقطع الثقافة عن الواقع الراهن ، وتروح تعتصم ببؤرة عاطفية متأججة ، وتعجز عن أن تشق لنفسها طرقا محسوسة هي الطرق الوحيدة التي يمكنها مع ذلك أن تهيىء لها صفات الخصوبة والتجانس والقوة •

وان كان التاريخ يحدد عمل المثقف المستعمر ، فان عمل هذا المثقف المستعمَر يساهم مساهمة كبيرة في دعم عمل السياسيين واظهار مشروعيته • ويجب أن نعترف بأن جهود المثقف المستعمَر قد تأخذ في بعض

الأحيان طابع عبادة ، طابع دين • ولكننا اذا أردنـــا ان نحلل هذا الموقف تحليلا عميقا ، أدركنا انه يعبر عن ادراك المستعمَـــر لخطر انقطـــاع آخر روابطه بشعبه • فهذه المناداة الحماسية بوجود ثقافة قوميـــة انما هي في واقع الأمر عودة حارة مستميتة الى أي شيء • فالمستعمَـــر ، من أجل ان يكفل خلاصه ، من أجل ان يفلت من غلبة ثقافة البيض ، يشعر ان عليه ان يرجع الى الجذور المجهولة ، وان يغرق في خضم هذا الشعب الهمجي مهما يكن من أمر • ان المستعمَر ، اذ يحس انه بسبيل الضياع ، بسبيـل ان يصبح محل تناقضات قد لا يمكن تجاوزها ، ينتزع نفسه من الغدير الذي يوشك ان يغوص فيه ، ويقرر بكل اندفاع جسمه واندفاع عقله ان يحمل القضية ، وان يؤكد ، ويكتشف ان عليه ان يكون مسؤولا عن كل الأمـور وعن جميع الناس• ولا يكتفي بعدئذ انيكون مدافعا ، وانما يقبل أن يحشر مـــع سائر الآخرين ، وفي وسعه منذ ذاك ان يسمح لنفسه بالضحك على جبنه السابق •

وهذا الانتزاع الشائك المؤلم هو مع ذلك أمر ضروري • ومـــا لم يتم فاننا نشهد انتبارات نفسية عاطفية هي على جـــانب كبير من الخطورة ، نشهد أناسا بلا شاطىء ولا حـــد ولا لون ولا وطن ولا جـــذور • كذلـــك لا نستغرب أن نسمع بعض المستعمَرين يقولون : « انني أتكلـــم بصفتي سنغاليا وفرنسيا •• انني اتكلـــم بصفتي جزائريا وفرنسيا ••• » • لقد كان على المثقف العربي الفرنسي ، أو النيجري الانجليزي ، حيـــن اضطر الى حمل جنسيتين ، الى حمل صفتين ، أن يختـــار انكار احـــدى هاتين الصفتين ، اذا هو اراد ان يكون صادقا • ولكن هـؤلاء المثقفين ، لأنهم في كثير جدا من الأحيان لا يريدوناو لا يستطيعون ان يختاروا ، يلمون جميع الصفات التي عرضها عليهم التاريخ الذي كوّنهم ، فاذا هم يضعون أنفسهم رأسا في « أفق عالمي » •

ذلك أن المثقف المستعمَر قد ارتمى علىالثقافة الغربية في نهم شديد• وكالطفل المتبنّى الذي لا يكف عن تحري الاطار العـــائلي الجديد الا حين يتبلور في نفسه حد أدنى من الشعور بالأمن ، ترى المثقف المستعمَر يحاول ان يجعل الثقافة الغربية ثقافته • انه لا يكتفيبأن يعرف رابليه أو ديدرو ، وشكسبير أو ادجار بو ، بل هو يشد دماغه الى أقصى حد من التشارك مع هؤلاء الناس :

ما كانت السيدة وحيدة
بل كان لها زوج
زوج ممتاز
« ما كانت السيدة وحيدة
بل كان لها زوج
زوج ممتاز

يروي راسين وكورناي
وفولتير وروسو
والاب هوجو والفتى موسيه
وجيد وفاليري
وكثيرا غيرهم » (١)

ولكن حين تعبيء الأحزاب الوطنية الشعب في سبيل الاستقلال الوطني، فان المثقف المستعمَر قد يركل برجليه في بعض الأحيان هذه المكتسبات التي يحس فجأة أنها تضيعه ٠ ومع ذلك فان المناداة بالنبذ أسهل من النبذ حقا٠ فهذا المثقف الذي تغلغل بتحايل الثقافة الى المدنية الغربية ، ووصل الى ان يدمج جسمه في جسمها ، أي الى ان يفقد جسمـــه ، لا يلبث أن يلاحظ ان الثقافة التي يريد الآن أن يحملها لحرصه على الأصالـــة ، لا تملك وجوها كثيرة تصمد للمقارنة بينها وبين الوجـوه الكثيرة المتألقـــة ، وجوه مدنية المستعمِر المحتل ٠

صحيح ان التاريخ ـ وقد كتبه من جهة أخرى غربيون لغربيين ـ يمكن ان يهب قيمة لبعض عهود الماضي الافريقي من حيـــن الى حين ، ولكن هذا المثقف ، حين يقف أمام حاضر بلاده ، ويلاحظ ملاحظة واضحة « موضوعية »، الواقع الراهن الذي تعيشه هذه القارة التي يريد ان يجعلها قارته ، يشعر برعب مما يرى من فراغ وهمجية وتوحش٠ واذ يشعر انه لا بد له من مبارحة ثقافة البيض ، وان عليه ان يبحث عن غيرها في أي مكان ، واذ يعجز عن العثور على غذاء ثقافي من مستوى الثقافة التي يعرض عليه المستعمِر منظرها المجيد الرائع ، تراه في كثير جدا من الأحيان يرتـد الى مواقع حمـــاسية متعصبة ، وتنمو في نفسه حساسية مفرطة شديدة التأذي سريعة الانجراح منطوية على نفسها ٠ وهذا الانطواء الذي يتصف في آليته الداخليـة وفي ملامحه الظاهرة بأنه انكفاء ، يولـّـد حنقا وتوترا عضليا ٠

وهذا هو السبب فيما يتصف به أسلوب الكتاب المستعمَرين الذين قرروا أن يعبروا عن هذه المرحلة من الوعي الآخذ بالانطلاق ، من انه أسلوب متصادم ، مليء بالصور (ان الصـــورة هي الجسر الذي يتيح للطـــاقات اللاشعورية أن تتناثر في المراعي المجاورة) ، عصبي ، فياض بالايقـــاع ، تسكنه هنا وهناك حياة انفجارية ، غني بالألوان ، برونزي ، ملوّح بأشعة الشمس ، عنيف هادر ٠ ان هذا الأسلوب الذي أدهش الغربييـن في حينه لا يرجع ، كما أرادوا ان يقولوا ، الى طبع عرقي ، وانما هو قبل كل شيء تعبير عن قتال ٠ انه يكشف عن الضرورة التي وجد المستعمَر فيها ، وهي ان يؤذي نفسه ، أن يفصد جسمه لينزف منه دم احمر ، أن يتحرر من جزء

---

١ ـ رونيه دوبستر ، « وجها لوجه أمام الليل » ٠

من كيانه الذي أصبح يضم بذور تعفن. قتال أليم مرير ، سريع ، لا بد فيه حتما من ان تحل العضلات محل التصور .

ولئن بلغ هذا الجهد على مستوى الشعر ذرى لا عهد بمثلها من قبل، فان المثقف كثيرا ما يسير على صعيد الوجود في طريق مسدودة غير نافذة. انه وقد وصل الى قمة الاندماج في شعبه مهما يكن هذا الشعب ، لا يحمل من مغامراته حين يقرر ان يرتد الى طريق الحياة اليومية الا امورا عقيمة لا تؤتي ثمرة من الثمرات . انه يأخذ يفضل العادات والتقاليد والمظاهر ، ويتغنى بها ، ولا يزيد جهده عندئذ على التذكير بنوع رخيص من سعي الأجانب الى غرائب البلاد الأخرى . هذه هي الفترة التي يأخذ فيها المثقفون بالتغني بأيسر مشهد من مشاهد الحياة في البلاد ، يقدسون البوبو ، ويخلعون الاحذية الباريسية الايطالية لينتعلوا البابوج، حتى أنهم ليأخذون يكرهون لغة المستعمر ويشمئزون منها . ان الرغبة في العودة الى أحضان الشعب تكون في بعض الاحيان أثناء هذه الفترة رغبة في ان نكون زنوجا ، لا زنوجا يشبهون غيرهم من الناس ، بل زنوجا زنوجا ، زنوجا كلابا كما يريد لنا البيض ان نكون .

ويقرر المثقف المستعمَر أن يحصي العادات السيئة التي استمدها من العالم الاستعماري ، ويمضي يتذكر عادات الشعب الطيبة وأخلاقه الحميدة ، الشعب الذي قرر المثقف أن ينسب اليه انه مستودع كل حقيقة.

والدهشة التي يولدها هذا المسعى في صفوف الاستعماريين المقيمين بالبلاد المستعمَرة يزيد المستعمَر ثباتا على خطته . حتى اذا شعر الاستعماريون الذين تذوقوا لذة ظفرهم بتمثل هؤلاء الناس وامتصاصهم ، ان هؤلاء الرجال الذين ظنوا أنهم أنقذوهم ، قد عادوا الى صفوف الزنوج، أحسوا أن عهدهم كله يهتز ويترنح . فكل مستعمَر كسبوه ، كل مستعمَر انتزعوه ، انما يدلهم حين يقرر ان ينسحب ، على أن المشروع الاستعماري مخفق ، كما يرمز لهم الى أن العمل الذي قاموا به كان عبثا لا جدوى منه ، وكان سطحيا لا عمق فيه . ان انسحاب كل مستعمَر انما هو ادانة جذرية للمنهج المتبع وللنظام القائم . ويجد المستعمَر في هذه الدهشة التي أثارها في صفوف الاستعماريين مسوّغا لانسحابه ومشجعا على الاستمرار فيما شرع فيه .

واذا نحن أردنا ان نعرف من خلال آثار الكتّاب المستعمَرين المراحل المختلفة التي يقطعها هذا التطور ، رأينا أمام أعيننا مشهدا ذا ثلاثة أزمان . ففي مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمَر على انه قد هضم ثقافة المستعمِر المحتل ، فآثاره توازي آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة ، والهامه أوروبي ، حتى ليمكن بسهولة ان تربط هذه الآثار بتيار معين من تيارات الأدب الغربي. هذه هي مرحلة التمثل الكامل ، وأثناء هذه المرحلة نجد بين الأدباء المستعمَرين برناسيين ، ورمزيين ، وسرياليين .

وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمَر ويقرر ان يتذكـر نفسه • وهـذه المرحلة من الخلق تقابل على وجه التقرب خطوة الفوضى التي وصفناها منذ قليل • ولكن لما كان المثقف المستعمَر غير متغلغل في شعبه، لما كانت علاقاته بشعبه علاقات خارجية ، فانه في هذه المرحلة لا يزيد على أن يتذكر • انـه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته ، ويعود الى أساطير عتيقة فيحاول اعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة ، على ضوء فلسفة في العالم ووضعت تحت سماء غير هذه السماء • وهذا الأدب السابق على المعركة يكون في بعض الأحيان أدب سخرية ورمز • هذه مرحلة قلق، مرحلة انزعاج ، مرحلة يعاني فيها الأديب تجربة الموت ، وتجربة الغثيان ايضا • انه يتقيأ ، ولكن الضحك ينطلق ها هنا خفية من تحت •

وفي مرحلة ثالثة ، مرحلة أخيرة تسمى مرحلة المعركة ، نرى المثقف المستعمَر بعد ان حاول أن يغرق في الشعب ، يعمد الى عكس ذلك ، فهو الآن يهز الشعب • انه الآن بدلا من أن يغفو غفوة الشعب ، يستحيـل الى موقظ للشعب • انه الآن ينتج أدب معركة ، ينتج أدبا ثوريا ، أدبا قوميا • وفي أثناء هذه المرحلة نجد عددا كبيرا من الرجال والنساء الذين لم يخطر ببالهم يوما أن ينشئوا أثرا أدبيا ، يحسون فجأة حين يوضعـون في ظروف استثنائية ، حين يوضعون في السجن مثلا أو حين تقرر السلطات تنفيـذ حكم الاعدام فيهم ، يحسون أن عليهم أن يعبروا عن أمتهم، أن يكتبوا الجملة التي تفصح عن شعبهم ، أن يكونوا الناطقين بلسان واقع جديد يتحقق •

وفي اثناء ذلك يدرك المثقف عاجلا أو آجلا أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة ، بل بخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال • ما من استعمار يبرهن على مشروعيته بكون البلاد التي يحتلها ليس فيهـا ثقافة • انك لن تخجل الاستعمار حين تنشر أمام بصره الكنوز الثقافيـة المجهولة • ان المستعمَر المثقف حين يهمه أن يضع أثرا أدبيـا ينسى ان التكنيك الذي يستعمله ، واللغة التي يكتب بها انما هما مستعـاران من المستعمر المحتمل ، ويكتفي بأن يكسو هذه الأدوات بثوب يريد له أن يكون قوميا ، ولكنه كالأدب الغربي الذي يتكلم عن البـلاد الأخرى • ان المثقف المستعمَر الذي يعود الى شعبه بواسطة مؤلفات أدبية انما يتصرف في الواقع تصرف أجنبي • وهو في بعض الأحيان لا يتردد عن الكتابة بلهجـات محلية اظهارا لرغبته في أن يكون قريبا من الشعب الى اقصى حد ممكـن ، ولكن الافكار التي يعبر عنها والمشاغل التي تسكنه لا صلة بينها وبيـن الظرف المحسوس الذي يعيش فيه الرجال والنساء في بلاده • ان الثقافة التي يعكف عليها المثقف المستعمَر ليست في اكثر الأحيان الا مجموعة من التفردات • لقد أراد أن يلتصق بالشعب ، فاذا هو يلتصق بمظهره المنظور • وليس هذا المظهر في الواقع الا انعكاس حياة داخلية خفية كثيفة ما تنفـك في حركة وتجدد • ان المظهر الموضوعي الذي يخطف البصر ويبدو مميزا للشعب ليس

فيحقيقة الأمر الا ثمرة جامدة منكرة منذ الآن، لتكيفات معينة، غير منسجمة دائما ، حققها جوهر أساسي هو الآن في حركة تجددية قومية • فالمثقف بدلا من أن يمضي باحثا عن ذلك الجوهر تراه يفتن بهذه المزق المحنطة التي كان ينبغي أن يدفعه تجمدها الى الانكار والتجاوز والابتكار • ينبغي ان تشف الثقافة عن الأعمال ، وان تبتعد عن النظرة التبسيطية • ان الثقافة هي في جوهرها نقيض العادات الجامدة التي ليست الا حطام الثقافة • فاذا أردت أن تلتصق بالتقاليد أو أن تحيي التقاليد البالية كنت تعاكس تيار التاريخ بل كنت تعاكس شعبك حين يخوض شعب من الشعوب كفاحا مسلحا ، أو حتى كفاحا سياسيا ضد استعمار غاشم ، فان التقاليد تتبدل دلالتها • وما كان اسلوبا للمقاومة يمكن الآن أن يدان ادانة جذرية • ان التقاليد في بلد متخلف مكافح ، ليست ثابتة بل متحركة ما تنفك تشقها تيارات متجهة الى المنبع • لذلك فان المثقف كثيرا ما يوشك ان يقف في وجه الزمن • ان الشعوب التي خاضت غمار الكفاح تنفر من الديماغوجية شيئا بعد شيء ، ويصبح من المستحيل أن تؤثر فيها الديماغوجية • فاذا أسرفت في ممالئتها فسرعان ما تكتشف فيك انتهازيا رخيصا بل وعائقا يعرقل تقدمها •

لننظر الى الفنون التشكيلية مثلا . انالفنان المستعمَر الذي يريد أن يصنع أثرا قوميا مهما كلف الأمر يفرض على نفسه أن ينقل التفاصيل نقلا جامدا • ان اولئك الفنانين الذين تعمقوا التكنيك الحديث وشاركوا في كبرى تيارات التصوير الحديث أو العمارة الحديثة ، يديرون الآن ظهورهم للثقافة الاجنبية وينكرونها ، ويفضلون ، في بحثهم عن الطابع القومي الحقيقي ، ما يحسبون انه المقومات الثابتة في الفن القومي • ولكن هؤلاء الخالقين ينسون أن أشكال التفكير ، وأنواع الغذاء ، والأساليب الحديثة في الاعلام واللغة والملبس قد طورت دماغ الشعب ، وأن المقوماتالثابتة التي كانت سياجا حارسا في عهد الاستعمار تعاني الآن طفرات جذرية هائلة •

ان ذلك الفنان الذي يقرر ان يصف الحقيقة القومية ، يتجه صوب الماضي ، صوب ما ليس له وجود راهن • والحق أن ما يصوره عندئذ انما هو فضلات الفكر ، انما هو الظاهر الخارجي ، انما هو الجثث الميتة ، انما هو المعرفة المحنطة • يجب على المثقف المستعمَر الذي يريد أن يصنع أثرا أصيلا صادقا ان يدرك أن الحقيقة القومية انما هي الواقع القومي أولا وقبل كل شيء • ان عليه أن يغوص الى المنبع الفوار الذي تتهيأ فيه صورة المعرفة الجديدة •

لقد كان المصور المستعمَر لا يحسقبل الاستقلالمشهد الحياة القومية، فكان يؤثر الفن الذي لا يمثل شيئا ، او كان في أكثر الأحيان ينصرف الى تصوير الطبيعة الصامتة • حتى اذا جاء عهد الاستقلال ، رأينا حرصه على الالتحاق بالشعب أصبح يحمله على ان ينقل الواقع القومي نقلا دقيقا ،

لا ايقاع فيه ، نقلا هادئا ، ساكنا ، جامدا • لا يذكر بالحيـــاة بل بالموت • ولئن اخذت الأوساط المثقفة تسكر أمامالحقيقة التي صورها الفنانتصويرا أمينا ، فان منحقنا أن نتساءل هل هذه الحقيقة واقعية ، أمان الملحمة التي من خلالها يشق الشعب لنفسه طريقا نحو التاريخقد تجاوزت تلكالحقيقة، ونفتها ، واعادت النظر فيها •

ونستطيعأن نقول هذه الملاحظات نفسها بصدد الشعر • فبعد المرحلة التي تمثل فيها الشعراء الوطنيون الشعر الغربي الذي يلتزمالقافية ، ظهر الايقاع الشعري الذي يستلهم الموسيقى الشعبية (تم تم) • ولكن يجب ان يفهم الشاعر أن لا شيء يمكن ان ينوب عن الانضمام الى صفوف الشعب انضماما عقليا لا ينكص • ولنستشهد مرة اخرى بالشاعر دوبستر

« لم تكن السيدة وحيدة
كان لها زوج
زوج يعرف كل شيء
ولكنه ، ان شئت الصراحة ، لا يعرف شيئا البتة •
لأن الثقافة لا تكون بغير تنازل •
تنازل المرء عن لحمه ودمه ،
تنازله عن نفسه للآخرين •
تنازل هو خير من الكلاسيكية والرومانسية جميعا •
ومن كل ما يسقي فكرنا » (١) •

ان الشاعر المستعمَر الذي يعنيه أن يصنع أثرا قوميا ، ويصر علىأن يصف شعبه ، يخطيء هدفه ، لأنه لم يجعل نفسه قبل القول قـادرا على أن يحقق ذلك التنازل الأساسي الذي يحدثنا عنه دوبستر • لقـد فهم الشاعر الفرنسي رونيه شار هذا الأمر حق الفهم حين قال : « انالقصيدة تنبع من فرض ذاتي واختيار موضوعي• القصيدة جملة متحركة منقيم أصلية محددة هي على صلات معاصرة بشخصي يجعله هذا الظرف أول » • (٢)

نعم ان أول واجب يقع على عاتق الشاعر المستعمَر هو أن يحـدّد ، بوضوح ، الشعب الذي هو موضوع ابداعه • وليس في وسعه أنيتقدم في عزم الا اذا وعى أولا ضياعه • لقد أخذنا كل شيء عن الجهة الاخرى • ومن المحقق أن هذه الجهة الأخرى لا تعطينا شيئا الا اذا استطاعت بألف حيلـة أن تعطفنا الى اتجاهها، الا اذا استطاعت بألف مخاتلة ، بمائة ألفمراوغة، أن تجذبنا ، أن تفتننا ، أن تسجننا • متى أخذنا فقد أصبحنا مأخوذين، على مستويات كثيرة • فليس يكفي اذن أن نفك انفسنا بالمطالبة تلـــو المطالبة

١ ـ رونيه دوبستر • « وجها لوجه امام الليل » •
٢ ـ رونيه شار « قسمة شكلية » •

والانكار بعد الانكار • ليس يكفي ان نلحق بركب الشعب في ذلك الماضي الذي لم يبق له وجود بل ينبغي أن نلحق بركب الشعب في هذه الحركـة المقاتلة التي شرع يقوم بها ، والتي ستفضي فجأة الى اعـادة النظر في كل شيء • الى ذلك الموضع من التحرك المختبيء ، الى ذلك الموضع الذي يقوم فيه الشعب ، انما يجب ان ننتقل ، فهنالك ولا شك انما تتكون روح الشعب ويضيء ادراكه ويتوهج الهامه •

ان كيتا فوديبا ، وهو الآن وزير داخلية جمهوريـة غينيا ، لم يخاتل واقع شعب غينيا ، حين كان مدير « الباليه الافريقي » • لقد أبرز جميـع الصور الايقاعية لشعبه وأوضحها واولها على أساس ثوري • ولكنه فعـل أكثر من ذلك أيضا • اننا نجد في مؤلفاته الشعرية ، غير المعروفة كثيرا ، حرصا دائما على ابراز اللحظة التاريخية التي يجتازها الكفاح القومي ، وعلى تحديد الميدان الذي يتحقق فيه العمل ، والأفكار التي تتبلور حولها الارادة الشعبية • استمعوا معي الى هذه القصيدة التي نظمها كيتا فوديبا ، والتي هي اهابة صادقة الى التفكير ، الى التخلص من التضليل ، الى خوض المعركة •

هـذا الكتاب
مـلك الأستاذ الدكتـور
رمـزي زكـي بطـرس

* * *

فجر افريقي

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر • القريـــة الصغيرة التي رقصت طوال نصف الليل على أصوات الطبل ، أخذت تستيقظ شيئا فشيئا • الرعـــاة الذين يرتدون أسمالا بالية وينفخون في الناي، يسوقون قطعانهم في الوادي• الصبايا اللواتي يتسلحن بطيور الكناري يدلف بعضهن وراء بعض في الممر المتعرج الذي يفضي الى النبع • وفي فناء بيت الشيخ ترتل طائفة من الصبية آيات من القرآن •

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند الفجر • النهار يصارع الليل • ولكن الليل قد نضبت قواه ، فهو ينسحب على هون • أشعة قليلة من الشمس تظهر في الأفـــق طلائع لهذا النصر الذي يفوز به النهـــار ، طلائع بطيئـــة وجلي شاحبة ، والنجوم الأخيرة تنسحب في رفق وراء الغيوم أشبه بشعل ملتهبة من أزهار•

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر • هناك في آخر السهل الواسع ، الـذي يحف به الارجوان ، كان رجل منحنيا على الارض يعزقهـا : انـــه نعمان ، الفلاح ، فكلما هوى بفأسه على التراب طارت العصـــافير مذعورة ، ومضت تحط بخفق الجناح على الضفاف الهادئة مـــن نهر نيجر العظيم • سروال نعمان ، المنسوج من قطن ، المخضل بالندى ، يصفع العشب على الجانبين• ونعمان يتصبب عرقه ، ولكنه لا يتعب ، لا يعرف التعب سبيلا اليه ، ومـا ينفك يقوم وينحني ، هاويا بفأسه على الأرض في حذق ومهارة • ذلـك ان عليه أن يدفن بذوره في التراب قبل ان تمطر السماء من جديد •

(موسيقى بوق)

كان ذلك عند طلوع الفجر • الطيور تتواثب بين أوراق الشجر مؤذنة

بالنهار • وعلى السهل المبتل كان يركض طفل صغير ، معلقا جعبة سهامه على كتفيه ، متجها الى نعمان ، لاهثا ، ينادي : « ايها الاخ نعمان •رئيس الضيعة يطلب أن يجتمع بك تحت الشجرة » •

(موسيقى بوق)

دهش الفلاح من استدعائه في الصباح المبكر ، ووضع فأسه على الأرض ثم مضى الى القرية التي اصبحت تتلألأ الآن بأشعة الشمس الطالعة • كان « المحاربون القدماء » قد بدأوا اجتماعاتهم وظهرت في وجوههم امارات الجد والوقار • والى جانبهم رجل يرتدي ملابس عسكرية قد جلس هادئا يدخن غليونه •

(موسيقى بوق)

جلس نعمان على جلد خروف • ونهض رئيس القريــة ليبلغ المجلس ارادة المحاربين القدماء : « لقد أرسل البيض رسولا يطلب بلسانهم أن يمضي رجل من رجال القرية الى الحرب في بلادهم • وتشاور وجوه القرية في الأمر فاستقر رأيهم على أن يختاروا لهذه المهمة فتى هو بين فتيان بلادهم أشجعهم، حتى يبرهن في معركة البيض على ما امتاز به رجالنـــا دائما من بسالـــة واقدام » •

(موسيقى قيثارة)

ان نعمان الذي تنشد الفيات كل ليلة بقوامه المهيب وعضلاته القوية هو الفتى الذي وقع عليه الاختيار، واضطربت زوجته الحلوة ، قاضية، أشد الاضطراب ، فانقطعت عن الدق ، ووضعت جرنها تحت النيـــــر ، ولزمت حجرتها تبكي شقاءها نشيجا مخنوقا • لقد خطف المـوت زوجهـــا الاول ، وهي لا تستطيع ان تتصور ان يخطف البيض زوجها الثاني الذي تستريح عليه جميع آمالها الجديدة •

(موسيقى قيثارة)

في الغداة ، رغم دموعها وآهاتها ، قرعت طبول الحرب تشيع نعمـــان الى مرفأ القرية الصغير ، حيث استقل قاربا الى مركز المنطقة • فلما جـاء الليل لم ترقص الصبايا في ساحة القرية على عادتهن ، بل جئن الى كـــوخ نعمان يتجاذبن أطراف القصص حتى الصباح حول نار الحطب •

(موسيقى قيثارة)

انقضت عدة شهور ولا نبأ من نعمان • بلغ القلق بقاضيـــة الصغيرة أنها لجأت الى ساحر القرية المجاورة تستفتيه • وتحدث الشيــوخ انفسهم في الامر حديثا قصيرا لم يتسرب منه الى احد شيء •

(موسيقى بوق)

ووصلت أخيرا الى القرية رسالة من نعمان بعثها الى قاضية • فمــا كان من قاضية التي كان مصير زوجها يؤرقها ، إلا أن ذهبت في تلك الليلة

نفسها الى مركز المنطقة . بعد ساعات شاقة من السير على الاقدام، ومضت الى مترجم ليقرأ لها الرسالة ٠

كان نعمان في افريقيا الشمالية ٠ ان صحته جيدة وهو يسأل ان يوافوه بأنباء الحصاد ، والاحتفالات ، والرقصات ، والشجرة التي تنعقد في ظلها الاجتماعات ، والقرية ٠٠٠

(نقرات دف)

في تلك الليلة أهدت النساء الى قاضية حق حضور أحاديثهن المألوفة عند المساء في بيت كبراهن ٠ وسر رئيس القرية بالنبأ ، فأولم وليمة لجميع شحاذي القرى المجاورة ٠

(نقرات دف)

انقضت عدة أشهر اخرى ، وعاد الناس جميعا يقلقون على مصير نعمان ، لانهم لا يعرفون عنه شيئا ٠ وكانت قاضية قد عقدت نيتها على الذهاب الى الساحر مرة اخرى تستفتيه ، حين وصلت اليها رسالة ثانية ٠ ان نعمان ، بعد ان ذهب الى كورسيكا ثم الى ايطاليا، أصبح الآن في المانيا ٠ وهو يهنىء نفسه بحصوله منذ الآن على اوسمة ٠

(نقرات دف)

ومرة اخرى وصلت بطاقة تقول ان نعمان قد اسره الالمان ٠ ثقل النبأ على صدر القرية ٠ وعقد « القدماء » مجلسهم ، فقرروا ان يكون لنعمان ، بعد الآن ، حق الاشتراك في رقصة الدوجا ، رقصة العقاب المقدسة التي لا يجوز لاحد ان يرقصها ما لم يقم بعمل باهر ، رقصة الاباطرة الماليين التي تلخص كل خطوة من خطواتها مرحلة من مراحل تاريخ مالي ٠ كان ذلك عزاء للصغيرة قاضية ٠٠٠ لقد واساها ان يرتفع زوجها الى منزلة الابطال من رجال البلاد ٠

(موسيقى قيثارة)

الزمان ينقضي ٠٠٠ سنتان تمضيان ٠٠٠ ونعمان ما يزال في المانيا ٠ الا انه لا يكتب ٠

(موسيقى قيثارة)

في ذات صباح تلقى رئيس القرية من داكار بضع كلمات تقول ان نعمان وأصل الى القرية قريبا ٠ فما ان ذاع النبأ في القرية حتى قرعت الطبول ، وأخذ الناس يرقصون ويغنون حتى مطلع الفجر ٠ وألفت الصبايا الحانا جديدة لاستقبال العائد ، لأن الالحان القديمة لم تتحدث عن رقصة الدوجا ، عن رقصة العقاب الشهيرة ٠

(قرع طبول)

ولكن بعد شهر ارسل العريف موسى وهو صديق عزيز من اصدقاء

نعمان هذه الرسالة الفاجعة الى قاضية : « كان ذلك عند طلـوع الفجر . كنا في « تياروي على البحر » ففي أثناء مشاجرة كبيرة قامت بيننا وبين رؤسائنا البيض اخترقت رصاصة قلب نعمان . انه الآن رقد في أرض سنغالية » .

(موسيقى قيثارة)

حقا لقد كان ذلك عند طلوع الفجر . كانت اولى اشعة الشمس التي لا تكاد تلامس سطح البحر تذهّب امواجه الصغيرة المتجعدة . وكانت اشجار النخيل التي تهب عليها انسام خفيفة تحني جذوعها نحو البحر في رفق وحنان ، كأنما هدتها هذه المعركة الصباحية والغربان تتوافد على القرية اسرابا صاخبة تحمل بنعيقها نبأ المأساة التي ادمت فجر تياروي . وفي الأفق المحترق ، فوق جثمان نعمان تماما ، كان ثمة عقاب ضخم يحلق في ثقل ، كأنه يقول له « يا نعمان انك لم ترقص هذه الرقصة التي تحمل اسمي . لسوف يرقصها آخرون » .

(موسيقى بوق)

لئن اخترت هذه القصيدة الطويلة فذلك لما لها من قيمة تربوية لا سبيل الى جحودها . الأمور هنا واضحة . الشاعر يعرض الأمور عرضا دقيقا متدرجا . ان فهم هذه القصيدة ليس مسيرا عقليا فحسب ، بل هو مسير سياسي أيضا . من فهم هذه القصيدة فقد فهم الدور الذي يجب عليه أن يقوم به ، وادرك المهمة التي يجب عليه ان ينهض بها ، وأخذ يشحذ سلاحه . ان نعمان الذي كان بطل ساحات معركة اوروبا ، نعمان الذي كفل القوة والاستمرار للعاصمة التي تستعمر بلاده ، نعمان الذي اخترقت قلبه رصاصة من رصاصات قوى الشرطة في اللحظة التي يرجع فيها الى أرض آبائه وأجداده ، ان نعمان هذا هو صطيف ١٩٤٥ ، هو فور دي فرانس ، هو سايجون ، هو داكار ، هو لاجوس . ان جميع أولئك الزنوج الذين قاتلوا دفاعا عن حرية فرنسا أو عن حضارة بريطانيا موجودون في هذه القصيدة التي نظمها كيتا فوديبا .

ولكن كيتا فوديبا ينظر الى أبعد من ذلك ايضا . فالاستعمار بعد أن يستعمل أهل البلاد المستعمَرة في ساحات القتال ، يستعملهم كمحاربين قدماء في تحطيم حركات الاستقلال . ان جمعيات المحاربين القدماء هي في المستعمرات احدى القوى التي يستعملها الاستعمار في محاربة الحركة القومية . وقد أعد الشاعر كيتا فوديبا وزارة الداخلية في جمهورية غينيا لاحباط المؤامرات التي يحركها الاستعمار الفرنسي . فبواسطة المحاربين القدماء وغيرهم انما كانت تنوي الدوائر الفرنسية السرية تحطيم الاستقلال الغيني الناشيء .

ان الانسان المستعمَر الذي يكتب لشعبه بوصف الماضي انما يجب

عليه أن يفعل ذلك بغية أن يفتح المستقبل ، وأن يهيب الى العمل، وأن يعزز الأمل • ولكنك لا تستطيع أن تقوي الأمل وان تهب له عمقا وكثافة ما لم تشارك في العمل ، ما لم تنخرط في المعركة القومية جسما وروحا • ان في وسعك أن تتكلم عن أي شيء ، ولكن متى قررت أن تتكلم عن فتح الأفق ، عن ادخال النور الى ديارك ، عن وقوفك وقوف شعبك، فقد وجب عليك أن تشارك في المعركة بعضلاتك •

ان مسؤولية المثقف المستعمر ليست مسؤولية عن الثقافة القومية ، بل مسؤولية كليّة شاملة عن الأمة بأسرها التي ليست الثقافة الا جانبا من جوانبها ما ينبغي للمثقف المستعمَر أن يهمّه اختيار المستوى الذي يخوض فيه المعركة ، اختيار القطاع الذي يخوض فيه المعركة • فالكفاح في سبيل الثقافة القومية انما هو كفاح في سبيل الحرية القومية ، الرحم الذي يكون نشوء الثقافة فيه ممكنا • ليس هناك معركة ثقافية تقوم على موازاة المعركة الشعبية • ان أولئك الرجال والنساء الذين يقاتلون الاستعمار الفرنسي في الجزائر بقبضات أيديهم العزلاء انما يقاتلون جميعا في سبيل الثقافة القومية الجزائرية • ان الثقافة القومية الجزائرية تنشأ اثناء هذه المعارك، في السجن ، أمام المقصلة ، في المراكز العسكرية الفرنسية التي تطوّق وتهدّم •

ليس يكفي ان نغوص في ماضي الشعب ننتشل منه عناصر منسجمة ونجابه بها محاولات التزييف والاحتقار التي يقوم بها الاستعمار • وانما يجب علينا ان نعمل ، ان نناضل مع الشعب، من اجل ان نوضح المستقبل، من أجل أن نعد الأرض التي أخذت تتفتح فيها منذ الآن براعم قوية• ليست الثقافة القومية ذلك الفولكلور الذي حسب من ينظرون الى الأمور نظرة مجردة أنهم يكتشفون فيه حقيقة الشعب • ليست الثقافة القومية تلك الكتلة المتجمدة من الحركات الصرفة التي أصبح ارتباطها بالواقع الراهن يضعف شيئا بعد شيء • وانما الثقافة القومية مجموعة الجهود التي يبذلها شعب من الشعوب على صعيد الفكر من أجل ان يصف وأن يبرر وأن يغني النضال الذي به يتكون الشعب ويبقى• يجب على الثقافة القومية في البلدان المتخلفة ان تضع نفسها في القلب من كفاح التحرير الذي تخوض هذه البلدان معاركه • ينبغي لرجال الثقافة الافريقيين الذين ما يزالون يناضلون باسم الثقافة « الزنجية الافريقية » ، والذين عقدوا المؤتمرات تلو المؤتمرات باسم وحدة هذه الثقافة ، أن يدركوا الآن أن نشاطهم أصبح لا يزيد على المقارنة بين جثث او المضاهاة بين توابيت •

ليس هناك مصير مشترك بين الثقافتين القوميتين ، السنغالية والغينية ، بل هناك وحدة في المصير بين الأمتين الغينية والسنغالية اللتين يسيطر عليهما استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسي • واذا شئتم أن تكون الثقافة القومية السنغالية مشابهة للثقافة القومية الغينية ، فليس

يكفي أن يقرر قادة الشعبين ان يطرحوا المشكلات على أسس متقاربة : مشكلة التحرير ، المشكلات النقابية ، المشكلات الاقتصادية · فحتى في هذه الحالة لا يمكن أن يكون ثمة تماثل مطلق ، لأن ايقاع مسير الشعب وايقاع مسير القادة ليسا ايقاعا واحدا ·

لا يمكن أن يكون ثمة ثقافات متماثلة تماثلا دقيقا · واذا تخيلت أنك صانع ثقافة زنجية ، فقد نسيت أن تمييز الزنوج عن غيرهم هو فكرة آخذة بالزوال لأن الذين أوجدوها يشهدون الآن انحلال تفوقهم الاقتصادي والثقافي (١) · لن يكون هناك ثقافة زنجية ، لأنه ما من رجل من رجال السياسة يتصور أن رسالته هي أن يخلق جمهوريات زنجية · انما المشكلة هي أن نعرف المكانة التي يريد هؤلاء الرجال أن ينزلوها شعوبهم ، ونوع العلاقات الاجتماعية التي يقررون ان ينشئوها ومفهومهم عن مستقبل الانسانية · ذلك هو الأمر المهم · وكل ما عداه كلام مزوّق وتضليل ·

ان المثقفين الافريقيين الذين اجتمعوا في روما ١٩٥٩ لم يكفوا عن الكلام عن الوحدة · ولكن واحدا من كبار المتغنين بهذه الوحدة الثقافية ، أعني جاك راب مانانجارا ، يشغل الآن منصب وزير في حكومة مدغشقر ، وبهذه الصفة التي له الآن قرّر مع حكومته أن يقفوا ضد الشعب الجزائري في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة · فلو كان راب أمينا لفكرته وفيا لنفسه لاستقال من تلك الحكومة ، وراح يفضح اولئك الرجال الذين يدعون انهم يجسدون ارادة شعب مدغشقر · ان التسعين ألفا من شهداء مدغشقر لم يكلفوا راب بأن يحارب مطامح الشعب الجزائري في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة ·

ان الثقافة الزنجية الافريقية انما تقوى وتشتد حول كفاح الشعوب لا حول الأغاني او القصائد او الفولكلور · وهذا سنغور الذي هو ايضا عضو في « الجمعية الافريقية للثقافة » والذي عمل معنا في مسألة الثقافة الافريقية هذه ، لم يتورع ، هو ايضا ، ان يصدر اوامره الى وفده بتأييد وجهات النظر الفرنسية في قضية الجزائر · ان المناداة بثقافة زنجية افريقية ، ان وحدة الثقافة الافريقية انما تمر اولا وقبل كل شيء بدعم كفاح التحرير الذي تخوضه الشعوب دعما غير مشروط · وليس يريد ازدهار الثقافة الافريقية واشعاعها من لا يساهم مساهمة محسوسة في توفير

---

١ ـ في آخر حفلة لتوزيع الجوائز بمدينة داكار ، قرر رئيس الجمهورية السنغالية ليوبولد ـ سنغور ، ان يضع في برامج التعليم دراسة فكرة العرق الزنجي · فاذا كان اهتمام رئيس جمهورية السنغال اهتماما تاريخيا ، فلا يمكن الا ان نوافقه على ما اراد · اما اذا كان المقصود خلق وجدان زنجي ، فانه لا يزيد عندئذ على ان يدير ظهره للتاريخ الذي تولى تحرير اكثرية الزنوج من التفريق بينهم وبين غيرهم ·

الظروف التي يتحقق فيها هذا الازدهار وهذا الاشعاع ، أعني تحرير القارة الافريقية ٠

أقول : ما من خطاب ولا نداء حول الثقافة ، ينبغي أن يصرفنا عن مهماتنا الأساسية التي هي تحرير أرض الوطن بكفاح نخوضه في كل لحظة ضد الأشكال الجديدة التي يتخذها الاستعمار ، ونصر فيه اصرارا عنيدا على أن لا نفتتن وأن لا نضلل ٠

* * *

الاسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرر

ان السيطرة الاستعمارية التي تتصف بأنها شاملة كلية لم تلبث أن هدمت الوجود الثقافي للشعب المستعمَر • فانكار الواقع القومي ، واقامة علاقات حقوقية جديدة ، ونبذ السكان الأصليين وعاداتهم ، وتجريد الأهالي من أملاكهم ، واستعباد الرجال والنساء استعبادا منظما ، هذه الأمور كلها التي عمد اليها الاستعمار قد أتاحت ذلك الامحاء الثقافي شيئا بعد شيء •

لقد أوضحت ، منذ ثلاث سنين ، أمام مؤتمرنا الأول ، أن الظرف الاستعماري سرعان ما أحل محل الحيوية والحركة مواقف تمجيدية • فنرى البلاد المستعمَرة تحيط مجالها الثقافي بأسيجة واوتاد • وهذا النوع بدائي من الدفاع عن النفس يشبه منعكسات غريزة البقاء في كثير من الوجوه • وترجع أهمية هذه المرحلة الى أن المستعمِر المضطهد يبلغ في تماديه أنه لا يكتفي بأن يلغي الوجود الموضوعي للأمة وللثقافة المضطهدتين، وانما يبذل جميع الجهود اللازمة من اجل ان يحمل المستعمَر على الاعتراف بتخلف ثقافته التي استحالت الى تصرفات غريزية ، وعلى الاعتراف بأن امته لا وجود لها ، بل وعلى الاعتراف بأن تكوينه البيولوجي نفسه غير منظم وغير كامل •

ولم يكن رد المستعمَر على هذا الوضع ردا وحيد الاتجاه • فبينما رأينا الجماهير تتمسك بالتقاليد التي لا تماشي الظرف الاستعماري، وبينما رأينا اسلوب الحرفة يتقوى حتى ليجمد على شكل ثابت ، رأينا المثقف يرتمي ارتماء محموما على تحصيل ثقافة المستعمِر ، فاما ان يستخف بثقافته القومية ، واما أن يأخذ يشيد بهذه الثقافة اشادة تفصيلية منهجية فياضة بالحماسة عقيمة •

وتتصف هاتان المحاولتان بصفة مشتركة ، هي أنهما كلتاهما تدخلان

في تناقضات لا يمكن احتمالها • ان المستعمَر ، سواء أهرب من الثقافة القومية أم أخذ يمجدها ، يظل عاجزا عن احداث أي تأثير ، لأنه لم يحلل الوضع الاستعماري تحليلا صحيحا دقيقا • ان الوضع الاستعماري الذي يكاد يتناول كل شيء ، يوقف الثقافة القومية • فليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك ثقافة قومية ، أو حياة ثقافية قومية ، أو ابتكارات ثقافية قومية أو تبدلات ثقافية قومية ، ما دامت السيطرة الاستعمارية قائمة • وتنبجس في بعض الأحيان هنا وهناك محاولات جريئة لاستئناف الحيوية الثقافية ، وأعادة توجيه الموضوعات والأشكال والأنغام • وأنت اذا بحثت عن أهمية مباشرة محسوسة لهذه الانتفاضات لم تجد شيئا • ولكنك اذا تابعت نتائجها الى حدودها القصوى أدركت أنها تهييء لنزع الغشاوة عن وعي الشعب ، وللتنديد بالاضطهاد ، ولفتح باب كفاح التحرير •

ان الثقافة الوطنية هي في ظل السيطرة الاستعمارية ثقافة مجمدة تابع الاستعمار تحطيمها متابعة منظمة • وسرعان ما تصبح مضطرة الى التخفي والسرية ، حتى لنلاحظ معنى السرية هذه في ردود الغاصب المحتل الذي يرى في كل مجاراة للتقاليد ثباتا على الروح القومية ورفضا للخضوع، فالمستعمِر يرى في الاستمرار على الأشكال الثقافية التي يستنكرها مظهرا قوميا عليه أن يحاربه • غير أن هذا المظهر انما يرد الى قوانين العطالة والجمود ، فليس ثمة هجوم ولا اعادة تحديد للعلاقات ، بل انكماش على نواة ما تنفك تزداد ضيقا وعطالة وفراغا •

وما هو الا قرن أو قرنان من الزمان حتى نرى الثقافة الوطنية قد هزلت ويبست حقا ، فاذا هي مجموعة من العادات الحركية والتقاليد المتعلقة بالملابس ، والنظم المجزأة المفتتة ، فليس فيها حركة ولا ابداع حتى ولا فوران • ان افقار الشعب ، واضطهاد الأمة ، ومنع الثقافة ، شيء واحد • اننا لا نرى ، بعد قرن من السيطرة الاستعمارية ، الا ثقافة متيبسة مجمدة متحجرة • ان بين نضوب الواقع القومي واحتضار الثقافة علاقات ارتباط متبادل • فكيف تتطور هذه العلاقات في أثناء كفاح التحرير ؟ ان ما يعمد اليه المستعمِر من انكار للثقافة القومية ، واحتقار لكافة المظاهر القومية او الحركية او الانفعالية ، وتحريم لكل تخصص في التنظيم ، يساهم في توليد سلوك هجومي لدى المستعمَر • ولكن هذا السلوك هو من نوع المنعكسات الغريزية التي تتصف باللاتمييز وبالفوضوية ، وليس فيه جدوى • ويستمر الاستغلال الاستعماري ، ويستمر بؤس الشعب وجوعه ، فيضطر المستعمَر شيئا بعد شيء الى خوض كفاح صريح منظم • وتشعر أكثرية الشعب تدريجيا أنه لا بد من معركة حاسمة • وتكثر التوترات التي لم يكن لها وجود قبل ذلك • وتأتي الأحداث الدولية وانهيارات الأمبراطوريات الاستعمارية والتناقضات القائمة في قلب النظام الاستعماري ، يأتي ذلك كله فيغذي روح القتال ويرقى بالوعي الشعبي ويقويه •

هذه التوترات الجديدة التي تنشأ على جميع مستويات الواقع الاستعماري تترجع أصداؤها على المستوى الثقافي • ففي الأدب مثلا نرى زيادة نسبية في الانتاج • ونرى الانتاج الأدبي القومي يتميز عن الانتاج الأدبي الغربي • وتتجلى فيه ارادة خاصة ، بعد أن كان محاكاة لذلك الانتاج الغربي • وينحصر هذا الانتاج أول الأمر في النطاق الشعري والتراجيدي ، ثم يتناول الرواية والقصة والبحث • فكأن هناك نوعا من التنظيم الداخلي ، كأن هناك قانونا من قوانين التعبير يلزم بالاقلال من التجليات الشعرية كلما توضحت أهداف كفاح التحرير وطرائقه • وتندر شيئا بعد شيء تلك الصرخات المرة اليائسة ، وتلك الاندفاعات العنيفة المدوية المجلجلة التي لا يخاف منها المحتل في حقيقة الأمر ، بل تطمئنه • والواقع أن الاستعماريين قد شجعوا هذه المحاولات في الفترة السابقة وسهّلوا وجودها • فحرارة التنديد والتشهير ، ووصف البؤس ، والتعبير عن الانفعال الجامح ، ذلك كله انما يشبهه المستعمِر بعملية تفريغ ، فاذا هو شجّع عليه كان بمعنى من المعاني يتحاشى تحول الأمر الى كارثة ، ويساعد على شيء من انفراج الجو •

غير أن هذا الظرف لا يمكن الا أن يكون مرحلة مؤقتة ، والحق أن تقدم الوعي القومي لدى الشعب يبدل ويوضح التعبير الأدبي الذي يتولاه المثقف المستعمَر • ان استمرار اتحاد الشعب يهيب بالمثقف أن يتجاوز مرحلة الصراخ • فاذا الشكوى تصبح نداء ، ثم اذا النداء يصبح في مرحلة ثانية شعارا • ان تبلور الوعي القومي يقلب الأنواع الأدبية والموضوعات الأدبية رأسا على عقب ، فاذا المثقف المستعمَر الذي كان أول الأمر ينتج أدبه للقارىء المستعمِر وحده ، سواء للحظوة باعجابه أو للتنديد به من خلال الاطار العرقي أو الذاتي ، اذا هو بعد ذلك يتعود أن يتجه بانتاجه الى شعبه شيئا بعد شيء •

وابتداء من هذه اللحظة انما نستطيع أن نتحدث عن أدب قومي • ذلك أننا نرى ، على مستوى الخلق الأدبي ، استئنافا وتوضيحا للموضوعات القومية الحقيقية • نحن ها هنا أمام أدب كفاح بالمعنى الأصلي للكلمة ، لأنه أدب يحدو شعبا بأسره الى النضال في سبيل الوجود القومي • هو أدب كفاح لأنه يحمل تبعة ، لأنه ارادة تحقيق في الزمان •

وعلى مستوى آخر نرى أدب الرواية ، والحكايات ، والملاحم ، والأغاني الشعبية ، التي كانت قبل ذلك تستمد من المخزون المجمّد ، نرى ذلك كله يأخذ بالتجدد • ان الرواة الذين كانوا يقصون على جمهورهم حكايات ميتة ، يبثون الآن في هذه الحكايات حياة ، ويبدلونها تبديلا أساسيا • انهم يحاولون أن يجعلوا أقاصيص القتال التي يروونها حكايات راهنة ، ويحاولون أن يسبغوا عليها أشكالا معاصرة ، ويستمدون أسماء الأبطال وأنواع الأسلحة من الزمان الحاضر • كانوا قبل ذلك يبدأون حكاياتهم بقولهم : « كان في القديم ... » أما الآن فهم يبدأونها بقولهم : « ما سأقصه عليكم قد

حدث في مكان ما ، ولكن يمكن أن يحدث هنا ، اليوم أو غدا ٠٠» ٠ ومثال الجزائر بليغ الدلالة بهذا الصدد ٠ ان الرواة قد أخذوا منذ ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ يقلبون طرائقهم في قص حكاياتهم ، وأخذوا يقلبون مضمون هذه الحكايات رأسا على عقب ، بعد أن كانت أقاصيصهم قبل ذلك جامدة مملة ٠ فاذا الجمهور الذي يستمع اليهم يكثر عدده وتتراص صفوفه ، بعد أن كان قليلا مبعثرا ٠ وعادت الملحمة الى الظهور ، وأخذت تصور أبطالا نموذجيين ٠ هذا انبثاق ثقافي ٠ ولم يغفل الاستعمار عن ذلك ، فاذا هو يعمد منذ عام ١٩٥٥ الى اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس ليستمعوا الى قصص البطولة ٠

ان اتصال الشعب بالحركة الجديدة يجعل للأنفاس المترجعة في الصدور ايقاعا جديدا ، ويوقظ العضلات النائمة من سباتها ، ويطلق الخيال من عقاله ٠ فكلما قص الراوي على جمهوره مرحلة جديدة من مراحل حكاياته، كان يناديهم ويهيب بهم ويحدوهم ٠ انه يكشف للجمهور عن نموذج انسان جديد ٠ فما يبقى الحاضر مغلقا على نفسه بل ينشق عن آفاق جديدة ٠ ان الراوية يرد لخياله الآن حريته ، ويجدد ، ويخلق ٠ حتى ليتفق له أن يعمد الى وجوه أناس من قطاع الطرق أو من المتشردين الخارجين على قوانين المجتمع ، فاذا هو يقدم منها وجوها جديدة يجعلها وجوه أبطال ، مع أن ذلك ليس بالأمر اليسير ٠ ليتكم تتبعون في بلد مستعمَر انبجاس الخيال والخلق في الأغاني وفي الحكايات البطولية الشعبية ، خطوة خطوة ٠ اذن لرأيتم أن الراوية انما يستجيب بخطوات متعاقبة لارادة الشعب ، ويمضي باحثا عن نماذج جديدة ، عن نماذج قومية قد نظن أنه يسعى اليها وحده ، ولكن في حقيقة الأمر يستحثه اليها جمهوره الذي يصغي اليه ٠ وتختفي الكوميديا أو تفقد جاذبيتها ٠ أما المأساة فما تظل قابعة في ضمير المثقف أزمة تعذبه ، بل تفقد طابع اليأس والتمرد وتصبح من نصيب الشعب كله ، جزءا من عمل يتهيأ او من عمل قد انطلق ٠

وعلى مستوى الحرفة نجد الأشكال المترسبة المتجمدة تتحرك شيئا بعد شيء ٠ فأعمال الخشب مثلا ، التي كانت تنسخ وجوها معينة أو أوضاعا معينة بآلاف النسخ ، تتنوع الآن وتتميز ٠ القناع الذي لا يعبّر ، أو كان يعبّر عن التعب والارهاق ، ينتعش الآن ، والذراعان تهمّان أن تتركا الجسم وأن تندفعا في فعل ٠ وظهر الجمع بين شخصيتين أو ثلاث أو خمس ٠ أصبحت المدارس التقليدية مدعوة الى الابداع بظهور مونجات كبيرة من الهواة أو المنشقين ٠ ان هذه القوة الجديدة في هذا القطاع من الحياة الثقافية تتحقق في كثير من الأحيان دون أن يلاحظها أحد ٠ ولكن مساهمتها في الكفاح الوطني مساهمة كبيرة ٠ فحين يحرك الفنان الوجوه والاجسام وحين يجعل موضوع ابداعه جماعة متراصة من الناس على قاعدة واحدة ، فانه يدعو الى الحركة المنظّمة ٠

واذا نحن درسنا أصداء يقظة الوعي القومي في مجال القيشاني والفخار، كان في وسعنا أن نذكر هذه الملاحظات نفسها ٠ ان المبدعات في هذا المجال

تهجر أشكالها القديمة : الجرار والخوابي والأطباق تتبدل ، تتبدل في أول الأمر تبدلا طفيفا تدريجيا ، ثم تتبدل بعد ذلك تبدلا قويا جارفا • والتلوينات التي كانت في أول الأمر محدودة خاضعة لقوانين تقليدية في الانسجام تتكاثر وتترجع فيها الاندفاعية الثورية • ان بعض ألوان الأحمر وبعض ألوان الأزرق ، التي كانت محرَّمة منذ الأزل ، كما يبدو ، في مجال ثقافي معيَّن ، تفرض الآن نفسها دون آن تثير الاستهجان • وكذلك نرى « اللاتعبيرية » في الوجه الانساني ، وهي صفة تتميز بها في رأي علماء الاجتماع المناطق الموصدة تماما ، تخف وطأتها •وسرعان ما يلاحظ الاختصاصي من أبناء البلاد المستعمرة هذه الطفرات ، فتراه على وجه الاجمال يستنكرها باسم أسلوب فني له قواعده ، باسم خياة ثقافية نشأت في جو الوضع الاستعماري • ان الاختصاصيين الاستعماريين ينكرون هذا الشكل الجديد ، ويروحون يستنجدون بتقاليد المجتمع المستعمَر في التشهير به • ان الاستعماريين هم الذين يصبحون الآن مدافعين عن الأسلوب المحلي • انكم تتذكرون كل التذكر « ولهذا المثال أهمية خاصة لأن الأمر فيه ليس أمر واقع قومي تماما » كيف كان موقف الاختصاصيين الاستعماريين في الجاز حين رأوا عقب الحرب العالمية الثانية تبلور واستقرار أساليب جديدة مثل الـ « بيبوب » • ذلك أن الجاز ليس الا حنين المنكسر اليائس الذي يحسه زنجي هرم أحاطت به خمس كؤوس الويسكي مع اللعنة والاحتقار والحقد العرقي الذي يحمله له البيض• فاذا أدرك نفسه ادراكا جديدا ، واذا أدرك العالم على نحو مختلف ، فانبعث الأمل في نفسه وفرض على العالم العرقي أن يتراجع ، فلا بد أن يميل بوقه الى الانطلاق ، ولا بد أن يجنح صوته الى التحرر من بحَّته • ان الأساليب الجديدة في الجاز لم تنشأ من التنافس الاقتصادي فحسب ، بل هي ولا شك نتيجة من نتائج انهزام العالم الجنوبي في الولايات المتحدة انهزاما لا مناص منه وان يكن بطيئا • وليس من قبيل الخيال أن نفترض أن يدافع البيض وحدهم بعد خمسين عاما عن نوع « الجاز الصراخ » الذي يتقيؤه زنجي مسكين ملعون ، لحرصهم على صورة مجمَّدة لنموذج من الصلات وشكل من الزنجية•

وفي وسعنا أيضا ، على مستوى الرقص والغناء الميلودي والطقوس والاحتفالات التقليدية ، أن نجد هذه الانطلاقة نفسها وأن نكشف عن هذه الطفرات نفسها ، وعن هذا التحرق نفسه الى الانطلاق • ومعنى ذلك كله أن القارىء الفطن المنتبه يستطيع ، قبل مرحلة كفاح التحرير ، السياسية أو المسلحة ، أن يحس وان يرى ظهور القوة الجديدة والمعركة المقبلة • فثمة أشكال من التعبير لا عهد بها من قبل ، وثمة موضوعات جديدة لم يسبق أن طرقت ، موضوعات مزودة لا بقدرة على الاهانة فحسب ، بل أيضا على تجميع الصفوف ، وتحريضها « في سبيل هدف » • هذا كله يساهم في ايقاظ حساسية المستعمَر ، وفي جعل مواقف التأمل ومشاعر الاخفاق شيئا مضى زمانه لا يُقبل • ان المستعمَر حين يجدد اغراض وحركة الحرفة والرقص والموسيقى والأدب وحكايات البطولة انما يعيد بناء ادراكه للعالم ، فيفقد

العالم في نظره طابع اللعنة ، وتتجمع عندئذ الشروط اللازمة لخوض المعركة التي لا بد من خوضها ٠

لقد شهدنا تحرك التجليات الثقافية ، ورأينا أن هذا التحرك ، أن هذه الأشكال الجديدة مرتبطة بنضج الوعي القومي ٠ وهذا التحرك يريد أن يتحقق في واقع موضوعي ، يريد أن يصير الى مؤسسة قائمة ، لذلك كان لا بد من وجود قومي مهما كلف الأمر ٠

ان من الأخطاء الفادحة ، التي يصعب الدفاع عنها من جهة أخرى ، أن نحاول تحقيق تجديدات ثقافية ، وأن نحاول رد الاعتبار والقيمة الى الثقافة الوطنية ، ونحن ما نزال في ظل السيطرة الاستعمارية ٠ واني لأنتهي من هذا الى تقدير نتيجة قد تبدو غريبة مفارقة هي أن أقوى دفاع وأجدى دفاع عن الثقافة القومية انما يكون بالأخذ بالعقيدة القومية ولو في أبسط أشكالها وفي أكثر هذه الأشكال بدائية وفجاجة ٠ ان الثقافة هي أولا وقبل كل شيء تعبير عن أمة ، عن مفضلات هذه الأمة وعن محرماتها وعن نماذجها ٠ وعلى كافة مستويات المجتمع بأسره انما تتكون محرمات أخرى وقيم أخرى ونماذج أخرى ٠ فالثقافة القومية هي مجموع هذه التقديرات كلها ، هي محصلة التوترات الداخلية والخارجية في المجتمع برمته وفي مختلف طبقات هذا المجتمع ٠ فما دام الوضع الاستعماري قائما فالثقافة تنضب وتحتضر لأنها تكون محرومة من ركيزتيها، الأمة والدولة ٠ وعلى ذلك فان التحرير القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة ٠

واذا كانت الأمة هي الشرط اللازم لقيام الثقافة وازدهارها وتجددها المتصل وعمقها ، فهي أيضا حاجة وضرورة ٠ ان الكفاح الذي تخوضه الأمة هو الذي يطلق الثقافة من عقالها ويفتح لها أبواب الابداع ، كما ان الأمة في مرحلة ثانية ، هي التي توفر للثقافة ظروف نمائها واطار تعبيرها ٠ ان الأمة هي التي تهيىء للثقافة شتى العناصر الضرورية التي تستطيع وحدها أن تهب للثقافة أمانة وصدقا ونشاطا وابداعا ٠ وكون الثقافة قومية هو الذي يجعلها قادرة على أن تنفذ اليها الثقافات الأخرى ، وعلى أن تنفذ الى الثقافات الأخرى وتؤثر فيها٠ فما لا وجود له لا يمكن أن يفعل في الواقع، ولا أن يؤثر في هذا الواقع ٠ فلا بد أولا من أن تقوم الأمة ، فاذا قيامها يهب الحياة للثقافة ، بالمعنى البيولوجي لهذه الكلمة ٠ هكذا تابعنا تكسر التحجرات الثقافية شيئا بعد شيء ، وشهدنا تحدد التعبير وانطلاق الخيال قبل المعركة الحاسمة في سبيل التحرير القومي ٠ ويبقى بعد ذلك أن هناك مسألة أساسية تطرح : ما هي العلاقات القائمة بين الكفاح أو الصراع ـ سواء أكان سياسيا أم مسلحا ـ وبين الثقافة ؟ هل تعاني الثقافة توقفا أثناء الصراع ؟ هل الصراع القومي مظهر ثقافي ؟ هل نقول ان الكفاح التحريري ، وان يكن خصبا فيما بعد ، هو في ذاته انكار للثقافة ؟ هل كفاح التحرير ظاهرة ثقافية ؟

اننا نعتقد أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافي ممكن ٠ ليس نجاح الكفاح وحده هو الذي يهب للثقافة قيمة وصدقا وقوة ، بل ان معارك الكفاح نفسها تنمي،

في أثناء انطلاقها ، مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات ثقافية جديدة، فالكفاح لا ينيم الثقافة أثناء اندفاعه • وكفاح التحرير لا يرد الى الثقافة الوطنية قيمتها القديمة وأطرها القديمة ، ولا يمكن ما دام يهدف الى اعادة تنظيم العلاقات بين البشر الا أن يبدل الأشكال والمضامين الثقافية للشعب• ان التحرر بالكفاح لا يزيل الاستعمار فحسب ، بل يزيل المستعمَر أيضا •

فهذه الانسانية الجديدة ، الجديدة لذاتها وللآخرين ، لا يمكنها الا ان ننشيء نظرة انسانية جديدة ، بل ان هذه النظرة الانسانية الجديدة قائمة مقدما في أهداف ومناهج الكفاح ان المعركة التي تعبيء جميع طبقات الشعب، التي تعبر عن صبوات الشعب وعن أشواقه المتحرقة ، التي لا تخشى أن تعتمد على الشعب وحده تقريبا ، انّ هذه المعركة ظافرة لا محالة • وقيمة هذا النوع من القتال انما تقوم على كونه يحقق الحد الأقصى من الشروط اللازمة للنمو الثقافي والابداع الثقافي • وبعد التحرير الذي يتم في هذه الشروط ، لا يكون ثمة ذلك النوع من الحيرة الثقافية المريرة التي نراها الآن في بعض البلدان المستقلة حديثا • ذلك أن الأمة ، في صورة دخولها الى العالم ، وفي أشكال وجودها ، تؤثر في الثقافة تأثيرا أساسيا • ان أمة تنشأ من خوض الشعب نضالا منسجما موحدا ، ان أمة تجسد أشواق الشعب الواقعية ، أن أمة تبدل الدولة ، لا يمكن أن توجد الا في صور من خصوبة ثقافية فذة •

والمستعمَرون الذين تهمهم ثقافة بلادهم ويريدون أن تكون لها أبعاد عالمية ، يجب عليهم اذن أن لا يتكلوا في تحقيق هذه المهمة على مجرد مبدأ الاستقلال الذي لابد منه ، دون نفاذ الى وعي الشعب • فشتان بين التحرير القومي من حيث هو هدف وبين مناهج المعركة ومضمونها الشعبي • ويخيل الي أن مستقبل الثقافة وغنى الثقافة القومية متوقفان أيضا على القيم التي لازمت معركة التحرير •

وهنا تحين لحظة فضح النفاق الذي نراه لدى بعضهم • يقول بعضهم هنا وهناك ان القومية مرحلة قد تجاوزتها الانسانية ، وان الزمان الحاضر هو زمان التجمعات الكبيرة ، وان على المتأخرين الذين ما زالوا يؤمنون بالقومية أن يصححوا أخطاءهم • ونحن نرى على خلاف ذلك ، أن الخطأ الفادح ، الخطأ المثقل بالنتائج الخطيرة ، هو أن نحاول القفز فوق المرحلة القومية • واذا كانت الثقافة هي التعبير عن الوعي القومي ، فانني لا أتردد عن القول ، في الحالة التي نحن بصددها الآن ، ان الوعي القومي هو أنضج شكل من أشكال الثقافة •

ليس وعي الذات انغلاقا دون التواصل • حتى لقد علمنا التفكير الفلسفي أن وعي الذات هو ضمانة التواصل • ان الوعي القومي ، أن الشعور القومي ، الذي ليس تعصبا قوميا ، هو الأمر الوحيد الذي يهب لنا بعدا عالميا • ومشكلة الشعور القومي هذه ، مشكلة الثقافة القومية هذه تأخذ في أفريقيا أبعادا خاصة • ان نشوء الشعور القومي في افريقيا يتصل بالشعور

الافريقي اتصال تعاصر • فمسؤولية الافريقي تجاه ثقافته القومية هي أيضا مسؤولية تجاه الثقافة الزنجية الافريقية ؛ وهذه المسؤولية المنضمة ليست ثمرة مبدأ ميتافيزيقي بل هي ثمرة ادراك لقانون معروف يقول بأن كل أمة مستقلة في افريقيا ستظل مطوقة تتربص بها الأخطار في كل لحظة ، الى أن تحرر افريقيا كلها من الاستعمار •

اذا كان الانسان هو ما يفعله هذا الانسان فاننا نستطيع أن نقول ان الشيء الملح المستعجل اليوم ، بالنسبة الى المثقف الافريقي، هو بناء أمته• فاذا جاء هذا البناء صادقا ، أي اذا عبر عن ارادة الشعب الواضحـــة ، اذا كشف عن تحرق الشعوب الافريقية ، كان لا محالة مصحوبا باكتشاف قيـم انسانية شاملة ، وكان يرتقي بهذه القيم الانسانية الشاملة • ان التحـــرر القومي لا يبتعد بنا عن الأمم الأخرى ، بل انه هو الذي يجعل الأمة حاضرة على مسرح التاريخ • ففي قلب الوعي القومي انما ينهض الوعي العالمي ويحيا• وليس هذا البزوغ المزدوج ، في آخر الأمر ، الا بؤرة كل ثقافة •

* * *

الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية

ولكن الحرب مستمرة • وعلينا ان نظل سنين طويلة نضمد الجراح الكثيرة ، التي لا تشفى في بعض الأحيان، الجراح التي أحدثها فيشعوبنا الاندفاع الاستعماري •

ان الاستعمار الذي يحارب الآن تحرير البشر ، يدع هنا وهناك بذور تفسخ علينا أن نكتشفها وأن نستأصلها من أراضينا ومن أدمغتنا •

ونحن باحثون هنا مشكلة الاضطرابات العقلية الناشئة عن حـــرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري •

قد يرى بعض الناس أن هذه الملاحظات التي تتصل بالطب العقلي ليست مناسبة ، وأن هذا الكتاب خاصة ليس مكانها • ولكن لا حيلة لنا في الأمر •

ان لم يكن أمرا مرهونا بنا أن أمراضا عقلية واضطرابات في السلوك قد ازدادت لدى الذين « يفرضون السلم » أو لدى الذين يفرض عليهم هذا « السلم » • والحقيقة أن الاستعمار في جوهره كان قبـــل الآن يصدّر لمستشفيات الأمراض العقلية كثيرا من زبائنها • وقد لفتنا نظر علماء الطب العقلي الفرنسيين والعالميين ، منذ عام ١٩٥٤ ، في بحوث علمية مختلفة ، الى صعوبة « شفاء » مريض من المستعمَرين شفاء سليما ، أي جعله متجانســا تجانسا تاما مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعماري •

ان الاستعمار ، من حيث هو نفي منظّم للآخر ، من حيث هو قرار صارم بانكار كل صفة انسانية على الآخر ، يحمل الشعب المستعمَر على أن يتساءل دائما هذا التساؤل : « من أنا في الواقع ؟ » •

والمواقف الدفاعية الناشئة عن هذه المواجهة العنيفة للمستعمِر وعن النظام الاستعماري ، تنتظم في بنيان يكشف عندئذ عن شخصية المستعمَر • ويكفي من أجل أن نفهم هذه « الحساسية » أن ندرس وأن نقدر عدد وعمــق الجراح التي تصيب المستعمَر خلال يوم واحد من أيام حياته في ظل النظام

الاستعماري • ويجب أن نتذكر على كل حال أن الشعب المستعمَر ليس شعبا مسيطرا عليه فحسب • لقد ظل الفرنسيون في عهد الاحتلال الالماني بشرا ، وظل الألمان في عهد الاحتلال الفرنسي بشرا • أما في الجزائر فليس هناك سيطرة فحسب ، وانما هناك عزم على ان لا يتناول الاحتلال في آخر الأمر الا أرضا • فالجزائريون ، والنساء المرتديات ملاءاتهن («الحايك»)، وكروم البلح ، والجمال ، ليست عند المستعمرين الا الصورة الاجماليه أو الارضية الطبيعية التي يبرز عليها الوجود الانساني الفرنسي •

فالطبيعة المعادية ، العصية ، المتمردة ، انما هي في المستعمرات : الفيافي ، والبعوض ، « والسكان الأصليون » وأمراض الحمى • والاستعمار ينجح حين يفلح أخيرا في اخضاع هذه الطبيعة العصية كلها • ان مد الخطوط الحديدية في الفيافي ، وتجفيف المستشفيات ، وازالة « السكان الأصليين » من الوجود السياسي والاقتصادي ، كل ذلك انما هو شيء واحد•

وفي مرحلة الاستعمار الذي لا يستنكره نضال مسلح ، حين يتجاوز مجموع التهيجات الضارة حدا معينا ، تنهار المواقف الدفاعية للمستعمَرين، فنجد عددا كبيرا من هؤلاء المستعمَرين في مستشفيات الأمراض العقلية • ففي هذه المرحلة من الاستعمار المنتصر ، نرى مقدارا مطردا كبيرا من الأمراض يحدثه الاضطهاد احداثا مباشرا •

واليوم أصبحت حرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري منذ سبع سنين ، لأنها حرب كلية لدى الشعب ، أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الاضطرابات العقلية (١) • ونحن ذاكرون هنا عددا من الحالات هي حالات مرضى جزائريين وفرنسيين عالجناهم ، وهي حالات تبدو لنا ناطقة • ومن نافل القول أن نذكر أننا لا نقدم الآن عملا علميا • فنحن نتحاشى كل مناقشة في الأعراض أو التصنيف أو العلاج • وليس المقصود من بعض المصطلحات الطبية الا أن تكون نقاط استناد • ومع ذلك يجب علينا أن نلحّ على الأمرين التاليين :

ان الطب العقلي العيادي ، بوجه عام ، يصنف مختلف الاضطرابات

---

١ ــ في المقدمة التي لم تنشر في الطبعتين الاوليين من كتابنا : « خمس سنين من الثورة الجزائرية » اشرنا الى ان جيلا بكامله من الجزائريين ، جيلا غارقا في بحر ابادة الانسان ابادة جماعية بدون ثمن ، مع كل ما يولده هذا من نتائج نفسية عاطفية ، سيكون هو التركة الانسانية التي تخلفه فرنسا في الجزائر • ان الفرنسيين الذين يستنكرون التعذيب في الجزائر يتبنون دائما وجهة نظر فرنسية تماما • ليس هذا مأخذا ، وانما هو تقرير لواقع : انهم يريدون ان يحموا ضمير المعذبين الذين يمارسون التعذيب او سيمارسونه ، ويحاولون ان يتحاشوا ما يصيب الشبيبة الفرنسية من فساد اخلاقي • ولا نستطيع ، من جهتنا ، الا ان نوافق على هذا • ان عددا من المشاهدات الطبية التي نجمعها في هذا الكتاب ، والحالتين ٤ و ٥ بوجه خاص ، مثال على صحة هذا الذي يراود الديمقراطيين الفرنسيين • وغايتنا نحن على كل حال هي ان نبين ان التعذيب يفكك شخصية المعذب « بكسر الذال » تفكيكا عميقا ، وهذا ما لعل القارىء يقدره من تلقاء نفسه •

التي لاحظناها في مرضانا في باب «أمراض الذهان الاستجابي» • وعلى هذا الأساس ننظر بعين الاعتبار خاصة الى الحادث الذي أطلق المرض ، وان كنا نشير هنا وهناك الى دور التربة المؤهبة للمرض « التاريخ النفسي والعاطفي والجسمي للمريض » والى دور البيئة ، ويبدو لنا أن الحادث الذي اطلق المرض في الحالات التي نعرضها هنا هو في الدرجة الأولى ذلك الجو الدامي الذي لا يرحم ، هو تلك الأعمال التي لا تعرف الروح الانسانية والتي أصبحت عامة شاملة ، هو هذا الشعور الدائم الذي لا يبرح نفوس الناس بأنهم يشهدون قيام الساعة •

ان الحالة رقم ٢، من السلسلة «أ» هي حالة ذهان استجابي نموذجي، ولكن الحالات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من السلسلة «ب» تحتمل تعليلا أكثر تعددا ، ولا يمكن ان نتحدث فيها عن حادث بعينه هو الذي اطلق المرض • فها هنا نقول ان الحرب ، هذه الحرب الاستعمارية التي تكتسي في كثير جدا من الأحيان صورة ابادة جماعية للنوع الانساني ، هذه الحرب التي تقلب العالم رأسا على عقب وتحطمه ، هي الحادث الذي يطلق المرض • ان في وسعنا ان نسمي المرض هنا ذهانا استجابيا اذا نحن حرصنا على استعمال اصطلاح موجود • ولكن يجب عندئذ ان نؤكد تأكيدا خاصا على ما تتصف به هذه الحرب في جملتها وفي تفاصيلها من أنها حرب استعمارية • ان المؤلفات التي ظهرت بعد الحربين العالميتين عن الأمراض النفسية بين العسكريين الذين يخوضون غمار الحرب وبين المدنيين الذين يرحلون عن ديارهم ويقاسون القصف بالقنابل ، ليست قليلة • ولكن الطابع الجديد في بعض اللوحات المرضية التي نعرضها هنا يؤكد ، اذا كان ثمة حاجة الى تأكيد ، ان هذه الحرب الاستعمارية تختلف عن غيرها حتى في الأمراض التي تفرزها •

وهناك فكرة أخرى يقررها الباحثون جازمين ، وتحتاج في رأينا الى شيء من التلطيف • هذه الفكرة هي قولهم ان هذه الاضطرابات الاستجابية ليست بالخطيرة خطرا فادحا • ولئن كان صحيحا أنهم وصفوا حالات ذات مضاعفات ذهانية ثانوية ، أي حالات تفككت فيها الشخصية تفككا نهائيا ، فان تلك الحالات التي وصفوها كانت حالات استثنائية دائما • ونحن نرى ، على خلاف ذلك ، أن القاعدة هنا هي أن هذه الاصابات المرضية اصابات خطيرة خبيثة • انها اضطرابات تدوم أشهر برمتها ، تهاجم الأنا هجوما قويا وتكاد تترك في جميع الأحوال صدعا يجعل الشخص مهيئا للمرض بسرعة، صدعا يمكن أن يلاحظ عمليا بالنظر • ولا شك أن مستقبل هؤلاء المرضى غير مكفول • وهذا مثال يوضح ذلك :

في أحد البلاد الافريقية التي فازت باستقلالها منذ عدة سنين ، صادف أن استقبلنا رجلا من وطننا كان من المناضلين القدماء • لقد جاء هذا الرجل الذي يبلغ من العمر نحو ثلاثين عاما يسألنا النصح والمعالجة ، فانه متى اقترب موعد معين من السنة استبد به أرق مصحوب بقلق وبأفكار ثابتة تهيب به الى تدمير نفسه • وهذا الموعد الحرج من السنة هو الموعد الذي وضع فيه قنبلة في أحد الأماكن العامة عملا بتعليمات صدرت اليه من شبكته•

فقتل في الحادث عشرة أشخاص «١» ٠

السلسلة آ

نجمع هنا خمس حالات هي حالات جزائريين أو أوروبيين ظهرت فيهم، على أثر حوادث معينة تماما ، اضطرابات عقلية من النموذج الاستجابي ٠

الحالة ١ ـ عجز جنسي عند جزائري على أثر اغتصاب زوجته :

ب ٠٠٠ رجل في السادسة والعشرين من عمره ٠ أرسلته الينا « الدائرة الصحية لجبهة التحرير الوطني » لأوجاع في الرأس وأرق ٠ كان سائقـــا لسيارة تاكسي ، وانخرط في النضال منذ السنة الثامنة عشرة من عمره في صفوف الأحزاب الوطنية ٠ وأصبح منذ عام ١٩٥٥ عضوا في خلية من خلايا جبهة التحرير الوطني ٠ وقد استعمل سيارته التاكسي عدة مرات في نقل منشورات وفي نقل مسئولين سياسيين ٠ وازاء تفاقم أعمال القمــع قررت جبهة التحرير الوطني ان تنقل الحرب الى مراكز في المدن ، فأصبح ب ٠٠٠ يكلّف بأن ينقل الفدائيين الى مقربة من أماكن الهجوم ، وبأن ينتظرهم في كثير من الأحيان ٠

وفي ذات يوم ، في قلب مدينة أوروبية ، بعد القيام بعمل كبـــير بعض الشيء ، اضطرته محاصرة شديدة غاية الشدة ، الى ان يترك سيارته التاكسي، وتبعثرت فرقة الفدائيين ٠ ولجأ (ب)٠٠٠ الذي أفلح في النجاة من حصار العدو ، الى بيت صديق له ٠ وبعد بضعة أيام صدر اليه الأمر من المسؤولين، قبل أن يستطيع العودة الى بيته، أن يلتحق بأقرب مركز من مراكز المجاهدين٠

وظل عدة أشهر لا يتلقى أي نبأ عن زوجته وعن ابنته الصغيرة التي تبلغ من العمر عشرين شهرا ٠ وعلم أيضا أن الشرطـــة ظلت تبحث عنه في المدينة طوال أسابيع كاملة ٠ وبعد سنتين من الاقامة في ذلك المركز من مراكز

١ـ ان ظروف ظهور هذه الاضطرابات هامة من أكثر من ناحية واحدة٠ لقد تعرف هذا الشخص، بعد استقلال بلاده بعدة اشهر ، الى اناس من البلاد التي كانت تستعمر وطنه من قبـل ، فوجدهم اناس لطافا محببين الى قلبه ٠ كان هؤلاء الرجال والنساء يحيون الاستقلال الـــذي فازت به بلاده ، ويثنون في غير تحفظ على الشجاعة التي اظهرهـا مواطنوه في نضـــال التحرير الوطني ٠ فشعر هذا المناضل عندئذ بدوار « دوخة » ٠ وتساءل في قلق ، ترى الم يكن بين ضحايا القنبلة اناس يشبهون هؤلاء الذين يتحدث اليهم الان ؟ صحيـــح ان المقهى كان ملجأ لأشخاص عرقيين معروفين ، ولكن لا شيء يمنع احد المارة من الدخول الى المقهى لاحتساء شيء ما ٠ وقد حاول هذا الشخص ، بعد اليوم الذي شعر فيه باول دوار ، ان يتحاشى التفكير في الحوادث القديمة ٠ فظهرت الاضطرابات الأولى قبل حلول ذلك الموعد الحرج ببضعة ايام ، واصبحت منذ ذلك الحين تتكرر بغير تخلف ٠

نقول بتعبير آخر : ان افعالنا لا تكف ابدا عن ملاحقتنا ٠ ان ترتيبها وتنظيمها وتعليلها يمكن ان يتغير بعد ذلك تغيرا عميقا ٠ وهذا من اهم الفخاخ التي يوقعنا فيها « التاريخ » وتحديداته ٠ ولكن هل نستطيع ان نتحاشى الدوار ؟ من ذا الـــذي يجرؤ ان يدعي ان الدوار لا يلازم كل حياة ؟

المجاهدين تلقى رسالة من امرأته تطلب اليه فيها ان ينسأها • لقد تلطخت بالعار • وعليه أن لا يفكر بعد اليوم في استئناف حياتهما المشتركة • فقلق ب ••• من ذلك قلقا فظيعا ، وسأل قائده أن يسمح له بالذهاب الى منزله خفية ، فرفض القائد ذلك • واتخذت الاجراءات اللازمة من أجل ان يتصل أحد اعضاء جبهة التحرير بزوجة الرجل وأبويه •

وبعد اسبوعين وصل الى قائد الفرقة التي يعمل فيها ب ••• تقرير مفصّل •

ما انوجدت سيارته متروكة « وقد عثروا فيها على ذخيرة» حتى ذهب عدد من الجنود الفرنسيين ومن الشرطة الى بيته • فلما لم يجدوه اعتقلوا زوجته واحتفظوا بها أكثر من اسبوع •

وقد سألوها عن الأشخاص الذين يعاشرهم زوجها ، وظلوا يضربونها ضربا وحشيا مبرحا طوال يومين • ولكن في اليوم الثالث أخرج أحد العسكريين الفرنسيين « لا تستطيع ان تذكر هل هو ضابط أم جندي » رفاقه الآخرين ، واغتصبها • وبعد قليل اغتصبها شخص آخر ، بحضور الآخرين في هذه المرة ، وقال لها : « اذا رأيت صعلوكك مرة أخرى ذات يوم ، فلا تنسي أن تذكري له ما فعل بك » • ولبثت بعد ذلك أسبوعا دون أن تستجوب مرة أخرى • ثم أعادوها الى بيتها • فلما قصت على أمها قصتها ، أقنعتها أمها بأن تروي لزوجها كل شيء ••• ولذلك ما ان استطاعت ان تتصل بزوجها حتى أفضت اليه بالعار الذي لطخها •

واستطاع ب ••• أن يتغلب على نفسه بعد انقضاء الصدمة الأولى ، لانخراطه في العمل في كل لحظة • وقد ظل يسمع خلال عدة أشهر حكايات عن نساء جزائريات اغتصبن أو عذّبن • وأتيح له ان يرى أزواج نساء مغتصبات ، فكان ينزل مصائبه الشخصية وكرامته الجريحة في المنزلة الثانية من الأهمية •

وفي عام ١٩٥٨ كلف بمهمة في الخارج • حتى اذا همّ ان يعود الى وحدته بعد مدة ، ظهرت فيه أعراض فتور عن العمل وأصبح يعاني أرقا شديدا، فقلق من ذلك رفاقه ورؤساؤه ، فأجّل سفره • وفي هذه اللحظة انما رأيناه • الاتصال الأول جيد • وجه متحرك ، ربما كان كثير الحركة • ابتسامات مبالغ فيها • مرح سطحي : « تحسنت ••• تحسنت ••• أشعر الآن بتحسن• اعطني بعض المقوّيات ، اعطني فيتامينات ، ودعني أعود الى العمل • » • وكان يظهر وراء ذلك كله قلق أساسي • وأدخل المستشفى •

انهار التفاؤل الظاهري منذ اليوم الثاني ، وأصبحنا ازاء شخص مهدد القوى ، غارق في التأمل لا يأكل، ولا يبارح سريره• انه يهرب من المناقشات السياسية ، ويظهر عدم الاكتراث بكل ما يتصل بالكفاح الوطني ، ويتحاشى سماع الأنباء الخاصة بحرب التحرير • كانت مواجهة مشكلاته أمرا شاقا جدا ولكننا استطعنا بعد بضعة أيام أن نؤلف قصته :

لقد قام خلال اقامته في الخارج بمغامرة جنسية أخفقت • فظن أن مرد هذا الاخفاق الى التعب ، وانه أمر طبيعي بعد المشي المرهق الذي قام به •

وبعد فترات سوء التغذية التي مرّ بها ، واستأنف المحاولة بعد اسبوعين ، ، فأخفق مرة ثانية • أسرّ بأمره الى رفيق له ، فنصحه هذا الرفيـق بتجرع فيتامين ب ١٢ ، فتجرع منه اقراصا ، ثمحاول محاولة جديدة ، فأخفقايضا • وأكثر من ذلك أنه قبل الفعل ببضع لحظات رغب رغبة لا تقاوم في ان يمزق صورة فوتوغرافية لابنته الصغيرة • ان مثل هذا الارتباط الرمزي كان يمكن ان يبعثنا على تصور وجود اندفاعات لا شعورية تحض على الخيانة الزوجيه • غير أن عددا من الأحاديث التي أجريناها معه ، بالاضافة الى حلم من احلام المريض « رأى في منامه تفسخ قطة صغيرة مع انتشار روائح لا تطاق » قد قادتنا الى اتجاه آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف • لقد قال لنا في ذات يوم « والحديث عن ابنته الصغيرة » : « ان في هذه البنت شيئا متفسخـــا » •

ومنذ تلك الفترة اصبح أرقه مؤلما أشد الايلام ، ورغم اسعافه بمقادير كبيرة من المهدئات فقد نشأ لديه جانة من فرط التهيج الخائف، أقلقتنا قلقا شديدا• وحدثنا عندئذ عن امرأته لأول مرة قائلا : « لقد ذاقت الفرنسيين » • وفي هذه اللحظة انما تصورنا القصة كلها • لقد برزت لحمة الحوادث • وعلمنا منه انه قبل كل محاولة جنسية كان يفكر في امرأته • وكل ما أفضى به الينا بدا لنا ذا أهمية اساسية •

« لقد تزوجت هذه الفتاة بينما كنت أحب ابنة عمي • ولكن أهلهـــا زوجوها من شخص آخر • فقبلت عندئذ الفتاة الاولى التي اقترحهـا عليَّ أبواي • كانت لطيفة مهذبة ، لكنني لم أكن أحبها • وكنت أقول لنفسي دائما، ما زلت شابا • فلأصبر قليلا ، حتى اذا وجدت ما يناسب ، طلقت وتزوجت زواجا سعيدا • لذلك كنت قليل الارتباط بزوجتي •وجاءت الحـــوادث فأبعدتني عنها مزيدا من الإبعاد • وفي نهاية الأمر كنت أجيء الى البيـــت للطعام ، وأنام دون ان أكلمها تقريبا •

« وفي المعسكر ، حين علمت ان فرنسيين اغتصبوها شعرت أول الأمر بحقد على هؤلاء الأنذال • ثم قلت : « بسيطة • انها لم تقتل • وستستطيع ان تستأنف حياتها » • وبعد بضعة أسابيع أدركت أنهم اغتصبوها لانهم كانوا يبحثون عني • والواقع أنهم اغتصبوها معاقبة لها على صمتها • لقد كان في وسعها أن تذكر لهم اسم واحد على الأقل من المناضلين ، فيهتـــدوا الى الشبكة ويحطموها، وربما استطاعوا انيقتلوني أنا• فالأمر لميكناذنمجرد اغتصاب شجع عليه التعطل أو دفعت اليه السادية ، كما أتيح لي أن أرى مثل ذلك في بعض القرى ، وانما هو اغتصاب امرأة عنيدة تحملت كل شيء الا ان تبيع زوجها • وهذا الزوج هو أنا • لقد أنقذت هذه المرأة حياتي ، وحمت الشبكة كلها• وبسببي أنا تلوث شرفها • ولكنها لمتقللي «هذا قاسيته في سبيلك » ، وانما قالت :« عليك أن تنساني ، وأن تجدد حياتك ، فقد تلطخت أنا بالعار » •

ومنذ تلك اللحظة انما عزمت في قرارة نفسي على ان استرد زوجتي بعد الحرب ، الا يجب أن أقول لك انني رأيت فـــــلاحين يكفكفون دمـوع زوجاتهم اللواتي اغتصبن على مرأى منهم • لقد هزني ذلك كثيرا • ويجب

أن أعترف لك من جهة أخرى أنني لم استطع في أول الأمر ان أفهم موقفهم هذا • ولكننا صرنا ، شيئا بعد شيء ، نتدخل في هذه الأمور ونشرحهـا للمدنيين • حتى لقد قابلت مدنيين متطوعين من اجل تزويج فتاة اغتصبها عسكريون فرنسيون وأصبحت حاملا • وذلك كله أعادني الى التفكير في مشكلة امرأتي •

لقد عزمت على أن استردها ، لكنني لا أعرف بعد كيف يكون سلوكي حين أراها • وحين أنظر الى صورة ابنتي أشعر في كثير من الاحيان أن شرفها ملطخ هي ايضا ، كأن كل ما يصدر عن امرأتي فاسد نتن • لو أنهم عذبوها ، لو أنهم حطموا جميع اسنانها ، لو أنهم كسروا ذراعها ، لما أثر فيَّ ذلك • ولكن هذا الأمر ، هل يستطيع المرء ان ينساه؟ وهل كانت مضطرة ان تطلعني على ذلك كله ؟ » •

وسألني عندئذ هل مرد ضعفه الجنسي الى همومه •

فأجبته : « جائز » •

فجلس على سريره وقال :

ـ ما عساك تفعل لو حدث لك هذا ؟

ـ لا أدري •

ـ هل تسترد امرأتك ؟

ـ أظن •

ـ ها •• اذن أنت لست واثقا كل الثقة من انك تستردها •

وأمسك رأسه بيديه ، ثم ترك الغرفة بعد بضع لحظات •

ومنذ ذلك اليوم أصبح يرضى شيئا بعد شيء ان يسمع مناقشات سياسية ، بينما أخذت اوجاع الرأس تتراجع كثيرا ، وأصبح يقبل ان يأكل •

وبعد اسبوعين التحق بوحدته ، وهو يقول لي : « الى اللقاء بعد الاستقلال • سأسترد زوجتي • واذا انتكست صحتي فسأجيء لأراك بمدينة الجزائر » •

الحالة ٢ ـ اندفاعات الى القتل غير متميزة لدى شخص نجا من الموت أثناء ابادة جماعية :

س ••• عمره ٣٧ سنة • فلاح • يسكن في قرية من مقاطعة قسطنطينة • لم يهتم بالسياسة في يوم من الأيام • أصبحت منطقته منذ بداية الحرب ميدان معارك عنيفة بين القوى الجزائرية والجيش الفرنسي • وبذلك أتيح له أن يرى قتلى وجرحى • ولكنه ظل بعيدا • وكان الفلاحون في قريته يساعدون المقاتلين الجزائريين المارّين ، من حين الى حين ، كما يساعدهم سائر الشعب • ولكن في ذات يوم من أوائل عام ١٩٥٨ أقيم كمين في مكان غير بعيد عن القرية ، نشأ عنه سقوط قتلى • فقامت القوى العدوة بحملة عسكرية وحاصرت القرية • وكانت القرية خالية من الجنود • وجمع سكان القرية جميعا واستجوبوا ، فلم يجب منهم أحد بشيء • ووصل أحد الضباط الفرنسيين بعد بضع ساعات على طائرة هليوكوبتر ، وقال : « ان هذه القرية

سيئة السمعة ، فهدموها ! » فأخذ الجنود يحرقون البيوت ، ويضربـــون بأعقاب البنادق النساء اللواتي يحاون التقاط بعض الملابس أو انقاذ بعـض المؤن • وانتهز بعض الفلاحين هذا الاضطراب ، ففروا• وأصدر الضابط أمره بجمع الباقين من الرجال ، وقادهم الى قرب مجرى من مجاري السيول ، وبدأ هناك قتلهم • فمات تسعة وعشرون • وجرح س برصاصتين اجتازت احداهما فخذه اليمنى واجتازت الثانية ذراعه اليسرى ، وسبب له هذا الجرح الثاني كسرا في عظم العضد •

وقد أغمي علي س•• فلما أفاق من اغمائه وجد نفسه وسط جماعة من جيش التحرير الوطني • وعالجته مصلحة الصحة ، ثم أجلي حين أصبح في الامكان نقله • ففي أثناء الطريق كان سلوكه يزداد شذوذا شيئا بعد شيء ، حتى أصبح يقلق حرسه • كان يطالب ببندقية ، في حين انه مدني وعاجز ، وكان يرفض أن يسير أمام أي شخص كان ، انه لا يريد ان يسير أحد وراءه• وفي ذات ليلة استولى على سلاح أحد المقاتلين ، وأخذ يطلق الرصاص في خراقة ، على الجنود النائمين ، فلم يلبث ان جرد من سلاحه بقســـوة • وكبلت يداه منذ تلك اللحظة • ثم ظلت مكبلة ، وعلى هذه الحال انما وصل الى المركز •

بدأ بأن قال لنا انه لم يمت ، وانه دبر « مقلبا » للآخرين •واستطعنا شيئا فشيئا ان نتصور قصة اخفاق قتله • ان س•• لا يعاني حالة خوف ، وانما هو مفرط في التهيج ، مع فترات من اضطراب شديد مصحوب بعويل• انه لا يكسر كثيرا ، ولكنه يزعج جميع الناس بثرثرته التي لا تنقطع وكانت المصلحة في حالة يقظة دائمة بسبب عزمه الأكيد على ان «يقتل جميع الناس»• وفي وجوده في المستشفى هاجم نحوا من ثمانية مرضى بأسلحة عثر عليهـــا مصادفة • وهو لا يستثني المرضين والأطباء • حتى لقد تساءلنا أليس من الجائز أن نكون ازاء شكل من تلك الأشكال المقنعة من مرض الصرع الذي يتميز بعدوانية شاملة متوترة في كل لحظة تقريبا •

وشرعنا في معالجته بالنوم • وابتداء من اليوم الثالث استطعنـــا بمحادثات يومية أن نزداد فهما لحالته المرضية • اختفت الفوضى العقليـــة شيئا بعد شيء • اليكم هذه الفقرات من تصريحات المريض :

« ان الله معي ••• ولكنه ليس اذن مع اولئك الذين ماتوا ••• لقد خصني الله بعنايته ••• على المرء في هذه الحياة أن يقتل حتى لا يقتل ••• كنت أجاهد لأخفي عنهم كل شيء • ان بيننا فرنسيين • ولكنهم فرنسيون متخفون يتظاهرون بأنهم عرب • يجب قتلهم جميعا • أعطني مدفعا رشاشا • جميع هؤلاء الذين يظنون جزائريين انما هم فرنسيون • وهم لا يدعونني وشأني • كلما أردت أن أنام دخلوا الى غرفتي • لكنني الآن أعرفهم • جميع الناس يريدون ان يقتلوني • ولكنني سأدافع عن نفسي • لسوف أقتلهم جميعا بغير استثناء • لسوف أذبحهم بعضا وراء بعض • وسوف أذبحك انت أيضا • انك تريد أن تقتلني • ولكن يجب ان تتبع غير هذه الطريقة • لن يكلفني شيئا ان أصرعك • الصغار ، والكبار ، والنساء والأطفال ، والطيور ،

والحمير ، هؤلاء جميعا سيلقون نفس المصير •وبعدئذ استطيع أن أنام هادئا مطمئنا ••• » •

قال س ••• ذلك كله بلغة مقطّعة ، وظل وضعه أثناء ذلك يعبر عن العداوة والغطرسة والاحتقار •

وزال الاهتياج بعد بضعة أسابيع ، غير ان ما لاحظناه فيه من تكتم وميل الى العزلة جعلنا نخشى تطورا أخطر • ومع ذلك طلب بعد شهر ان يخرج ليتعلم مهنة تناسب عاهته ، فعهد به عندئذ الى الدائرة الاجتماعية من جبهة التحرير الوطني • ورأيناه بعد ستة أشهر ، فكانت حالته حسنة •

الحالة ٣ : ذهان خائف خطير من نموذج تفكيك الشخصية بعد قتل امرأة في حالة خروج عن الطور •

ج ••• طالب سابقا • عسكري في جيش التحرير الوطني • العمر ١٩ عاما • حين وصل الى « المركز » كان مريضا منذ بضعة أشهر • هيئة متميزة: سوداوية قوية ، شفتان جافتان ، يدان مبتلتان دائما • تنهدات لا تنقطع ، يرتفع لها صدره • محاولتا انتحار منذ أول الاضطرابات • أثناء الحديث ، يبدو مصغيا الى هلوسات • وفي بعض الأحيان يحدق الى نقطة من المكان بضع لحظات ، بينما ينتعش وجهه ، فيتصور من يراه أنه يشهد منظرا • أفكار غائمة • بضع ظاهرات تعرف في الطب العقلي باسم السد : يبدأ حركة أو جملة ثم يقطعها على حين فجأة لغير سبب ظاهر • غير ان هناك عنصرا لفت نظرنا خاصة : ان المريض يحدثنا عن دمه الذي يسفح ، عن شرايينه التي تفرغ ، عن قلبه الذي فيه رصاصات • انه يتوسل الينا ان نوقف النزيف ، وأن لا نسمح بأن يلاحق حتى المستشفى لامتصاص دمه • وكان من حين الى حين يعجز عن الاستمرار في الكلام ، فيطلب قلما ، ويكتب : « لم يبق لي صوت • حياتي كلها تذهب » وجعلنا هذا التفكك في الشخصية نعتقد ان مرضه سيتطور تطورا أخطر •

وأشار المريض عدة مرات أثناء أحاديثنا معه الى امرأة توافيه عند هبوط الليل وتنديه • واذ انني علمت قبل ذلك ان أمه ميتة ، وانه كان يحبها كثيرا ، وأنه مامن شيء أمكن ان يعزيه عن فقدها « لقد اختنق صوته اختناقا شديدا في تلك اللحظة ، وترقرقت في عينيه دموع » ، فقد وجهت بحثي نحو ضرورة الأم • فلما سألته أن يصف لي تلك المرأة التي تلاحقه ، وتعذبه ، صرح لي بأن هذه المرأة ليست مجهولة له ، وبأنه يعرفها حق المعرفة ، لأنه هو الذي قتلها • فأصبح علينا أن نعرف هل نحن ازاء عقدة الذنب اللاشعورية التي تنشأ بعد موت الأم ، كما وصف ذلك فرويد في كتابه « الحداد والكآبة » • فطلبنا الى المريض أن يحدثنا عن هذه المرأة حديثا أطول ، ما دام يعرفها حق المعرفة ، وما دام هو الذي قتلها ايضا • وعلى هذا النحو عرفنا القصة التالية :

« من المدينة التي كنت فيها طالبا التحقت بمربض المجاهدين • وبعد بضعة أشهر جاءتني أخبار عن أسرتي • فعلمت ان أمي قد قتلها جندي فرنسي منذ قليل ، وأن أختيّ اقتيدتا الى بيوت العسكريين • وأنا أجهل حتى الآن

ما صارتا اليه • وقد هزّني موت أمي هزا قويا • ان أبي مات منذ بضع سنين ، واصبحت الرجل الوحيد في الأسرة ، وكان مطمعي الوحيد دائما هو ان أصل الى ما يحسّن حياة أمي وأختيّ • وفي ذات يوم ذهبنا الى مزارع المستوطنين • كان صاحبها ــ وهو استعماري فعّال ــ قد قتل اثنين من المدنيين الجزائريين • وصلنا الى المزرعة ليلا • ولكننا لم نجد الرجل • ولم يكن في البيت الا زوجته • فلما رأتنا أخذت تتضرع الينا ان لا نقتلها • قالت : « أعرف انكم جئتم من أجل زوجي ، ولكنه ليس هنا • كم مرة قلت له ان لا يتدخل في السياسة • وتقرر ان ننتظر زوجها • ولكنني كنت أنظر الى المرأة فأتذكر أمي • كانت جالسة على مقعد وكأنها في غيبوبة • وتساءلت : لماذا لا نقتلها • وأدركت هي في لحظة من اللحظات أنني أنظر اليها ، فارتمت عليّ وهي تصرخ : « لا تقتلني •• أرجوك •• عندي أطفال •• » فما هي الا لحظة حتى كانت ميتة • قتلتها بسكيني • جردني الرئيس من سلاحي وأمرني بالانصراف • واستجوبني قائد القطاع بعد بضعة أيام • واعتقدت أنني سأعدم ، ولكنني لم أعبأ «١» • وبعد ذلك أصبحت اتقيأ بعد الطعام ، وساء نومي • ثم أصبحت هذه المرأة توافيني في كل مساء تطلب دمي • ودم أمي اين هو ؟

متى هبط الليل ، ورقد المريض في فراشه ، « امتلأت غرفته بنساء لا يتغيرن • انهن جميعا نسخ واحدة لامرأة واحدة • في بطونهن جميعا طعنة فاغرة • والدم ينزف منهن جميعا ، وقد اصفرت وجوههن ، ونحلن نحولا رهيبا • وكانت هذه النساء تلاحق المريض وتطالبه أن يرد اليها دمها المسفوح • فاذا بالمريض يسمع في هذه اللحظة خرير ماء يجري ، ويتسع الخرير حتى يصبح كهدير شلال ، ثم اذا به يرى أرض الغرفة يمتلىء بدم هو دمه ، بينما النساء تتورد وجوهها شيئا فشيئا وتأخذ جروحها بالاندمال • فيستيقظ المريض وقد بلله العرق واستبد به خوف رهيب ، ويظل مضطربا حتى طلوع الفجر •

عولج المريض الشاب بضعة أسابيع ، فزالت هذه الكوابيس الليلية ولكن ظل في شخصيته صدع كبير • فانه ما ان يتذكر أمه حتى تتراءى له هذه المرأة المبقورة المرعبة الى جانبها • وقدرنا أن الزمن وحده يمكن أن يحمل بعض التحسن الى شخصية هذا المريض الشاب المفككة •

الحالة ٤ ــ شرطي اوروبي مصاب بهبوط نفسي يلتقي في بيئة المستشفى باحد ضحاياه ، وهو مواطن جزائري مصاب بخبل :

آ ••• عمره ٢٨ سنة • متزوج ، وليس له أولاد • علمنا انه يعالج نفسه وزوجته منذ بضع سنين من أجل أن ينجبا أولادا ، ولكن دون طائل للأسف • وقد أرسله الينا رؤساؤه لاضطرابات في سلوكه •

---

١ ــ بعد التقرير الطبي الشرعي الذي اوضح ان الفعل الذي ارتكبه هذا الشخص ذو طابع مرضي ، اوقفت الملاحقات القضائية التي طلبتها قيادة جيش التحرير الوطني •

الاحتكاك المباشر جيئد . وقد حدثنا المريض عن صعوباته من تلقاء نفسه . انه على تفاهم تام مع زوجته ، ومع أهلها . علاقاته برفاقه في العمل علاقات طيبة . وهو يحظى عدا ذلك بتقدير رؤسائه . والأمر الذي يزعجه هو أنه يسمع في الليل صرخات تمنعه من النوم . وقد ذكر لنا فعلا ، أنه منذ عدة أسابيع اخذيغلق النوافذ قبل النوم « نحن في الصيف » ، فيزعج بذلك زوجته التي تختنق من شدة الحر اختناقا . واكثر من ذلك انه يضع في اذنيه قطنا حتى يخفف حدة الصرخات التي يسمعها . بل انه في بعض الأحيان يفتح جهاز الراديو ليلا ، أو يصغي الى موسيقى ، حتى لا يسمع تلك الصرخات التي تخترق سمعه في الليل .

ثم أخذ آ ... يعرض لنا قصته في كثير من الافاضة :

لقد ألحق منذ بضعة أشهر بفرقة لملاحقة جبهة التحرير الوطني . فكلف في أول الأمر بمراقبة بعض المؤسسات أو المقاهي ، ولكنه أصبح بعد بضعة أسابيع يعمل في مفوضية الشرطة باستمرار تقريبا . وعندئذ انما أتيح له أن يمارس أعمال الاستجواب ، وهي أعمال لا تخلو من « ازعاجات » ، لأنهم « لا يريدون أن يعترفوا بشيء » .

- وشرح آ .. يقول : « ان المرء ليتمنى أن يقول لهم : لو كان فيهم شيء من رحمة بنا لتكلموا ، دون أن نضطر الى قضاء ساعات في انتزاع المعلومات منهم كلمة كلمة . ولكن أنى لك أن تشرح لهم ذلك !. انهم يجيبون على جميع أسئلتك بقولهم : لا أعرف . اذا سألتهم عن أسمائهم قالوا : لا أعرف ، واذا سألتهم اين يسكنون قالوا : لا اعرف . وطبعا ... لا بد لنا عندئذ من العمل .. .ولكنهم يصرخون كثيرا . وكان هذا يضحكني في أول الأمر . غير انه أخذ بعد ذلك يهزني . وأصبحت اليوم أستطيع من مجرد سماع صراخ أحدهم ان اعرف اين هو من الاستجواب ، وأي مرحلة من مراحله يقطع . فالفتى الذي لطم لطمتين وضرب بالمطرقة وراء أذنه ، له طريقة خاصة في الكلام والصراخ وفي قوله انه بريء . حتى اذا ظل ساعتين معلقا من قبضته أصبح صوته صوتاً آخر . وبعد المغطس يكون له صوت ثالث ، وهكذا دواليك. ولكن بعد الكهرباء خاصة انما يصبح الامر لا يطاق. يخيَّل الى المرء في كل لحظة أن الرجل مائت لا محالة. هناك طبعا أشخاص لا يصرخون : هؤلاء هم القساة . ولكنهم يتخيلون انهم سيقتلون فورا . ونحن لا يهمنا أن نقتلهم ، وانما يهمنا ان نحصل منهم على معلومات . لذلك فان أول ما نفعله بهؤلاء هو أن لا نجبرهم على الصراخ ، وذلك ما يصلون اليه عاجلا او آجلا . هذا وحده نصر . ثم نستمر . لاحظ اننا نتمنى لو نتفادى ذلك كله . ولكنهم لا يسهّلون مهمتنا . وقد اصبحت الآن اسمع هذا الصراخ حتى في بيتي . وخاصة صراخ عدد منهم ماتوا في المفوضية . لقد اشمأزت من هذا العمل يا دكتور . فاذا شفيتني طلبت نقلي الى فرنسا، فان رفضوا نقلي استقلت » .

وازاء هذا أمرت للمريض باجازة مرضية . واذ رفض دخول المستشفى، أخذت أعالجه في بيتي . وفي ذات يوم ، قبل حلول موعد جلسة معالجته

بقليل ، استدعيت الى الدائرة استدعاء مستعجلا ٠فلما وصل آ ٠٠٠ الى بيتي ، طلبت اليه زوجتي أن ينتظرني ، ولكنه آثر ان يمضي يجول جولة في المستشفى فيلقاني هنالك ٠ وبعد بضع دقائق ، بينما كنت عائدا الى البيت وجدته في الطريق ، مستندا الى شجرة ، مرهقا ارهاقا واضحا ، مرتجفـــا مبللا بالعرق ، يعاني نوبة قلق قوي ٠ فأركبته سيارتي ونقلته الى بيتـــي ٠ فلما استقر على الديوان روى لي انه التقى في المستشفى بواحد من مرضاي سبق أن استجوب في مراكز ، الشرطة « هو مواطن جزائري » وهو يعالج الآن من « اضطرابات سلوكية من نوع الخبل » ٠ فعلمت عندئذ أن هـــذا الشرطي قد اشترك فعلا في أنواع التعذيب التي أوقعوها في ذلك المريض ٠ ووصفت للمريض آ ٠٠٠ بعض المسكنات التي من شأنها أن تخفف قلقـه ٠ وعدت بعد انصرافه الى الجناح الذي يستشفي فيه المواطن ٠ ان الموظفين في المستشفى لم يلاحظوا شيئا ٠ ولكن المريض كان قد اختفى ٠ واكتشفـــوه أخيرا في المرحاض يحاول الانتحار « لقـد عرف المواطن الشرطي ايضـا ، واعتقد أنه جاء يقبض عليه ليقوده مرة أخرى الى مراكز الشرطة » ٠

ووقد جاءني آ ٠٠٠ بعد ذلك عدة مرات ، حتى اذا تحسنت صحتـــه تحسنا واضحا ، استطاع أن يحصل على أمر بترحيله الى بلاده لأسبـــاب صحية ٠ أما المواطن الجزائري فقد جهد الموظفون في المستشفى أن يقنعوه بانه واهم ، وبأن رجال الشرطة لا يمكن أن يأتوا الى المستشفى ، وبأنه متعب، وبأنه جيء به الى هنا للمعالجة ، الخ ٠

الحالة ٥ : مفتش اوروبي يعذب امراته واولاده :

ر ٠٠٠ العمر ثلاثون عاما ٠ جاء يستشيرنا من تلقاء نفسه ٠ انـــه مفتش في الشرطة ، وهو يلاحظ منذ بضعة أسابيع أن حالته ليست طبيعية ٠ متزوج له ثلاثة أولاد ٠ يدخن كثيرا : مائة سيجارة في اليوم ٠فقد شهوة الطعام ، وأصبح نومه مليئا بأحلام مزعجة « كوابيس » ٠ وليس لهـــذه الكوابيس خصائص معينة ٠ الذي يضايقه أكثر من أي شيء آخر هو مـــا يسميه « نوبات الجنون » ٠

من ذلك أولا أنه لا يجب أن يعارض ٠ قال « فسّر لي هذا الأمر يا دكتور ٠ انني متى صادفت معارضة ما أحسست برغبة في الضرب ٠ حتى في خارج عملي أتمنى أن أعذب من يعترض طريقي ٠ أي شيء تافه يثير في نفسي هذه الرغبة ٠ خذ هذا المثال : ذهبت مرة الى بائع الجرائد لأخذ جرائدي ٠ كان هنالك ناس كثير ٠ لا بد اذن من الانتظار ٠ مددت ذراعي لأخذ جرائـــدي « بائع الجرائد صديق لي » فاذا بأحد الواقفين في طابور الانتظار يقول لي بشيء من التحدي : « انتظر دورك » ٠ فشعرت برغبة في أن ألطمة ، وقلت بيني وبين نفسي : « لو أوقفتك بضع ساعات يا عزيزي ، لأقللت من المشاغبة بعد ذلك » ٠ وهو لا يحب الضجة ٠ وفي البيت يتمنى لو يضرب جميع من في البيت ، طوال الوقت ٠ بل هو يضرب أولاده فعلا ، حتى ابنه الصغير الذي لا يزيد عمره على عشرين شهرا ، يضربهم بوحشية نادرة ٠

غير أن الأمر الذي أخافه « هو أن امرأته انتقدته في ذات مساء ، لأنه

ضرب أولاده « حتى لقد قالت له « يمينا لقد جننت » فما كان منــه الا أن ارتمى عليها ، وأخذ يضربها ، ثم أوثقها على كرسي وهو يقول لها « سأعلمك الى الأبد أنني أنا السيد في هذا البيت » .

ومن حسن الحظ ان أولاده أخذوا يبكون ويصرخون . فادرك عندئذ خطورة ما جنت يداه ، فحلّ وثاق امرأته ، وقرر في الغداة ان يستشير طبيبا « اخصائيا في الأعصاب » . قال لنا : « انه لم يكن من قبل كما هو الآن، وانه كان لا يعاقب أولاده الا نادرا ، ولا يتشاجر مع زوجته أبدا على كل حال ، وأن سلوكه الحالي انما ظهرت أعراضه عند قيام « الاحـــداث » الجارية . وشرح ذلك بقوله : « اننا نقوم الآن بأعمال سلاح المشــاة . في الاسبوع الماضي مثلا خضنا معركة كما لو كنا ننتمي الى الجيش . ان هؤلاء السادة ، رجال الحكومة ، يدّعون انه ليس في الجزائر حرب ، وان على قوى الأمن ، أي الشرطة ، ان يعيدوا الهدوء الى نصابه . غير ان في الجزائر حربا ، وحين سيدركون ذلك ، سيكون الأوان قد فات . والشيء الــذي يقلقني خاصة انما هو التعذيب . اهذا لا يهمك أنت ؟... انني أظل اعذّب في بعض الأحيان عشر ساعات ... ؟

ــ ما الذي يحدثه التعذيب في نفسك ...

ــ أتعب . صحيح ان هناك فترات راحة للمعذّبين . ولكن أحدا لا يعرف متى يعهد باتمام العمل الى زميله . ذلك ان المسألة عندنا ما يلي : هل تستطيع ان تحمل هذا الرجل على ان يتكلم ؟ انها مسألة انتصار شخصي . نحن نتنافس . وتتحطم قبضات أيدينا آخر الأمر . وقد أصبحوا يستعينون بالسنغاليين . ولكن هؤلاء السنغاليين اما ان يضربوا ضربا مسرفا في الشدة فيهدموا الرجل في نصف ساعة ، وأما ان يضربوا ضربا مسرفا في اللين لا يؤدي الى نتيجة . الواقع ان على المرء أن يكون ذكيا حتى ينجح في هذا العمل . يجب ان يعرف متى يشتد ومتى يلين . المسألة مسألة حذق . ولذلك لا بد أن يتولى المرء العمل بنفسه ، لأنه يستطيع عندئذ أن يراقب تقدم الاستجواب مراقبة أكمل . أنا أخالف اولئك الذين يعهدون بتحضير الشخص الى آخرين ، ولا يزيدون على أن يجيئوا كل ساعة ليروا ما وصل اليه الأمر . ويجب خاصة ان لا يشعر الشخص المعذّب بأنه لن يخرج من بين أيدينا حيا ، والا قال لنفسه : فيم أتكلم ما دام الكلام لا ينقذ حياتي ! وفي هذه الحالة لا يمكن أن نعرف أي شيء . يجب ان نترك للشخص المعذب أملا : الأمل الذي هو الذي ينطقه .

« غير ان ما يزعجني اكثر من أي شيء آخر هو قصة امرأتي . انه لأكيد ان بي شيئا من جنون يجب ان تشفيني منه يا دكتور » .

واذ رفضت السلطات التي يتبعها هذا المريض ان تمنحه اجازة راحة، واذ كان هو نفسه من جهة أخرى لا يريد أن يحصل على شهادة من طبيب أمراض عقلية، فقد بدأنا بمعالجته وهو « يقوم بعمله » . واضح ان مثل هذا الاجراء ضعيف . فلقد كان الرجل يعلم حق العلم ان اضطراباته ناشئة مباشرة عن نوع العمل الذي يقوم به في قاعات الاستجواب ، وان يكن قد حاول ان يلقي

التبعة بوجه اجمالي على « الأحداث » الخارجية • ولما كان لا يفكر في التوقف عن القيام بأعمال التعذيب (اذ ان معنى ذلك ان يستقيل) ، فقد طلب الي ، من غير لف ولا دوران ، ان أساعده على ان يعذب المواطنين الجزائريين دون ان يصاب من ذلك باضطراب في السلوك ، أي ان يعذبهم بهدوء وجأش رابط (١) •

السلسلة ب

جمعنا هنا حالات أو فئات حالات كان فيها الحادث الذي أطلق المرض هو أولا وقبل كل شيء جو الحرب الشاملة ، الذي يرين على الجزائر •

الحالة ١ ــ اثنان من الفتيان الجزائريين عمرهما ١٣ سنة و١٤ سنة، يقتلان رفيقا أوروبيا من رفاقهما في اللعب :

نحن هنا ازاء تقرير من تقارير الطب الشرعي • صبيان جزائريان عمرهما ١٣ و ١٤ سنة ، تلميذان في مدرسة ابتدائية ، اتهما بقتل أحد رفاقهما الأوروبيين • وقد اعترف الصبيان بأنهما ارتكبا هذا الفعل • وأعيد تمثيل الجريمة • وضمت الصور الفوتوغرافية الى اضبارتهما • ففي هذه الصور نرى أحد الصبيين يمسك الضحية ، بينما يطعنها الثاني بسكين • لم يتراجع المتهمان الصغيران عن اعترافاتهما • وقد أجرينا معهما محادثات طويلة • ونحن ننقل الى القارىء فيما يلي أقوالهما التي لها صفة مميزة :

أ ــ الصبي الذي عمره ١٣ سنة :

« لم نكن غاضبين منه • كنا نذهب في جميع ايام الخميس معا الى الصيد بالنقافة ، على الرابية التي تعلو القرية • وكان رفيقا لنا طيبا • وكان قد انقطع عن الذهاب الى المدرسة ، لأنه كان يريد ان يصبح بناء كأبيه • وفي ذات يوم قررنا ان نقتله ، لأن الأوروبيين يريدون أن يقتلوا جميع العرب • ونحن لا نستطيع ان نقتل « الكبار » ، ولكننا نستطيع أن نقتله هو ، لأنه في مثل سننا • وكنا لا نعرف كيف نقتله • أردنا ان نرميه في حفرة ، ولكن لو رميناه في حفرة لجرح فقط • لذلك أخذنا سكينا من البيت وقتلناه •

ــ ولكن لماذا وقع اختياركما عليه هو ؟

ــ لأنه يلعب معنا وما كان لولد آخر أن يصعد معنا الى الرابية •

ــ ولكنه رفيق لكما ؟

ــ ولماذا يريدون هم أيضا أن يقتلونا ؟ إن أباه منخرط في المليشيا ، ويقول : انه يجب ذبحنا •

ــ ولكن هل قال هو لك شيئا من هذا القبيل ؟

---

١ ــ نحن في هذه الحالة ازاء مرض يؤلف مجموعة منسجمة لا تدع شيئا من الأشياء سليما • ان الجلاد الذي يحب الطيور او يستمتع في خلوة هادئة بسمفونية او سوناتة ليست حالته الا مرحلة ، وبعد ذلك تستحيل حياته الى سادية جذرية مطلقة •

ـ هو ؟ لا ٠٠
ـ هل تعلم أنه الآن ميت ؟
ـ نعم ٠٠
ـ ما هو الموت ؟
ـ هو أن ينتهي الأمر ، ويذهب الشخص الى السماء ٠
ـ أأنت الذي قتلته ؟
ـ نعم ٠٠
ـ هل تشعر بندامة على أنك قتلت أحدا ؟
ـ لا ، ما داموا يريدون ان يقتلونا ٠٠٠
ـ هل يزعجك انك في السجن ؟
ـ لا ٠٠

ب ـ الصبي الذي عمره ١٤ سنة :

ان هذا الفتى المتهم يختلف عن رفيقه اختلافا واضحا ٠ انه يوشك أن يكون رجلا من الآن ، يوشك أن يكون راشدا بحركات جسمه ، وشكل وجهه ، ولهجة كلامه ، ومضمون أجوبته ٠ هو أيضا لا ينكر أنه قتل ٠ فلما سألته لماذا قتل ، لم يجبني ، بل سألني هل رأيت في حياتي أوروبيا في السجن ، فاجبته بأنني حقا لم أر في حياتي أوروبيين سجناء ٠

ـ ومع ذلك هناك جزائريون يقتلون كل يوم ، أليس هذا صحيحا ؟
ـ صحيح ٠٠٠
ـ اذن لماذا لا نجد في السجون الا جزائريين؟ هل تستطيع أن تفسر لي هذا الأمر ؟
ـ لا ٠٠ ولكن قل لي لماذا قتلت ذلك الصبي الذي كان رفيقا لك ؟
ـ سأشرح لك ٠٠٠ هل سمعت بقضية ريفيه (١) ؟
ـ نعم ٠٠٠
ـ لقد قتل اثنان من اقربائي في ذلك اليوم ٠ وقيل يومئذ عندنا ان الفرنسيين حلفوا ليقتلننا جميعا بعضا في اثر بعض ٠ فهل اعتقل فرنسي واحد بسبب مقتل جميع هؤلاء الجزائريين ؟
ـ لا أعلم ٠
ـ فاعلم اذن انه لم يعتقل أحد ٠ وقد أردت أنا أن أصعد الى الجبال ، لكني صغير ٠ فقررت مع س٠٠٠ أن من الواجب أن نقتل أوروبيا٠
ـ ولماذا ؟
ـ وما الذي كان يجب أن نفعله في رأيك ؟
ـ لا أدري ٠ ولكنك طفل ، وهذه الأمور التي تحدث إنما هي من شأن الكبار ٠

---

١ ـ قرية اصبحت شهيرة في مقاطعة الجزائر منذ احد ايام سنة ١٩٥٦ ٠ ذلك ان جنودا من الميليشيا الفرنسية هاجموا هذه القرية في ذات مساء ، فانتزعوا اربعين جزائريا من اسرهم وقتلوهم ٠

ـ ولكنهم يقتلون أطفالا أيضا ...
ـ ولكن هذا لا يبرر قتلك رفيقك .
ـ قتلته . وافعلوا الآن ما تشاؤون .
ـ هل أساء اليك هذا الرفيق اساءة ما ؟
ـ لم يسيء اليّ .
ـ اذن ؟
ـ هذا ما حصل ...

• **الحالة ٢ : شاب جزائري عمره ٢٢ عاما يهذي هذيان اتهام ، ويسلك سلوكا انتحاريا مقتنعا بانه يقوم « بعمل ارهابي » :**

أرسل هذا المريض الى المستشفى من قبل السلطة القضائية الفرنسية. وقد اتخذ هذا الاجراء بعد شهادة طبية شرعية قدمها أطباء فرنسيون يمارسون مهنة الطب العقلي في الجزائر .

رجل ناحل ، يعاني حالة خلط شديد . جسمه مغطى بكدمات .وفي فكه كسران يجعلان أي ابتلاع للأطعمة مستحيلا . ولذلك ظل المريض خلال أكثر من اسبوعين يغذى بحقن مختلفة .

بعد انقضاء اسبوعين خفت حالة الفراغ الفكري ، وأمكننا أن نحقق بعض الاتصال به ، أوصلنا الى تصور القصة الدرامية التي عاشها هذا الشاب :

كان في فتوته يمارس الكشفية بحماسة نادرة ، حتى أصبح من المسئولين الرئيسيين في الحركة الكشفية الاسلامية . ولكنه حين بلغ التاسعة عشرة من عمره أهمل الكشفية اهمالا تاما ، وأصبح لا يعنى الا بمهنته . فكان يدأب على الدروس دأبا شديدا ويحلم ان يصبح اخصائيا ممتازا في حرفته التي انقطع لها ، وهي حرفة ميكانوغراف . فلما انطلقت الثورة يوم أول تشرين الثاني من عام ١٩٥٤ ، كان هو غارقا في مشكلات مهنية صرفة ، فلم يستجب أية استجابة لحركة التحرير الوطني . وكان قد انقطع عن رفاقه القدامى قبل ذلك . وقال عن نفسه يومئذ انه « مجند لتحسين قدراته التكنيكية » .

ومع ذلك ففي منتصف عام ١٩٥٥ ، أثناء سهرة عائلية ، احس فجأة ان أهله يعدونه خائنا . وامحى هذا الاحساس بعد بضعة أيام ، ولكن بقي له منه شيء من القلق أو شيء من الانزعاج لم يستطع أن يفهمه .

أصبح يتناول طعامه بسرعة ، ويهرب من البيئة العائلية ، ويعتزل في غرفته . انه يتحاشى أي اتصال بأحد . وفي هذه الظروف انما وقعت كارثته . ففي ذات يوم ، بينما كان سائرا في الشارع ، في نحو الساعة الثانية عشرة والنصف ، سمع صوتا واضحا يصفه بأنه خائن . فالتفت الى وراء ولكنه لم ير أحدا . فحث الخطى وقرر أن لا يذهب الى عمله بعد اليوم. ولبث في غرفته ولم يتناول طعام العشاء . وفي أثناء الليل وافته النوبة ، فكان خلال ساعات ثلاث يسمع جميع أنواع الشتائم ، أصواتا في رأسه وفي الليل : يا خائن ، يا جبان ... اخوتك جميعا يموتون ... خائن .. خائن .... » .

استولى عليه قلق لا سبيل الى وصفه : « ظل قلبي ، خلال ثمـــاني عشرة ساعة ، يخفق ١٣٠ خفقة في الدقيقة • واعتقدت انني مائت » •

ومنذ ذلك اليوم اصبح المريض لا يستطيع ان يبلع شيئا • فنحـــل نحولا ظاهرا ، وانزوى في ظلام مطبـــق ، واصبح يرفض ان يفتح الباب لأبويه • وفي اليوم الثالث ارتمى يصلي ، فكان يظل ساجدا مدة ١٧ ـ ١٨ ساعة كل يوم ، كما قال • وبعد أربعة أيام رأى نفسه يندفـــع الى الشارع « كالمجنون » ، « بلحية كان من شأنها أيضا ان تحمل من يراه على ان يحسب انه مجنون » فلما اصبح في الشارع لم يعرف اين يذهب • ولكنه ظل يسير، بعد زمن في المدينة الأوروبية• وكانت سحنته « يلاحظ انه يشبه ان يكون أوروبيا » تحميه من استيقافات الدوريات الفرنسية ومراقباتها ، على حين أن جزائريين وجزائريات كانوا حواليه يوقفـــون ويضربـــون ويشتمـــون ويفتشون •• ومن الصدف أنه لم يكن يحمل أية ورقة • فكان مـــن شان هذه اللباقة العفوية من جانب الدوريات العدوة ان عززت هذيانه : « جميع الناس يعلمون أنه مع الفرنسيين • حتى الجنود لديهـــم تعليمـــات بأن لا يتعرضوا له » •

وأكثر من ذلك ان نظرات الجزائرييـــن المستوقفين الذيـــن رفعـــوا يديهم وراء النقرة ينتظرون تفتيشهم ، بدت له مليئة بالاحتقار • فاضطرب اضطرابا شديدا ، وأسرع يبتعد •. وفي تلك اللحظة وصل الى العمارة التي فيها قيادة الجيش الفرنسي • فرأى على الباب الحديدي عددا من العسكريين يحملون مدافع رشاشة • فتقدم نحو الجنود وهجم على أحدهـــم يحـــاول ان ينتزع منه مدفعه وهو يقول : « أنا جزائري » •

فسرعان ما قبضوا عليه ، وقادوه الى مراكز الشرطة ، حيث أصـــر المستجوبون على أن يعترف لهم بأسماء رؤسائه ، وبأسماء مختلف أعضاء الشبكة التي ينتمي اليها • وأدرك رجال الشرطة والعسكريون بعد بضعة أيام أن الرجل مريض • فقرروا احالته الى الطبيب الشرعي الذي شهد بأنه يشكو من اضطرابات عقلية ،ونصح بادخاله المستشفى • قال لنا : « ان ما كنت أريده هو أن أموت •وحتى عند الشرطة كنت اعتقد وآمل ان يقتلوني بعد التعذيب • كنت سعيدا بالضرب ، لأنه يبرهن لي على أنهم يعدونني انا عدوا لهم • لقد أصبحت لا أطيق ان اسمع تلك الاتهامات دون ان ارد عليها• لست جبانا • لست امرأة • لست خائنا » (١) •

الحالة ٣ : حالة عصابية لدى شابة فرنسية قتل أبوهـــا ، الموظف الكبير ، اثناء كمين :

ان هذه الفتاة ، وهي طالبة في العام الحادي والعشرين من عمرها ، قد استشارتني في أمر ظاهرات صغيرة من نوع القلق تضايقها في دراستها وفي علاقاتها الاجتماعية • راحتا كفيها مخضلتان دائما ، حتى لقد تمر فترات

---

١ ـ في خلال عام ١٩٥٥ زادت الحالات التي من هذا النوع زيادة كبيرة • ومن المؤسف انه لم يتح لجميع المرضى حظ الوصول الى المستشفى •

مقلقة حقا « يسيل فيها الماء من يديها سيلانا » تشعر بانقباضات صدرية مصحوبة بصداع في الليل وهي تقضم أظافرها • غير ان الشيء الذي يخطف البصر خاصة هو سهولة الاتصال بها اتصالا سريعا جدا ، في حين يلاحظ أن وراء ذلك قلقا كبيرا • وحين أشارت المريضة الى موت أبيها الذي لم يمض على موته زمن طويل ، أشارت الىذلك بخفة كبيرة جعلتنا نوجّه بحوثنا نحو علاقاتها بأبيها • ان الكلام الذي قالته لنا ، وهو كلام واضح ، صاح كل الصحو ، صاح صحوا يقارب فقدان العاطفة ، هو الذي كشف لنا بطابعه العقلي نفسه ، عن الاضطراب الذي تعانيه هذه الفتاة ، وعن طبيعة الصراع الذي يقوم في نفسها وعن أصل هذا الصراع •

« كان أبي موظفا من كبار الموظفين • كانت منطقة ريفية واسعة تحت امرته • ومنذ بدأت الأحداث أخذ يطارد الجزائريين بحنق مسعور ، حتى أصبح لا يأكل ولا ينام من فرط ما كان يهتاج في سبيل قمع العصيان • لقد شهدت التحول البطيء الذي عاناه ابي ، دون ان استطيع أن افعل شيئا البتة• وقررت أخيرا أن لا أزوره ، وأن أبقى في المدينة • ذلك أنني كلما ذهبت الى البيت كنت أظل مستيقظة ليالي برمتها ، لأن أصواتا صاعدة من أسفل كانت تظل تقرع سمعي : ففي القبو وفي الحجرات التي أصبحت أمكنة للتعذيب ، كان يعذَّب جزائريون بغية الحصول منهم على معلومات • انك لا تستطيع ان تتصور فظاعة ما يحدثه هذا الصراخ طوال الليل في النفس • وقد تساءلت في بعض الأحيان كيف يطيق كائن انساني ان يسمع صراخ الألم هذا ، ناهيك عن القيام بالتعذيب • وكان ذلك يستمر • وانقطعت آخر الأمر عن المجيء الى البيت • وفي المرات النادرة التي جاء فيها أبي الى المدينة كنت لا أستطيع أن أنظر الى وجهه الا وأشعر بانزعاج شديد ورعب فظيع • وأصبح يشق على نفسي أن أقبّله •

« ذلك انني أقمت في القرية زمنا طويلا • حتى لأكاد أعرف جميع أسرها • وما أكثر ما لعبنا معا ، أنا وهؤلاء الشبان الجزائريون الذين هم في سني ، حين كنا صغارا • وكلما جئت الى البيت أنبأني أبي ان أشخاصا آخرين اعتقلوا • وأصبحت في آخر الأمر لا أجرؤ ان أسير في الشارع ليقيني بأنني سألقي الكره أنى ذهبت • وفي قرارة نفسي كنت أرى ان هؤلاء الجزائريين على حق • فلو كنت جزائرية لالتحقت بالمقاتلين » •

وفي ذات يوم أثناء ذلك تلقت برقية تنبئها ان اباها قد اصيب بجراح خطيرة • فذهبت الى المستشفى فوجدته غائبا عن وعيه • ومات بعد ذلك بقليل • لقد جرح أبوها اثناء حملة تفتيشية قام بها مع فصيل عسكري ، فوقعت الدورية في كمين أعده الجيش الوطني الجزائري •

قالت الفتاة : « لقد قززني الدفن • ان جميع اولئك الضباط الذين جاءوا يبكون ابي الذي « جعلته مزاياه الأخلاقية الرفيعة يغزو قلوب سكان البلاد » قد أثاروا في نفسي الغثيان • لقد كانوا يعلمون جميعا ان ذلك كذب• وما من أحد يجهل ان ابي كان يدير مراكز الاستجواب في المنطقة كلها• انهم يعلمون ان قتلى التعذيب كان يبلغ عددهم عشرة في اليوم ، وها هم

اولاء يرددون الأكاذيب عن الاخلاص والتضحية وحب الوطن وما الى ذلك ·· يجب ان أقول ان الألفاظ لم يبقَ لها في نظري قيمة ، او لم يبق لها قيمة كبيرة على كل حال · وعدت الى المدينة فورا ، وتهربت من جميع السلطات· عرضوا عليّ مساعدات مالية ، ولكنني رفضت · لا أريد مالهم · انه ثمن الدم الذي سفحه ابي · لا اريده · سوف أعمل » ·

الحالة ٤ : اضطرابات في السلوك لدى صبيان جزائريين ، عمرهم اقل من ١٠ سنين :

هم أطفال لاجئون ، أبناء مجاهدين أو مدنيين قتلهم الفرنسيـــون ، فرحلوا الى مراكز مختلفة بتونس والمغرب· لقد أدخل هؤلاء الأطفال المدارس· ويشرف عليهم بعض الأطباء اشرافا منتظما · وبذلك انما اتيح لنا ان نرى عددا منهم :

أ) ان لدى هؤلاء الأطفال المختلفين حبا قويا جدا للصور التي تمثل الأبوين · فهم يسعون سعيا حثيثا الى كل ما يشبه أبا أو أما ، ويحرصون على المحافظة عليه أشد الحرص ·

ب) يلاحظ فيهم عامة أنهم يخافون الضجة خوفا شديدا ، ويتأثرون تأثرا قويا حين يؤنبون · انهم في ظمأ شديد الى الهدوء والعطف ·

ج) كثير منهم يعانون الأرق ويسيرون اثناء النوم ·

د) يبللون الفراش من حين الى حين ·

ه) ميل سادي· هذه لعبة بينهم : قطعة من الورق يشدونها ويأخذون يثقبونها بالدبوس في كثير من الحنق · يعضون جميعا أقلامهم · يقضمون أظافرهم بدأب لا ينفع فيه نصح · يتشاجرون كثيرا رغم ما بينهم من عاطفة قوية ·

الحالة ٥ : حالات ذهان الولادة لدى اللاجئات :

يطلق اسم ذهان الولادة على الاضطرابات العقلية التي تظهر في المرأة عند الأمومة · وهذه الاضطرابات يمكن أن تظهر قبل الولادة رأسا أو بعد الولادة ببضعة أسابيع · وأسباب هذه الأمراض معقدة جدا · ولكن يقـدِّر الباحثون أن السببين الأساسيين هما البلبلة التي تطرأ على عمل الغـــدد الصماء ، ووجود « صدمة عاطفية » · وهذا العامل الأخير ، وان يكن غامضا، يشمل كل ما تسميه العامة « انفعالا كبيرا » ·

فمنذ القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية بأن تتبع سياسة الأرض المحروقة على مئات الكيلومترات ·· أصبح يوجد على الحدود التونسيـــة والمغربية ما يقرب من ٣٠٠،٠٠٠ لاجىء · ويعرف المطلعون حـــالة العوز الشديد التي يعيش فيها هؤلاء اللاجئون · لقد انتقلت الى هذه الأماكـــن بعثات من الصليب الأحمر الدولي ، فلما اطلعت على البؤس الشديد وعلى الظروف القلقة التي تكتنف معيشة هؤلاء التعساء أوصت المنظمات الدولية بزيادة المساعدات التي تقدم اليهم زيادة كبيرة جدا · فمن المتوقـــع اذن ، بسبب سوء التغذية في هذه المعسكرات ، أن تكون النساء الحوامل متأهبات

تاهبا خاصا لانطلاق أمراض ذهان الولادة فيهن •

ان الغزوات المتكررة التي تقوم بها القطاعات الفرنسية ، مطبقة « حق التتبع والمطاردة » ، وكذلك الحملات الجوية وعمليات القصف بالقنابل - من المعلوم أن عمليات قصف الأراضي المغربية والتونسية بالقنابل من قبل الجيش الفرنسي أصبحت لا يحصى عددها ، وبعد قصف ساقية سيدي يوسف ، القرية التونسية الشهيرة ، أدماها - وأيضا تبعثر أفراد العائلة نتيجة لظروف الرحيل • ذلك كله يحيط هؤلاء اللاجئين بجو دائم من الشعور بعدم الأمان • ويجب أن نعلن أن اللاجئات الجزائريات اللواتي لم تظهر فيهن اضطرابات عقلية قلة قليلة •

وهذه الاضطرابات تكتسي أشكالا عدة • فهي تارة هيجانات يمكن أن تتجلى في سورات عنيفة من الحنق ، وهي تارة حالات هبوط نفسي شديد يتميز بالسكون مع محاولات انتحار متكررة ، وهي تارة حالات خوف مصحوب ببكاء وانتحاب واستغاثة وما الى ذلك • وكذلك يتنوع مضمون الهذيانات التي تلاحظ فيهن • فهو تارة هذيان اضطهاد مبهم يتناول أي شخص من الأشخاص ، وهو تارة هجوم هذياني على الفرنسيين الذين يريدون الطفل الذي سيولد أو الذي ولد منذ قليل ، وهو تارة شعور بأن الموت وشيك ، والمريضات في هذه الحالة الأخيرة يضرعن الى جلادين لا يرون ان لا يقتلوا أولادهن •

ويجب أن نذكر هنا أيضا أن المضامين الأساسية للهذيان لا يطردها تطامن المرض وتراجع الاضطرابات ، فان الظروف التي تعيشها المريضة بعد الشفاء تظل تغذي فيها هذه العقد المرضية •

السلسلة ج : تبدلات عاطفية عقلية ، واضطرابات نفسية بعد التعذيب•

نجمع في هذه السلسلة المرضى الذي ظهرت اضطراباتهم ، الخطيرة كثيرا أو قليلا ، بعد التعذيب رأسا أو أثناء التعذيب ، وسنصف فئات فرعية منهم ، اذ لقد أدركنا ان كل طريقة من طرق التعذيب نماذج مرضية خاصة ، بغض النظر عن كون اصابة الشخصية قوية أو عميقة •

الفئة ١ : بعد التعذيب العام الذي يسمونه تعذيبا وقائيا :

نشير هنا الى الطرائق الوحشية التي لا يقصد منها ان تكون تعذيبا بقدر ما يقصد منها ان تجبر المعذَّب على الكلام • والمبدأ الذي يقول ان الألم حين يبلغ حدا معينا يصبح ألما لا يطاق ، هذا المبدأ له هنا أهمية خاصة ، فالغاية اذن هي الوصول الى هذا الحد الذي لا يطاق ، بأقصى سرعة ممكنة • ان التعذيب المحكم لا يستعمل في هذه الحالة ، وانما يعمد المعذبون الى هجوم كبير متعدد الأشكال : فيكون هنالك عدد من رجال الشرطة يضربون السجين في آن واحد ، يطوقه أربعة منهم ويأخذون يتراشقونه بالضرب ، بينما يحرق واحد صدره بسيجارة ويضرب آخر راحتي قدميه بعصا ••• بعض طرائق التعذيب المستعملة في الجزائر قاسية قسوة خاصة ، وقد حدثنا عنها أشخاص استعملت في تعذيبهم :

أ ـ حقن الشخص بماء عن طريق الفم ، مع غسل بماء قوي الضغط فيه الصابون . ب ـ ادخال زجاجة في الشرج .

وهناك شكلان من التعذيب يقال لهما التعذيب « بالسكون » :

ج ـ يركع السجين على ركبتيه ، ويرفع ذراعيه موازيتين للأرض ، موجها راحتيهما الى السماء . جاعلا صدره ورأسه منتصبتين . ولا يسمح له بالقيام بأية حركة . ووراءه يجلس شرطي على كرسي ، فاذا تحرك ردّه الى السكون بضربات من عصا ذات عقد .

د ـ يقف السجين جاعلا وجهه الى الجدار ، رافعا ذراعيه ، لاصقا يديه بالحائط . وهنا أيضا لا يجوز له ان يتحرك ، حتى اذا استرخى أي استرخاء انهالت عليه الضربات .

ولنذكر هنا ان ثمة نوعين من المعذّبين :

١ ـ اولئك الذين يعرفون شيئا ما .

٢ ـ اولئك الذين لا يعرفون شيئا .

١) فأما الذين يعرفون شيئا ما فقلما يجيئون الى المؤسسات الصحية . انه يعرف طبعا ان فلانا من المواطنين قد عذّب في السجون الفرنسية ولكن لا يرى كمريض .

٢) وأما الذين لا يعرفون شيئا فانهم كثيرا ما يجيئون يستشيروننا . ولسنا نتحدث هنا عن الجزائريين الذين يضربون اثناء حملة تطهيرية . فهؤلاء ايضا لا يجيئون الينا مرضى . وانما نحن نتكلم عن اولئك الجزائريين غير المنخرطين في منظمات ، الذين يعتقلون ويقادون الى مراكز الشرطة أو مزارع الاستجواب ليستنطقوا .

الأمراض النفسية المشاهدة

أ) حالات هبوط مضطرب : ٤ حالات .

هم مرضى يبدو عليهم الحزن ، من غير خوف حقيقي ، يعانون هبوطا شديدا ، فلا يبارحون أسرتهم ، ولا يتصلون أي اتصال بالناس ، ثم يظهر فيهم على حين فجأة اضطراب عنيف أشد العنف يصعب دائما ان تفهم دلالته .

ب) فقدان القدرة على تناول الطعام : ٥ حالات .

ان مشكلات هؤلاء المرضى خطيرة ، اذ ان فقدانهم قدرتهم على تناول الطعام لأسباب نفسية ، مصحوب بخوف شديد من أية ملامسة جسمية ، فاذا اقترب الممرض من المريض وحاول ان يلمسه ، ان يتناول يده مثلا ، ردّه المريض عنه في قسوة . فليس من الممكن امداد هؤلاء المرضى بتغذية اصطناعية أو تجريعهم أدوية «١» .

ج) فقدان الاستقرار الحركي : ١١ حالة

نحن هنا ازاء مرضى لا يستقرون في مكان . وهم منزوون دائما ويصعب ان يقبلوا الانحباس مع الطبيب في مكتبه .

ان هناك شعورين ظهرا لنا شائعين لدى هذه الفئة الأولى من الذين نالهم التعذيب :

أولهما الشعور بالظلم . كأن شيئا لدى هؤلاء الرجال قد انكسر بعد

أن عذّبوا ليالي وأياما من أجل لا شيء . وقد عانى أحد هؤلاء المعذبين تجربة مؤلمة خاصة : فبعد أن عذب أياما برمتها من غير طائل ، اقتنع رجال الشرطة أنهم ازاء شخص مسالم ، غريب تماما عن تلك الشبكة من شبكات جبهـة التحرير الوطني . ولكن مفتش الشرطة قال لهم رغم ذلك الاقتنـاع : « لا تتركوه هكذا . شدوا عليه أيضا . فبذلك يبقى هادئا بعد أن يخرج » (١).

والثاني عدم الاكتراث بأي حجة أخلاقية . فهؤلاء المرضى يعتقدون أنه ليس هناك قضية عادلة ، ان القضية المعذّبة قضية ضعيفة . وعلى المرء اذن قبل كل شيء أن يهتم بزيادة قوته ، وأن لا يتساءل عن عدالة قضية مـن القضايا . فلا قيمة للقوة .

الفئة ٢ : بعد التعذيب بالكهرباء :

أدرجنا في هذه الفئة الوطنيين الجزائريين الذيـن عذّبوا خاصـة بالكهرباء والواقع أن الكهرباء كانت في السابق وسيلة من جملة وسائـل التعذيب ثم أصبحت ابتداء من شهر أيلول ١٩٥٦ الوسيلة الوحيدة في بعض الاستجوابات .

الأمراض النفسية المشاهدة

أ) أمراض في الاحساسات تتناول أجزاء معينة من الجسم أو تشمل الجسم كله : ٣ حالات .

هم مرضى يشعرون بتنميل في الجسم ، بأن اليد تقلع ، بأن الرأس ينفجر ،بأن اللسان يبلع .

ب) فقدان العاطفة ، فقدان الارادة ، فقدان الاهتمام : ٧ حالات .

هم مرضى ساكتون لا يتحركون ، ليس لهم هدف ، ليس فيهم دافع ، يعيشون حياتهم يوما يوما .

ج) ذعر فظيع من الكهرباء : خوف من ملامسة مفتاح كهربائي ، خوف من اشعال جهاز الراديو ، خوف من التلفون. يستحيل على الطبيب استحالة مطلقة أن يذكر لهم ، ذكرا عارضا ، أن من الممكن أن يعالجوا بصدمة كهربائية.

الفئة ٣ : بعد « مصل الحقيقة » :

مبدأ هذه المعالجة معروف . فالمريض الذي يبدو أنه يشكو من صراع نفسي لا شعوري تعجز المحادثة عن ابرازه الى الخارج ، يلجأ معه الى طرائق كيماوية . ومادة البانتوتال التي تحقن في الوريد هي المادة المستعملة أكثر من غيرها بغية تحرير المريض من صراع يبدو أنه يفوق قدرته على التلاؤم .

---

١ ـ على الهيئة الطبية أن تتناوب العمل ليلا نهارا في الهام المريض بالشرح . وواضح ان الطريقة القائلة بقسر المريض قليلا ، لا يمكن ان ينفع استعمالها هنا .

١ ـ ان هذا التعذيب الوقائي يصبح في بعض المناطق « قمعا وقائيا » وعلى هذا الاساس رأينا في ريفه ان المستوطنين الفرنسيين ، وقـد ارادوا ان لا يؤخذوا على حيـن غرة ، (اذ بدات المناطق المجاورة تتحرك) قرروا ان يبيدوا ، هكذا بكل بساطة ، اولئك الذيـن ربما كانوا اعضاء في جبهة التحرير الوطني ، فقتلوا اكثر من اربعين جزائريا في آن واحد . رغم ان الهدوء كان يسود المنطقة .

فمن أجل تخليص المريض من هذا «الجسم الأجنبي» انما يتدخل الطبيب«١»· وقد لوحظ مع ذلك ان من الصعب أن نتحكم بالانحلال التدريجي للالحاحات النفسية · ولم يكن أمرا نادرا أن نشهد تفاقمات خطيرة ، أو ظهور صفات مرضية جديدة لا سبيل الى تعليلها اطلاقا · ولذلك عمد الاطباء عامة الى هجر هذه الطريقة بعض الشيء ·

وفي الجزائر وجد الأطباء العسكريون وأطباء الامراض العقلية أن في قاعات الشرطة مجالا كبيرا للتجريب · فاذا كانت مادة البانتوتال تزيل ، لدى المصابين بأمراض العصاب ، الحواجز التي تحول دون خروج الصراع النفسي الى النور ، فلا بد ان تستطيع هذه المادة أن تحطم لدى الوطنيين الجزائريين الحاجز السياسي وأن تسهّل حمل السجين على الادلاء باعترافات ، دونما حاجة الى استعمال الكهرباء « ان التقاليد الطبية تريد تفادي الالم » · ذلك هو الشكل الطبي من أشكال « الحرب المخرّبة » ·

واليكم السيناريو : أولا : « أنا طبيب ، ولست شرطيا · أنا هنا لمساعدتك » : وبذلك يحصلون بعد بضعة أيام على ثقة السجين · ثانيا : « سأحقنك ببعض الأدوية ، لأنك متعب كثيرا » · ويحقن السجين خلال بضعة أيام بأية مادة فيتامينات ، مقوّيات ، مصول مسكّرة ، وبعد اربعه ايام أو خمسة يبدأ حقن الوريد بمادة الباتنوتال · ويبدأ الاستجواب ·

الحالات المرضيه المشاهدة

أ) تجمد كلامي :

يكرر المريض بغير انقطاع جملا من هذا النوع : « لم أقل شيئا ، صدقوني ، لم أتكلم » · ويصحب هذا التكرار المتجمد بخوف دائم · والمريض في كثير من الأحيان لا يعرف حقا هل استطاعوا أن ينتزعوا منه بعض المعلومات · ولكنه يشعر انه أثم في حق القضيه التي يدافع عنها ، وفي حق الاخوة الذين أفضى بأسمائهم وعناوينهم ، وذلك يؤثر في نفسه تأثيرا فاجعا· وما من تطمين يمكن أن يرد الهدوء الى هذه الضمائر التي خرّبت تخريبا ·

ب) الادراك العقلي أو الحسّي يصبح كتيما :

المريض لا يستطيع أن يؤكد وجود الشيء الذي يبصره · وهو يفهم استدلالا ما ، ولكن على نحو غير متميز · انه عاجز عجزا أساسيا عن تمييز الحق من الباطل · كل شيء حق وباطل في آن واحد ·

ج) خوف مرضي من كل انفراد مع شخص من الاشخاص :

ويرجع هذا الخوف الى شعور المريض بأن من الممكن في كل لحظة أن يستجوب مرة أخرى ·

د) كفّ :

المريض محاذر : يدقق في السؤال المطروح كلمة كلمة ، ويهيىء

---

١ ـ والحق انه ليس اجنبيا تماما ، فالصراع ليس الا نتيجة التطور الدينامي الذي تطورته الشخصية ، وهو تطور لا يمكن ان يكون فيه « جسم اجنبي » ، فلنقل ، بالأحرى ، انه جسم غير مندمج اندماجا كافيا ·

الجواب كلمة كلمة • ومن ثم شعور بما يشبه الكف والمنع ، مع بطء نفسي ، وبترللجمل وعودة الى الوراء ، الخ •

واضح ان هؤلاء المرضى يرفضون باصرار شديد أي حقن في الوريد •

الفئة ٤ : بعد غسل الدماغ

لقد تحدث الناس كثيرا في هذه الفترة الأخيرة عـــن « التأنـــير السيكولوجي » الذي تعمد اليه السلطات الفرنسية في الجزائر • ولا نريد هنا أن ندرس هذه الطرائق دراسة نقدية • وانما نكتفي بالاشـــارة الى نتائجها من ناحية الأمراض العقلية • ان هناك فئتين من مراكز التعذيـــب بواسطة غسل الدماغ في الجزائر ، فئة للمثقفين وفئة لغير المثقفين •

١ ــ للمثقفين

المبدأ هنا هو حمل السجين على أن يلعب دورا • ويدرك القارىء الى أية مدرسة « نفسية اجتماعية » ترجع هذه الطريقة (١) •

أ) يطلب الى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسيين •

يطلب الى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسيين ، مبررا هـذا التعاون • وبذلك يضطر الى أن يعيش حياة مزدوجة لأنه وطني معروف بأنه كذلك ، ولكنه سحب من التجول على سبيل الوقاية • ان الهدف من هذا هو أن يهاجموا عناصر الشعور القومي من داخل • فالسجين ليس عليه أن يتعاون مع الفرنسيين فحسب ، وانما يطلب منه أن يناقش المعارضين أو المترددين « بحرية » • وتلك طريقة أنيقة لجعله يدل على الوطنيين ، أي لحمله على أن يكون واشيا • فاذا قال انه لا يجد معارضين ، سموا له هؤلاء المعارضين أو طلبوا اليه أن يعمل كما لو كان يناقش المعارضين •

ب) يطلب الى السجين ان يكتب دراسات عن قيمة المهمة التي تحققها فرنسا ، وعن ان الاستعمار يقوم على أسس صحيحة •

ولكي يقوم السجين بهذا العمل على أكمل وجه ، يحاط بعدد كبير من المستشارين السياسيين : ضباط لشؤون السكان الأصليين • ويحـاط ، أيضـــا ، باخصـــائيين في علـــم النفس ، وعلـــم الاجتمـاع ، وعلم النفس الاجتماعي ، وغير ذلك •

د) يطلب الى السجين أن يتناول حجج « الثورة الجزائرية » بالتفنيد والنقص واحدة واحدة •

---

١ ــ من المعروف انه نشأ في الولايات المتحدة الامريكية تيار نفسي اجتماعي (سيكولوجي)، يرى اصحابه ان درامة الفرد المعاصر هو انه اصبح لا يلعب دورا ، وان الآلية الاجتماعيـــة قد جعلته جزءا من آلة لا اكثر • ومن ثم يقترحون طريقة في العلاج تسمـــح للانسان ان يقوم بادوار في نشاط من اللعب • فيكلف الفرد بأن يمثل اي دور حتى ليستطيـــع ان يبدل دوره في اليوم ذاته ، وان يضع نفسه في مكـان اي شخص من الاشخــاص رمزيا • ويظهر ان الاطباء النفسيين في الولايات المتحدة يحققون خوارق في المعالجة النفسية الجماعية للعمال ، ذلك انهم يتيحون لهم أن يتوحدوا مع ابطال ، وبذلك ينقص التوتر في العلاقات بين ارباب العمل والعمال نقصانا كبيرا •

الجزائر ليست أمة ، ولم تكن في يوم من الأيام أمة ، ولن تكون في يوم من الأيام أمة ..

ليس هناك « شعب جزائري » .

الوطنية الجزائرية سخف .

« الفلاحون » أناس طمّاعون ، مجرمون ، ومساكين مضللون .

ان على كل واحد من هؤلاء المثقفين ان يلقي حديثا في هذه الموضوعات، وعلى الحديث الذي يلقيه ان يكون مقنعا ، وتقدر لهذه الأحاديث علامات « هي « مكافآت ») ، وتجمع العلامات في نهاية كل شهر ، وتعتبر هذه العلامات أساسا في تقدير استحقاق المثقف للخروج من السجن أو عدم استحقاقه .

هـ) يفرض على السجين ان يعيش حياة مشتركة مرضية تماما :

لأن يعيش وحيدا فذلك عصيان وتمرد . لذلك يجب أن يكون في كل لحظة مع شخص آخر . والصمت أيضا محظور . ان عليه انيفكر بصوت عال .

شهادة

جامعي اعتقل وأخضع لعملية غسل الدماغ طوال أشهر . وفي ذات يوم هنأه المسؤولون عن المعتقل على التقدم الذي حققه ، وبشروه بأن اطلاق سراحه قريب .

واذ كان يعرف مناورات العدو ، فقد حاذر ان يأخذ النبأ مأخذ الجد . ذلك ان الخطة المتبعة هي ان يبشّر السجناء باطلاق سراحهم ، قبل الموعد المضروب لعقد جلسة نقد مشترك . حتى اذا عقدت الجلسة كان القرار الذي يتخذ في كثير من الأحيان هو تأجيل اطلاق سراح السجين ، بحجة انه لم يظهر جميع الدلائل التي تشير الى أنه شفي شفاء تاما . ويقول الاختصاصيون في علم النفس الذين حضروا الجلسة ، يقولون عندئذ : لقد دلت هذه الجلسة على أن جرثومة النزعة القومية ما تزال موجودة .

على أن الأمر في هذه المرة لم يكن أمر خدعة . فقد أطلق سراح السجين فعلا . حتى اذا خرج من السجن ، وصار في المدينة مع أسرته ، هنأ نفسه على أنه أجاد تمثيل الدور ، وأسعده أنه أصبح يستطيع الآن ان يستأنف مكانه في المعركة الوطنية ، وحاول أن يعاود الاتصال برؤسائه المسؤولين . فاذا بفكرة مباغتة رهيبة تثب الى ذهنه : لعله لم يخدع أحدا ، لا رجال السجن ، ولا المعتقلين معه ، ولا نفسه .

ما هو العلاج ؟

هنا أيضا يجب التطمين ، وانتزاع وهم الوقوع في الاثم .

الحالات المرضية المشاهدة

أ) خوف مرضي من كل مناقشة مشتركة . متى كان لقاء مع ثلاثة أشخاص أو أربعة عاد الكف الى الظهور، واشتد الشكوالتردد اشتدادا قويا .

ب) عجز عن تفسير وضع معين والدفاع عنه .

تظهر الفكرة زوجين متعارضين . كل ما يؤكده المريض يمكن أن ينكره فيالوقت نفسه بقدر واحد من القوة . لا شك ان هذا آلم نتيجة مرضية من

النتائج التي صادفناها في هذه الحرب • ان « العمل السيكولوجي » الذي وضع في خدمة الاستعمار في الجزائر قد أثمر شخصية حصارية •

٢ ـ لغير المثقفين

في مراكز مثل برواغيا ، لا يبدأون بالذاتية من أجل تغيير اتجاهات الفرد ، وانما يعتمدون على الجسم ، يكسرونه آملين أن يتهدم الشعور القومي • نوع من الترويض الحقيقي • والمكافاة التي ينالها السجين هي الانقطاع عن تعذيبه او السماح له بأن ياكل •

أ) عليه أن يعترف بأنه ليس من جبهة التحرير الوطني •

عليه أن يهتف بهذا على ملا ، وأن يردده طوال ساعات •

ب) عليه بعد ذلك أن يعترف أنه كان من جبهة التحرير الوطني ثم ادرك أن ذلك كان شرا • اذن : لتسقط جبهة التحرير الوطني •

بعد هذه المرحلة تاتي مرحلة اخرى : مستقبل الجزائر فرنسي ، ولا يمكن أن يكون الا فرنسيا •

بدون فرنسا تعود الجزائر الى القرون الوسطى • نحن فرنسيون • عاشت فرنسا •

ان الاضطرابات التي تشاهد هنا ليست فادحة • والجسم المتوجع المتالم هو الذي يحتاج الى راحة وتسكين •

السلسلة د : اضطرابات نفسية جسيمة

ان الحرب الاستعمارية في الجزائر لم تكثر الاضطرابات العقلية فحسب ، ولا سهّلت نشوء ظاهرات مرضية خاصة فحسب ، وانما هنالك : عدا الأمراض التي تصيب المعذِّب والأمراض التي تصيب المعذَّب ، هنالك أمراض كثيرةناشئة عن الجو العام ، تجعل الأطباء عامة يقولون حين يرون مريضا لا يفلحون في فهمه : « كل هذا سينتهي بانتهاء هذه الحرب المقدسة »•

ونحن نقترح أن تدرج ، في هذه السلسلة الرابعة ، الأمراض التي نلاحظ لدى الجزائريين الذين سجن بعضهم في معسكرات الاعتقال • ان الطابع الذي يميِّز هذه الأمراض هو أنها من النوع النفسي الجسمي •

يطلق اسم الأمراض النفسية الجسمية على مجموعة الاختلالات العضوية التي ساعد على نشوئها ظرف صراعي «١» • وهي نفسية جسمية لأنها ترجع في أصلها الى أسباب نفسية • وهذه الأمراض تعد طريقة في الجواب يعمد اليها الجسم ، أي طريقة في التلاؤم مع الصراع الذي يتعرض له ، فكأن المرض مرض وشفاء في آن واحد • ويجمع الباحثون على القول بصورة أدق ان الجسم « والمقصود ايضا هو الوحدة اللحائية الحشوية ، الوحدة الجسمية

---

١ ـ ان هذه التسمية التي تعبر عن مفهوم مثالي اصبحت تهجر شيئا بعد شيء • والواقع أن الاصطلاحات « اللحائية الحشوية » التي جاءت بها الابحاث السوفييتية ، وخاصة ابحاث بافلوف تمتاز على الاقل بانها ترد الدماغ الى مكانه ، اي تعده الرحم الذي تتهيا فيه الحياة النفسية •

على حد تعبير الأقدمين » يتغلب على الصراع هنا بطرق سيئة ، ولكنها طرق اقتصادية على كل حال • فهو يختار أهون الشرين من أجل أن يتحاشى الكارثة •

ولقد أصبحت هذه الأمراض معروفة معرفة جيدة جدا بوجه الاجمال ، وان تكن الطرائق العلاجية المختلفة « كالاسترخاء ، والايحاء » تبدو لنا خاضعة للصدفة • ان البحوث التي تصف الاضطرابات التي نشأت أثناء الحرب العالمية الثانية في انجلترا ابان قصفها بالقنابل وفي الاتحاد السوفياتي لدى السكان المحاصرين وخاصة في ستالينجراد ، بحوث كثيرة • ولقد أصبحنا نعرف الآن حق المعرفة أنه لا حاجة لأن يصاب المرء برصاصة حتى يقاسي جسمه ويقاسي دماغه من وجود الحرب • وقد أوجدت حرب الجزائر ، ككل حرب أخرى ، نصيبها من الأمراض اللحائية الحشوية • واذا استثنينا الفئة «ز» التي سنذكرها بعد قليل ، لاحظنا أن جميع الاضطرابات التي تشاهد في الجزائر قد سبق أن شوهدت في حروب « كلاسيكية » • أما الفئة «ز» فتبدو خاصة بالحرب الاستعمارية الناشبة في الجزائر • وهذه الصورة الخاصة من المرض « وهي التقبض العضلي الذي يعم الجسم كله » كانت قد لفتت الانتباه قبل انطلاق الثورة • غير أن الأطباء الذين وصفوها قد عدوها آفة ولادية في « السكان الأصليين » ، وصفة تتفرد بها «؟» جملتهم العصبية ، وتبرهن على ان المستعمَر تسيطر عليه الجملة « الفوق هرمية » • والواقع أن هذا التقبض العضلي لا يزيد على أن يكون مرافقا جسميا عضليا لما يشعر به المستعمَر ازاء السلطة الاستعمارية من صلابة ، وحذر ، ورفض •

حالات مرضية مشاهدة

أ) قرحات في المعدة :

حالات كثيرة جدا • تتفاقم الآلام في الليل ، مع تقيؤ شديد ونحول ، وحزن ، وتجهم ، أما سرعة التهيج فاستثناء • يجب أن نشير الى أن أكثر هؤلاء المرضى شباب في ريعان الصبا : من ١٢ الى ٢٥ عاما • ونحن لا ننصح ، على وجه الاجمال ، باجراء عملية جراحية • لقد أجريت عملية استئصال في المعدة مرتين ، وفي كلتا المرتين اضطروا الى اجراء عملية جراحية ثانية في السنة نفسها •

ب) أوجاع في الحالبين :

هنا أيضا نجد آلاما تشتد في الليل • وليس ثمة حصى طبعا • ويمكن أن تظهر هذه الأوجاع لدى فتية صغار ــ من ١٤ الى ١٦ ــ وذلك نادر •

ج) اضطرابات الطمث لدى النساء :

هذه الحالات المرضية معروفة جدا ، ولن نتلبث عندها ، فتارة تظل المرأة ثلاثة أشهر أو أربعة بغير حيض ، وتارة تعاني آلاما شديدة تترجع آثارها في المزاج و في السلوك المصاحب لهذا الحيض •

د) حالات ارتعاشات قائمة بذاتها :

المرضى شباب ، لا يعرفون الراحة ، بسبب ارتعاش يشمل الجسم كله ، ارتعاش خفيف يشبه شكلا كاملا من أشكال مرض باركنسون • هنا

أيضا يستطيع « رجال العلم ! » ان يرجعوا المرض الى أسباب تتعلق بالجملة العصبية الفوق هرمية ! ..

هـ) حالات ابيضاض في الشعر في سن مبكرة :

لدى الذين يخرجون من مراكز الاستجواب سالمين ، يشيب الشعر فجأة : تشيب خصل منه ، او مناطق ، او يشيب كله . ويصاحب هذه الاضطرابات في كثير من الاحيان وهن شديد ، وضعف في الاهتمام ، وعجز جنسي .

و) نوبات تسارع مفاجىء في خفقات القلب :

يزداد عدد خفقات القلب على حين فجأة : ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٤٠ في الدقيقة . ويصاحب هذا التزايد خوف ، وشعور باقتراب الموت ، وتتميز نهاية النوبة بتعرق شديد .

ز) تقبض عام ، تصلب عضلي :

هم مرضى ذكور يشعرون تدريجيا « وفي حالتين كان ظهور الحالة فجائيا » بصعوبة القيام ببعض الحركات . صعود سلم ، مشي سريع ، ركض ومرد هذه الصعوبة الى تصلب خاص يذكّر حتما باصابة بعض مناطق الدماغ « النوي السنجابية المركزية » . وهو تصلب آخذ بالاتساع ، بخطى صغيرة ، يكاد يستحيل على المريض أن يثني رجليه . ولا يمكنه الحصول على أي استرخاء . المريض متقبض كله ، عاجز عن أي ارخاء ارادي ، فكأنه قطعة واحدة . الوجه ثابت ، ولكنه يعبّر عن حيرة كبيرة .

ان المريض لا يبدو قادرا على أن « يخلص أعصابه من هذا التوتر » . انه متوتر دائما ، مترقب ، بين الحياة والموت . قال لنا واحد من هؤلاء المرضى : « ها أنت ذا ترى أنني متصلب منذ الآن كميت » (١) .

في الاندفاع الى الاجرام لدى أهل شمال افريقيا في حرب التحرير الوطني

ما ينبغي للمرأ ان يقاتل في سبيل حرية شعبه فحسب ، وانما ينبغي له أيضا ، ما ظلت هذه المعركة قائمة، أن يعلّم هذا الشعب مرة أخرى، وان يعلم نفسه مرة أخرى ، حقيقة الانسان . يجب أن يسير في دروب التاريخ من جديد ، تاريخ الانسان الذي حكم عليه البشر بالعذاب ، وأن يدعو الى التقاء شعبه بسائر البشر ، وأن يجعل هذا اللقاء ممكنا .

والواقع أن المناضل الذي زج نفسه في معركة مسلحة ، في كفاح وطني، ينوي أن يظهر كل يوم انواع الانحطاطات التي فرضها الاضطهاد الاستعماري على الانسان . بل ان المناضل ليشعر في بعض الأحيان شعورا مضيضا بأن عليه أن ينقذ كل شعبه ، أن ينشله من البئر ، من الكهف . ان المناضل ليدرك في كثير جدا من الأحيان أن عليه لا أن يقاتل القوى العدوة فحسب، بل كذلك حبات اليأس المتبلورة في جسم المستعمَر . ان فترة الاضطهاد مؤلمة ، ولكن المعركة ، اذ تعيد الى الانسان المضطهد اعتباره ، تحقق عملية تكامل ، خصبة غاية الخصوبة ، حاسمة الى أبعد حد . ان المعركة الظافرة

---

١ ـ لا حاجة بنا الى ان نذكر ان هذه الحالة ليست تقبضا هستيريا .

التي يخوضها شعب من الشعوب ، لا تكفل له إنتصاره في نيل حقوقه فحسب. وانما هي تهيء لهذا الشعب التماسك والانسجام والتجانس . ذلك أن الاستعمار لم يفكك شخصية المستعمَر فحسب ، وانما جعل هذا التفكك واضحا أيضا على الصعيد الجماعي في مستوى البنيانات الاجتماعية ، فاذا الشعب المستعمَر ليس الا مجموعة من الأفراد تستمد أساسها من وجود المستعمِر لا غير .

ان المعركة التي يخوضها شعب من الشعوب في سبيل تحرره تؤدي به على حسب الظروف ، اما الى نبذ الحقائق المزعومة التي بثها فيضميره الحكم المدني الاستعماري والاحتلال العسكري والاستغلال الاقتصادي ، واما الى حطم هذه الحقائق المزعومة . وما من شيء غير القتال يستطيع حقا أن يطرد تلك الأكاذيب التي تقال في حق الانسان ، والتي تدنّي أكثرنا وعيا ، بل تخرب أكثرنا وعيا .

كم من مرة رأينا ، في باريز أو في ايكس ، في مدينة الجزائر أو في الأراضي الواطئة ، أناسا مستعمَرين يحتجون احتجاجا شديدا على الادعاء بأن الزنجي أو الجزائري أو الفيتنامي انسان كسول . ونحن لا ندعي على كل حال ان الفلاح الذي يتحمس في العمل ، والزنجي الذي يرفض ان يستريح في ظل النظام الاستعماري ، انما هما شخصان شاذان مريضان . ولكننا نقول ان كسل المستعمَر انما هو تخريب مقصود للآلة الاستعمارية . انه ، على المستوى البيولوجي ، نوع واضح من حماية الذات ، وهو على كل حال تأخير اكيد لسيطرة المحتل على البلاد بكاملها .

ان المقاومة التي تبديها الغابات والمستنقعات ، فتحول دون التغلغل الأجنبي هي الحليف الطبيعي للمستعمَر . ولقد كان ينبغي للمدافعين عن المستعمَر أن يفهموا هذا الأمر ، فيكفوا عن قولهم ان الزنجي عامل نشيط وحارث ممتاز . ان حقيقة الزنجي في ظل الحكم الاستعماري هي ان لا يحرك اصبعه ، هي أن لا يساعد المضطهِد على مزيد من الايغال في فريسته . ان واجب المستعمَر الذي لم ينضج وعيه السياسي بعد ، وقرر أن يرفض الاضطهاد ، هو أن لا يقوم بأية حركة الا أن تنتزع منه انتزاعا . فهذا مظهر محسوس ملموس للاتعاون ، أو « للتعاون في أضيق الحدود » على كل حال .

وهذه الملاحظات التي تصدق على العلاقات بين المستعمَر والعمل يمكن ان تصدق ايضا على احترام المستعمَر لقوانين المستعمِر المضطهد ، وعلى دفع الضرائب والرسوم بانتظام ، وعلى العلاقات بين المستعمَر والنظام الاستعماري ألفاظ جوفاء . لقد أتيح لي في هذه السنين الأخيرة أن أتحقق من صدق هذا الأمر الكلاسيكي جدا ، وهو : أن الشرف والكرامة والمحافظة على العهد المقطوع وما الى ذلك لا يمكن أن تظهر الا في اطار تجانس قومي ودولي. أما اذا كنت تصفّى أنت وأقرانك كالكلاب، فليس لك الا أن تستعمل جميع الوسائل لاسترداد وزنك كانسان . وعليك اذن ان تضايق جسم الذي يعذّبك أكبر مضايقة ممكنة عسى فكره الضال في مكان ما ان يهتدي أخيراً

الى حقيقته الانسانية العامة • لقد أتيح لي في هذه السنين الاخيرة أن أرى ان الشرف والتضحية بالنفس ، وحب الحياة، وكره الموت ، ان ذلك كله يكتسي في الجزائر المقاتلة صورا فذة • ولست أتغنى هنا بالمقاتلين • ولكنها حقيقة ظاهرة لمسها اشد الاستعماريين حنقا ، وهي ان للمقاتل الجزائري طريقة فذة في القتال وفي الموت • ولا يمكن ان ترجع الى الاسلام والى الجنة الموعودة ، تلك التضحية السخية بالنفس ، التي يقدمها المقاتل الجزائري حين يكون عليه ان يحمي وطنه او أن يفدي اخوته • وما قولك في ذلك الصمت الساحق ـ الجسم يصرخ طبعا ! ـ ذلك الصمت الذي يسحق المعذب سحقا ؟ اننا نرى هنا ذلك القانون القديم جدا الذي يحرم على عنصر ما من عناصر الوجود أن يظل ساكنا بينما الأمة تسير ، بينما الانسان يطالب بانسانيته اللامحدودة ويؤكد هذه الانسانية في الوقت نفسه •

من بين الخصائص التي زعم الاستعمار أن الشعب الجزائري يتصف بها ، سنتحدث الآن عن ميله المذهل الى الاجرام ، لقد أجمع القضاة ، ورجال الشرطة ، والمحامون ، والصحفيون ، والاطباء الشرعيون أجمعوا قبل عام ١٩٥٤ على ان استعداد الجزائري للجريمة مشكلة من المشكلات ، حتى لقد قالوا : ان الجزائري مفطور على الجريمة ، وأنشأوا لهذا نظرية ، وجاءوا ببراهين علمية ! وظلت هذه النظرية طوال أكثر من عشرين عاما تدرّس في الجامعات • وتعلم هذه النظرية شبان جزائريون من طلاب الطب ، فاذا بالصفوة تألف ، شيئا فشيئا ، على غير شعور منها ، وجود هذه الآفات الطبيعية في الشعب الجزائري ، كما ألفت الاستعمار : كسالى بالفطرة ، كذابون بالفطرة ، لصوص بالفطرة ، مجرمون بالفطرة •

ونريد هنا أن نعرض هذه النظرية الرسمية ، وان نذكر أسسها المحسوسة وأدلتها العلمية • وسنحاول أن نفسرها تفسيرا جديدا •

الجزائري يقتل كثيرا :

يقول لك القضاة : ان من الأمور الواقعة أن أربعة أخماس القضايا المرفوعة الى القضاة تتصل بطعنات وجروح ، وأن نسبة الجريمة في الجزائر هي من أعلى النسب ، هي من أضخم النسب في العالم بأسره • وليس هنالك جنح بسيطة ، فحين يخالف الجزائري القانون « ويصدق هذا على جميع أبناء شمالي افريقيا » ، فانه يمضي في هذه المخالفة الى حدّها الأقصى •

الجزائري يقتل بوحشية : يلاحظ اولا ان السلاح المفضل انما هو السكين • والقضاة « الذين يعرفون هذه البلاد » ، قد أوجدوا لأنفسهم فلسفة صغيرة حول هذا الموضوع • فرجال القبائل مثلا يؤثرون المسدس او البندقية ، أما عرب السهل فيؤثرون السكين • وتساءل بعض القضاة : ترى أليس الجزائري في حاجة شديدة الى رؤية الدم ؟ ثم قالوا ان الجزائري محتاج الى الشعور بحرارة الدم ، الى أن يستحم في دم ضحية • ويمضي

هؤلاء القضاة ورجال الشرطة والأطباء يبحثون بحثا جادا في العلاقة بين روح الاسلام والدم «١» حتى ليذهب بعض القضاة الى ان قتل انسان انما يعني في نظر الجزائري ذبحه . وتظهر وحشية الجزائري خاصة في اكثار الطعنات، حتى لتراه يطعن القتيل عدة طعنات بعد موته ، وهي طعنات لا فائدة منها . ويقرر تشريح الجثث أمرا لا سبيل الى الشك فيه هو : أن القاتل كأنما اراد أن يقتل عددا من المرات لا حصر له ، لأن جميع الطعنات خطيرة بدرجة واحدة.

الجزائري يقتل لأمر تافه : كثيرا ما يحتار القضاة ورجال الشرطة في أمر البواعث التي حملت على القتل ، حركة بسيطة ، غمزة يسيرة ، كلمة ملتبسة ، ملاسنة حول شجرة زيتون يملكها المتلاسنان ، توغل دابة في ثمن هكتار من الأرض ... انك اذا سألت عن السبب الذي دفع الى قتل هذا القتيل او هذين القتيلين او هؤلاء القتلى الثلاثة احيانا ، اذا سألت عن الباعث الذي يعلل هذا القتل ويوضح أساسه ، وجدته أمرا تافها غاية التفاهة ، فتحتار ، ولذلك تشعر في كثير من الأحيان ان هؤلاء الناس يخفون عنك البواعث الحقيقية .

ومن الملاحظ أخيرا ان السرقة التي يقوم بها جزائري هي دائما سرقة بكسر، قد يرافقها قتل وقد لا يرافقها قتل ، ولكنها مصحوبة في جميع الأحوال بعدوان على المالك.

فهذه العناصر كلها التي تتجمع حزمة حول ميل الجزائريين الى الاجرام، بدا أنها تميز الأمر تمييزا كافيا من أجل محاولة تنظيمها في نظرية.

واذا شوهدت حالات مماثلة في تونس ومراكش (وان تكن تلك الحالات أقل بروزا) ، أصبح المتحدثون يتحدثون شيئا فشيئا عن الميل الى الجريمة لدى سكان شمالي افريقيا عامة . وأخذت جماعات من الباحثين ، تعمل منذ اكثر من ثلاثين عاما ، تحت اشراف الاستاذ بورو ، استاذ الأمراض العقلية في كلية الطب بمدينة الجزائر ، أخذت تعمل في توضيح صور التعبير عن هذا الميل الى الاجرام ، وتعليله تعليلا سوسيولوجيا ، وظيفيا ، تشريحيا .

وسنستعمل هنا الدراسات الرئيسية التي أفردتها لهذه المسألة مدرسة من مدارس الطب العقلي ، هي مدرسة كلية الجزائر . ولنتذكر أن النتائج التي وصلت اليها هذه الدراسات من بحوث دامت أكثر من عشرين عاما ، أصبحت تلقى دروسا أساسية في كلية الطب ـ كرسي الأمراض العقلية ـ .

وهكذا فان الأطباء الجزائريين الحاصلين على شهاداتهم من كلية مدينة الجزائر قد حملوا على أن يسمعوا وان يتعلموا أن الجزائري مجرم بالفطرة. حتى لقد سمعت واحدا منا يعرض هذه النظريات التي تعلمها عرضا يشتمل على كثير من الجد ، ثم يضيف قوله : « حقيقة مرة ، ولكنها ثابتة علميا ».

---

١ ـ من المعروف ان الاسلام يقضي بان لا يؤكل لحم الدابة الا اذا فرغت من الدم ، ولذلك تذبح الدواب ذبحا .

أهل شمالي افريقيا مجرمون بالفطرة، فغريزة الانقضاض على الفرائس معروفة فيهم ، وميلهم القوي الى العدوان واضح تراه الأعين • أهل شمالي افريقيا يحبون التطرف ، لذلك لا تستطيع يوما ان تثق بهم ثقة كاملة : ترى أحدهم صديقك اليوم ، فاذا هو عدوك غدا • انهم لا يدركون الفروق الطفيفة ، فالروح الديكارتية غريبة عنهم غرابة اساسية • ان الاحساس بالتوازن والاعتدال والقصد يخالف استعداداتهم العميقة أشد المخالفة • أهل شمالي افريقيا أناس عنيفون ، عنيفون بالوراثة • يستحيل على واحدهم أن يخضع نفسه للنظام، وان يضبط اندفاعاته • نعم، ان الجزائري اندفاعي منذ الولادة •

يوضحون قائلين : ان هذه الاندفاعية عدوانية ، ميالة الى القتل • وهنا يصلون الى تعليل سلوك السوداوي الجزائري ، وهو سلوك يخرج على القاعدة• ان أخصائيي الطب العقلي الفرنسيين ، في الجزائر ، قد وجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسيرة • فقد تعودوا ، اذا هم رأوا مريضا مصابا بالسوداوية ، أن يخافوا عليه من الانتحار • ولكنهم رأوا ان السوداوي الجزائري يقتل • فهذا المرض الذي يصيب الضمير الأخلاقي والذي يصحب دائما باتهام للذات وبميل الى تحطيم الذات يكتسي لدى الجزائريين أشكالا تميل الى تحطيم الآخرين • ان السوداوي الجزائري لا ينتحر ، بل يقتل• هذه هي السوداوية الميالة الى القتل ، التي أجاد البروفسور بورو دراستها في أطروحة تلميذه مونسيرا •

كيف تفسر المدرسة الجزائرية هذا الخروج عن القاعدة ؟ انها تقول اولا ان قتل المرء نفسه معناه انه يعود الى نفسه وينظر في نفسه، معناه انه يتعاطى تأمل حياته النفسية (الاستبطان) • ولكن الجزائري عصي على الحياة الداخلية • ليس للافريقي الشمالي حياة داخلية• الافريقي الشمالي يخلص من همومه بالارتماء على ما يحيط به • انه لا يحلل • ولما كانت السوداوية مرضا يصيب الضمير الأخلاقي ، فواضح ان الجزائري لا يمكن ان تنشأ فيه الا سوداويات كاذبة ، لأن ضعف ضميره وهزال احساسه الأخلاقي أمران معروفان حق المعرفة أيضا • وهذا العجز في الجزائري عن تحليل موقف من المواقف وعن تنظيم نظرة نفسية شاملة يصبح مفهوما فهما كاملا اذا رجعنا الى التعليلين اللذين يقدمهما هؤلاء المؤلفون الفرنسيون •

ففيما يتصل بالاستعدادات العقلية أولا ، يلاحظ هؤلاء المؤلفون أن الجزائري ضعيف العقل • واذا أردت ان تفهم ذلك حق الفهم ، وجب أن تتذكر الأعراض التي تصفها المدرسة الجزائرية • ان هذه المدرسة تذكر من خصائص السكان الأصليين المميزات التالية :

- ليس لهم انفعال ، أو لا يكاد يكون لهم انفعال •
- سريعو التصديق الى أبعد حد ، قابلون للايحاء الى أقصى درجة •
- عناد مصرّ
- طفولة نفسية ، ينقصها مع ذلك ما يلاحظ لدى الطفل الغربي من حب الاطلاع •

ـ سهولة الاصابة بالحوادث وسهوله الاستجابات الايحائية (١) .

الجزائري لا يدرك المجموع . المسائل التي يطرحها على نفسه تتناول التفاصيل دائما ، وتستبعد كل تركيب . انه يدقق في الأمور التافهة ، ويظل لاصقا بالأشياء ، تائها في التفاصيل ، موصدا دون الفكرة ، عصيا على التصورات العقلية . تعبيره بالكلام ضعيف الى آخر حدود الضعف . حركته اندفاعية عدوانية دائما . انه لعجزه عن تأويل الجزء التفصيلي على أساس المجموع الكلي ، يضفي على النصر قيمة مطلقة ، وينظر الى الجزء على أنه الكل . لذلك تراه يرد ردودا كلية على مؤثرات جزئية ، على أمور تافهة : شجرة تين ، حركة ، خروف في أرض . ان العدوانية التي يتصف بها فطرة تبحث لنفسها عن طرق انطلاق ، وتكتفي بأيسر حجة حتى تنفجر . انها عدوانية صرفة (٢) .

بعد هذه المرحلة الوصفية أرادت مدرسة الجزائر أن تنتقل الى المرحلة التعليلية . وفي مؤتمر أطباء الأمراض العقلية والعصبية الذين لغتهم الفرنسية ، في هذا المؤتمر الذي عقد بمدينة بروكسل عام ١٩٣٥ ، انما حدد البروفسور بورو الأسس العلمية لنظريته ، وأشار في معرض مناقشة التقرير الذي وضعه بارون عن الهستريا الى أن « السكان الأصليين بشمالي افريقيا يتصفون بأن نشاط المراكز اللحائية العليا عندهم متخلف ، فهم أناس بدائيون يسيطر الدماغ المتوسط خاصة على حياتهم التي تقوم على الوظائف الحيوية الدنيا وعلى الغرائز » .

ومن أجل ان ندرك أهمية هذا الاكتشاف الذي جاء به البروفسور بورو يجب أن نشير الى أن ما يميز النوع الانساني ، اذا قيس بالحيوانات الفقرية الأخرى ، هو سيطرة اللحاء . أما الدماغ المتوسط فهو جزء من أكثر أجزاء الدماغ بدائية ، والانسان انما هو ، قبل كل شيء ، الحيوان الذي يسيطر عليه اللحاء من الدماغ .

ان البروفسور بورو يرى أن حياة السكان الأصليين بشمالي افريقيا انما تسيطر عليها المطالب المتصلة بالدماغ المتوسط . فكأنه يقول ان السكان الأصليين بشمالي افريقيا محرومون من اللحاء الدماغي . والبروفسور بورو لا يتحاشى هذا التناقض ، وها هوذا في عام ١٩٣٩ يوضح آراءه ، بالتعاون مع تلميذه سوتر الذي أصبح الآن استاذ الطب العقلي بمدينة الجزائر ، قائلا في مجلة « الجنوب الطبي الجراحي » : « ليست البدائية نقصا من

١ ـ البروفسور بورو ، « الحوليات الطبية النفسية » ١٩١٨ .

٢ ـ يرى عميد القضاة في محكمة بمدينة الجزائر ان عدوانية الجزائري تعبر عن نفسها في حبه للنزوة ، قال عميد القضاة هذا عام ١٩٥٥ : « هذه الثورة كلها ، يخطىء من يظن انها سياسية . انما الجزائري يحب المعامع ، فلا بد ان ينطلق هذا الحب من حين الى آخر ! » . ويرى هذا الاخصائي في علم الأقوام ان وضع سلسلة من الاختبارات والألعاب الاشفائية القادرة على ضبط الغرائز العدوانية الشاملة لدى السكان الأصليين كان يمكن إن يكفي عام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ لتوقف الثورة في جبال الاوراس .

النضج ، ليست توقفا ملحوظا في نمو الحياة النفسية العقلية ، انها حالة اجتماعية بلغت آخر مراحل تطورها ، حالة متلائمة تلاؤما منطقيا مع حياة مختلفة عن حياتنا » • ويصل هذان الاستاذان أخيرا الى الأساس الذي تقوم عليه عقيدتهما ، فيقولان : « ليست هذه البدائية مجرد أسلوب ناشىء عن تربية خاصة ، وانما هي تقوم على ركائز أعمق من ذلك كثيرا ، حتى لنعتقد ان أساسها استعداد خاص في بنية المراكز الدماغية • أو على الأقل في التنظيم الطبقي الحركي لهذه المراكز الدماغية • فمن الواضح ان اندفاعية الجزائري، وكثرة جرائم القتل التي يرتكبها والصفات التي تتصف بها جرائم القتل هذه ، وميونه الدائمة الى اقتراف الجريمة ، وبدائيته ، كل ذلك ليس مصادفة ، فانما نحن هنا ازاء سلوك منسجم مع نفسه ، ازاء حياة منسجمة مع نفسها يمكن تعليلها تعليلا علميا • ان الجزائري ليس له لحاء دماغي ، أو قولوا على نحو أدق ان السيطرة عنده انما هي للدماغ المتوسط • شأنه في ذلك شأن الحيوانات الفقرية الدنيا • فالوظائف اللحائية ان وجدت عنده فهي ضعيفة جدا ، وليست مندمجة في حركة حياته• لا سرّ اذن ولا عجب • واحجام المستوطن الأوروبي عن أن يكل المسؤولية الى السكان الأصليين ليس من قبيل التعصب العرقي ، ولا هو من قبيل حب الانفراد بالعمل ، وانما هو ادراك علمي لكون السكان الأصليين محدودي الامكانيات بيولوجيا » •

ولنختم هذا الاستعراض طالبين نتيجة تتناول افريقيا كلها من الدكتور كاروتر ، خبير منظمة الصحة العالمية • لقد جمع هذا الخبير الدولي في كتاب له ظهر سنة ١٩٥٤ ، زبدة ملاحظاته «١» •

والدكتور كاروتر كان يمارس مهنة الطب في افريقيا الوسطى والشرقية، غير ان النتائج التي ينتهي اليها تتفق مع نتائج مدرسة شمالي افريقيا • فهذا الخبير الدولي يرى أن « الافريقي قلما يستعمل الفصين الجبهيين من دماغه ، ويمكن أن ترد جميع خصائص الأمراض العقلية في افريقيا الى كسل في الفص الجبهي من الدماغ » «٢» •

ومن أجل ان يوضح الدكتور كاروتر رأيه للقارىء ، عقد مقارنة حية جدا ، فقال ان الافريقي السوي انما هو الأوروبي استؤصل جزء من دماغه من المعروف أن المدرسة الأنجلوساكسونية قد ظنت في ذات يوم أنها اكتشفت علاجا جذريا لبعض الأشكال الخطيرة من الأمراض العقلية ، هو استئصال جزء هام من الدماغ • ولكن ما اوحظ في الشخصية بعد الجراحة من تخربات كبيرة جعل أصحاب هذا العلاج يعدلون عنه • ويرى الدكتور كارتر أن الشبه بين السكان الأصليين بافريقيا وبين اولئك الذين أجريت لهم تلك الجراحة شبه قوي يخطف البصر •

وبعد ان درس الدكتور كاروتر البحوث التي كتبها أطباء يتعاطون مهنة الطب في افريقيا ، طلع بنتيجة توحّد بين الأفريقيين في هذا المضمار،

---

١ ـ كاروتر « سيكولوجية الافريقي ، السوية والمرضية » ، ماسون ، باريز ، ١٩٥٤ •

٢ ـ المرجع المذكور ، ص ١٧٦ •

قال : « هذه هي أوصاف الحالات التي لا تتناول فئات أوروبية. وقد جمعت في مناطق شتى من افريقيا الشرقية، وافريقيا الغربية ، وافريقيا الجنوبية. وكان كل باحث من الباحثين لا يعرف الا قليلا أو لا يعرف البتة الدراسات التي كتبها الباحثون الآخرون • ومع ذلك فان بين هذه البحوث كلها تماثلا واضحا كل الوضوح » (١) •

ولنذكر قبل الختام ان الدكتور كاروتر كـــان يعرّف ثورة الماومـاو بأنها تعبير عن عقدة حرمان لا شعورية ، وان تكررها يمكن تحاشيه علميا ، بتحقيق تلاؤمات سيكولوجية هامة •

وهكذا فان هذا السلوك غير المألوف : كثرة اقـــدام الجزائري على ارتكاب الجريمة ، وتفاهة البواعث الدافعة الى ذلك ، ومـا تتصف بــه المشاجرات من انها تنتهي الى القتل ، ومن أنها دامية دائما ، كل ذلك قـد طرح على الملاحظتين مشكلة تحتاج الى حل • والتعليـل الذي جاؤوا بــه وأصبح يلقى دروسا في الجامعة هو التعليل التالي في آخر الأمر : ان طبيعة البنيانات الدماغية لدى أهالي شمالي افريقيا تفسر ما يتسمون به من كسل، ومن عجز عقلي واجتماعي ، ومن اندفاعية كاندفاعية الحيوان ، تفسر ذلـك في آن واحد • فالاندفاعية الاجرامية لدى أهل شمالي افريقيا انما هي تعبير على مستوى السلوك عن نظام معين في الجملة العصبية ، هي استجابة يمكن ان تفهم نورولوجيا ، هي استجابة قائمة في طبيعة الأشياء ، في طبيعة الشيء البيولوجي • فعدم تكامل الفصين الجبهيين مع عمـــل الدماغ هـــو سبب الكسل ، والجرائم ، والسرقات ، والاعتـداءات على النساء ، والكـذب • ونتيجة ذلك انما أفضي اليّ بها نائب محافظ ــ أصبح الآن محافظا ــ وذلك بقوله : « ان هؤلاء الناس الذين هم كائنات طبيعية ، انما يخضعون لقوانين طبيعتهم خضوعا أعمى ، فيجب ان نواجههم بموظفين صارمين لا يعرفـون الهوادة ، يجب علينا أن نروّض الطبيعة لا أن نقنعها » ، ان كلمـــات : الاخضاع للنظام ، الترويض ، القمع ، وكذلك كلمة التهدئة في هذه الأيام ، هي الكلمات التي يستعملها الاستعماريون في الأراضي المحتلة أكثر مــــا يستعملون •

لئن أفضنا في الكـلام على النظريات التي جـــاء بها رجال العلـــم الاستعماريون ، فما ذلك من أجل ان نظهر فقر هذه النظريات وسخفهــا ، وانما من أجل ان نعالج مشكلة نظرية وعملية هي على جانب عظيم مـــن الخطورة • والواقع أنه من بين المسائل التي طرحت نفسها على الثورة • من بين الموضوعات التي أمكن التنافس فيها على مستوى الشـــرح السياسي وازالة التضليل ، لم تكن مسألة انتشار الجريمة في الجزائر الا قطاعـــا فرعيا • ولكن الأحاديث التي دارت حول هذا الأمر قد بلغت من الخصوبة أنها أتاحت لنا ان نتعمق فكرة التحرير الفردي والاجتماعي ، وأن نحيط بها احاطة أكمل • انك حين ترى القادة يعالجون أمام المناضلين والمقاتلين مسألة

---

١ ــ المرجع المذكور ، ص ١٧٨ •

انتشار الجريمة في الجزائر ، وحين تراهم يذكرون العدد الوسطي للجرائم والجنح والسرقات التي وقعت في العهد السابق للثورة ، وحين تراهم يشرحون أن شكل الجريمة وكثرة الجنح تابعان للعلاقات القائمة بين الرجال والنساء ، وبين الرجال والدولة ، هذه العلاقات التي يفهمها كل واحد ، وحين ترى فكرة الجزائري او الافريقي الشمالي ، المجرم بالفطرة ، تتبدد من الاذهان بعد ان علقت حتى في ضمير الجزائري الذي كان يقول: نعم ، نحن أناس سريعون الى الغضب ميالون الى المشاجرة ، محبون للشر .. هكذا نحن » ، حين ترى ذلك كله ، تستطيع عندئذ أن تقول : أجل ان الثورة في تقدم .

والمسألة النظرية الخطيرة الشأن هي أن علينا في كل لحظة وفي كل مكان ، أن نشرح ، أن نبدد الأضاليل ، أن نطرد الاهانة الموجهة الى الانسان . يجب أن لا ننتظر أن تنتج الأمة بشرا جددا . يجب أن لا ننتظر أن يتبدل البشر تبدلا تدريجيا في تجديد ثوري دائم . نعم ان هذين الأمرين هامان غير أن علينا ان نساعد الوعي . فاذا أراد العمل الثوري لنفسه أن يكون محررا تحريرا يبلغ أقصى درجات الخصوبة ، فان عليه أن لا يبقي على أي خروج عن القاعدة . اننا نشعر شعورا قويا بضرورة أن يصبح الحدث شاملا كليا ، أن يحمل المرء كل شيء ، أن يصفي كل حساب ، أن يكون مسؤولا عن كل أمر . ان الوحدة المقاتلة التي تتوغل في الأرض لا يعني انتهاؤها من القيام بكمين أن ترتاح ، وانما يعني أن هذه هي اللحظة التي يجب فيها على الوعي أن يقطع جزءا من الطريق ، لأن الأمور كلها يجب أن تسير معا .

نعم لقد كان الجزائري يسلك من تلقاء نفسه سلوكا مصدقا لما يقوله القضاة ورجال الشرطة «١» ، فكان علينا أن ننظر الى هذه الاجرامية الجزائرية المعيشة على صعيد الزوجية من حيث أنها تجل للرجولة الحقة ، وأن نطرح المسألة طرحا جديدا على صعيد التاريخ الاستعماري . كما علينا أن نبين مثلا أن جرائم الجزائريين في فرنسا تختلف اختلافا أساسيا عن جرائم الجزائريين الخاضعين للاستغلال الاستعماري خضوعا مباشرا .

وثمة أمر آخر لفت انتباهنا : في الجزائر ، يتم جرم الجزائريين عمليا ضمن دائرة مغلقة . فيسرق الجزائريون بعضهم بعضا ، ويمزق بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا . ان الجزائري قلما يهاجم في الجزائر الفرنسيين ، وهو يتحاشى المشاجرات مع الفرنسيين . ولا كذلك في فرنسا ، فالمهاجر يجعل الجريمة متبادلة بين مجتمعات ، بين طوائف اجتماعية .

ان جرائم الجزائريين في فرنسا آخذة في النقصان ، وهي تنصب على

---

١ ـ واضح من جهة اخرى ان تقمص هذه الصورة التي رسمها الاوروبي كان ذا وجهين . فالاوروبي كان في الواقع يشيد ايضا بالجزائري العنيف الوحشي الغيسور المتكبر الذي يخاطر بحياته من اجل امر يسير او كلمة او ما شابه ذلك . ولنذكر عابرين ان أوروبيي الجزائر عندما يلقون فرنسيي فرنسا ، اصبحوا يميلون اكثر فاكثر الى تقمص هذه الصورة التي تمثل الجزائري في مقابل الفرنسي .

الفرنسيين · والدوافع اليها جديدة كل الجدة · وهناك ظاهرة غريبة ساعدتنا كثيرا على تبديل الأضاليل من اذهان المناضلين : اننا نلاحظ أن جرائم الحق العام كادت تختفي منذ عام ١٩٥٤ · فنحن لا نرى منذ ذلك التاريخ مشاجرات وحوادث قتل لأسباب تافهة · لا نرى رجلا ينفجر غضبه انفجارا عنيفا لان جاره لمح جبين امرأته أو لمح كتفها اليسرى · فكأن النضال القومي قد وجه الغضب كله ، وجعل جميع الحركات العاطفية أو الانفعالية قومية · وهذا أمر قد سبق للقضاة والمحامين الفرنسيين أن لاحظوه ، ولكن لا بد للمناضل ان يصبح واعيا له ، لا بد من الوصول به الى معرفة أسبابه ·

ويبقى التعليل ·

هل كان علينا أن نقول ان الحرب ، وهي التربة المناسبه للتعبير عن عدوانية اصبحت اجتماعية ، توجّه الميول الاجرامية الوراثية نحو المحتل ان من الأمور المعروفة أن الهزات الاجتماعية الكبرى تقلل نسبة الجنح والاضطرابات العقلية · فكان في الأمكان اذن أن نعلل نقصان انتشار الجريمة في الجزائر بوجود هذه الحرب التي تشطر الجزائر شطرين وتجعل الآلة القضائية والادارية في صف العدو ·

ولكن هذه الظاهرة نفسها التي لوحظت في البلاد المغربية أثناء نضالها التحريري ، ظلت قائمة بعد تحرر تلك البلاد ونيلها استقلالها · وهذا يدل على أننا نستطيع ان نؤول انتشار الجريمة تأويلا جديدا بوجود الاستعمار ، وذلك ما فعلناه مع المناضلين ، فأصبح جميع الناس عندنا يعلمون الآن ان انتشار الجريمة في الجزائر ليس ثمرة طبع فطر عليه الجزائري ، ولا هو ثمرة بنية الجملة العصبية لديه · ان حرب الجزائر وحروب التحرير الوطني تخلق القادة الصادقين · قالوا لهم : ان الأهالي في ظل الظرف الاستعماري يكونون منحصرين فيما بينهم ، فكل واحد منهم يجنح الى اتخاذ الآخر ستارا له ، وكل واحد منهم يحجب عن الآخر عدو أمته · ان المستعمّر الذي يرتمي على بساطه بعد عناء ست عشر ساعة من العمل ، فاذا بطفل من وراء الستارة يأخذ بالبكاء فيمنعه من النوم ، يقول : هذا جزائري صغير · وحين يمضي يلتمس شيئا من الدقيق أو قليلا من الزيت عند البقال الذي له عليه دين قديم يبلغ بضع مئات من الفرنكات ، فيرفض البقال انيعطيه ما يطلب ، فان موجة كبيرة من الكره تجتاح نفسه ، حتى ليتمنى لو يقتل البقال ·· والبقال جزائري · وحين يحاصره الجابي طالبا منه دفع« الضرائب » ، بعد أنتهرب أسابيع كاملة ، فانه لا يتاح له أن يصب كرهه على الحاكم الأوروبي ، لأن الجابي يمتص هذا الكره ، والجابي جزائري · وحين يكون معرضا لمحاولات قتل يومية : بالجوع ، بالطرد منالغرفة التي لم يدفع أجرها ، بجفاف ضرع الأم ، بهزال الأولاد الذين صاروا الى هياكل عظمية ، باغلاق الورشة ، بتعطله وتهويمه مع غيره من المتعطلين حول المدير كالغربان الساغبة ، فانه ينتهي من ذلك الى ان ينظر الى هؤلاء الناس من السكان الأصليين نظرته الى أعداء لا يرحمون · وحين تتمزق قدماه العاريتان بحجر كبير في وسط الطريق ، فان واحدا من هؤلاء السكان الأصليين هو الذي يكون قد وضع

الحجر . والزيوتات القليلة التي كان يستعد لقطفها ، قد أكلها في الليل أبناء فلان ... نعم ان المرء في العهد الاستعماري يمكن أن يفعل أمورا كثيرة في سبيل رطل من الدقيق ، يمكن ان يقتل عدة أشخاص . ولا بد لمن يريد ان يفهم هذه الأشياء ان يكون واسع الخيال او أن يكون قوي الذاكرة . ان في معسكرات الاعتقال رجالا قتل بعضهم بعضا في سبيل كسرة من الخبز . وما زلت أتذكر مشهدا فظيعا : كان ذلك في وهران سنة ١٩٤٤ . في المعسكر الذي كنا ننتظر فيه الرحيل ، أخذ العسكريون يرمون كسرا من الخبز لجزائريين صغار ، فراح الصغار يتشاجرون عليها في حنق وكره . ان أطباء الحيوانات الداجنة يستطيعون ان يوضحوا لنا هذه الظاهرات بتذكيرنا «بالتنافر» الذي يلاحظ في أحواش الدجاج، حيث تتنافس هذه الحيوانات على حبات الذرة تنافسا لا هوادة فيه ، فالطيور القوية تبتلع جميع الحبوب فيما الأخرى تضوى وتهزل لأنها لا تعدل الأولى هجوما وعدوانا . ان كل مستعمرة تميل الى ان تصبح حوشا كبيرا ، معسكرا من معسكرات الاعتقال، لا سيادة فيه لغير قانون السكين .

تغير كل شيء في الجزائر منذ حرب التحرير الوطني . ان جميع ما تملكه أسرة من مؤونة يمكن ان يقدم في ليلة واحدة لجماعة مارة من جماعات المقاتلين . والحمار الوحيد الذي تملكه الأسرة يمكن ان يعار لنقل جريح . وحين يعلم صاحب الحمار بعد بضعة ايام ان حماره قد مات برصاص طائرة، فانه لا يندفع لاعنا متوعدا ، ولا يشك في أن حماره قد مات فعلا ، وانما هو يسأل قلقا : هل وصل الجريح سالما ؟

في ظل الحكم الاستعماري يمكن ان يفعل المرء كل شيء من أجل رطل خبز أو من اجل خروف هزيل ... ان علاقات الانسان بالمادة ، بالطبيعة ، بالتاريخ ، هي في العهد الاستعماري علاقات بالغذاء . ان نحيا ، فذلك لا يعني في النظام الاستعماري وفي ظروف من الاضطهاد كظروف الجزائر ، ان نجد قيما ، وان نساهم في نمو العالم نموا خصبا منسجما ، وانما يعني ان لا نموت . البقاء في هذا النظام ، معناه اقامة الأود . كل ثمرة فهي نصر . ليست ثمرة عمل ، وانما هي انتصار يحسه المرء ظفرا للحياة . لذلك فان اختلاسك الثمر ، وسماحك لخروفك بأن يرعى عشب جارك ، ليس انكارا لملكية الغير ، او خرقا لقانون ، أو استخفافا . بل هو محاولة قتل . يجب ان يكون المرء قد رأى ، في مناطق القبائل ، كيف يظل الرجال والنساء أسابيع بكاملها ينقلون من قرارة الوادي الى الجبال ترابا بالسلال ، حتى يدرك ان السرقة محاولة قتل وليست عملا غير ودي ، أو غير شرعي . لذلك أن مدار الأمل كله على هذه المعدة التي ما تنفك تضيق ، وما تنفك مطالبها تقل يوما بعد يوم ، ولكن لا بد من ارضائها مع ذلك . على من تقع المسؤولية؟ الفرنسي يقيم في السهل مع شرطته وجيشه ودباباته . وفي الجبال ليس الا جزائريون. في الجبال السماء ووعودها بخيرات الحياة الآخرة ، وفي السهول الفرنسيون ووعودهم المحسوسة الملموسة بالسجن والجلد والاعدام . حتم اذن ان ينكفىء

المرء على نفسه • تلكم هي نواة ذلك الكره للذات الذي يميز الصراعات العرقية في المجتمعات المنقسمة •

ان ما يسند الى الجزائري من ميل الى الجريمة ومن عنف في القتل ، ليس اذن ثمرة بنيان جملته العصبية ، ولا هو صفة أصيلة من صفات طبعه وانما هو نتيجة مباشرة للوضع الاستعماري • لقد ناقش المناضلون الجزائريون هذه المسألة ، ولم يهابوا أن يعيدوا النظر في الاعتقادات التي ألقاها الاستعمار في روعهم ، وأدركوا ان كل واحد منهم كان ستارة للآخر ، وأن كل واحد منهم كان في الواقع ينتحر حين يهاجم الآخر • وهذا كله أحدث في الوعي أثرا كبيرا يحتل من الخطورة منزلة أساسية • أعود فأقول ان الهدف الأول الذي يجب أن يسعى اليه المستعمَر المقاتل هو أن يقضي على السيطرة • ولكن عليه أيضا ان يحرص أشد الحرص على ازالة جميع الأكاذيب التي غرسها الاضطهاد في جسمه •

ان الأفكار التي كان يعلنها الاستعمار في ظل نظام استعماري كالنظام الذي كان قائما في الجزائر ، لم تؤثر في الأوروبيين فحسب ، بل أثرت أيضا في الجزائري • والتحرير الشامل انما هو التحرير الذي يشمل جميع قطاعات الشخصية • ان ما يقوم به المجاهد من نصب للكمائن ومهاجمة للدوريات ، وما يلقاه اخوته من تعذيب وتقتيل ، ان ذلك كله يرسخ عزمه على الانتصار ، ويجدد لاشعوره ويغذي خياله • حين تقلع الأمة بمجموعها فان الانسان الجديد لا يكون ثمرة اقلاعها ، وانما يوجد معها ، وينمو بنموها ، وينتصر بانتصارها • هذه الضرورة الديالكتيكية تفسر لنا الاحجام عن التلاؤم مع مخلفات الاستعمار ، ورفض الاصلاحات التي تتناول المظهر وحده • ليس الاستقلال كلمة تقال ، وانما هو الشرط الذي لا بد منه لوجود أولئك الرجال والنساء المتحررين حقا ، أعني المالكين جميع الوسائل المادية التي تتيح لهم ان يبدلوا المجتمع تبديلا جذريا •

خاتمة

هيّا ، يا رفاق ، انه ليجدر بنا أن نقرر منذ الآن أن ننتقل الى الضفة الأخرى • الليل الطويل الذي كنا غارقين فيه ، يجب ان نهزه وأن نخرج منه • النهار الجديد الذي أخذ يطلع ، يجب ان يجدنا حازمين واعين قد عزمنا أمرنا •

ينبغي أن نترك أحلامنا، أن نترك اعتقاداتنا القديمة، ان نترك صداقاتنا التي عقدناها قبل بزوغ الفجر • لا نضيّعن وقتنا في دعوات مملة ، وتلونات تبعث على التقيؤ • لنترك هذه الأوروبا التي لا تفرغ من الكلام عن الانسان وهي تقتله حيثما وجدته ، في جميع نواصي شوارعها وفي جميع أركان العالم •

لقد انقضت قرون وأوروبا تجمّد تقدم البشر الآخرين وتستعبدهم لتحقيق أهدافها وأمجادها • انقضت قرون وهي ، باسم « مغامرة روحية » مزعومة ، تخنق الانسانية كلها تقريبا • أنظروا اليها الآن وهي تسقط بين تحلل الذرّة وتحلل الروح •

ومع ذلك نستطيع ان نقول انها ، في بلادها ، قد نجحت بكل شيء في مجال التحقيق •

لقد أمسكت أوروبا العالم في حماسة واستهتار وعنف ، وانظروا كم يمتد ظل مبانيها وكم يتكاثر ! ان كل حركة قامت بها اوروبا قد حطمت حدود المكان وحدود الفكر • ورفضت أوروبا كل مذلة وكل تواضع ، ولكنها رفضت كل حنان وكل رفق •

فيا أيها الأخوة ، كيف لا نفهم أن هناك ما هو خير لنا من اتباع هذه الأوروبا !

ان هذه الأوروبا التي لم تنقطع لحظة عن الادعاء بأنها لا تهتم الا بالانسان، نحن نعلم اليوم كم قاست الانسانية من آلام ثمنا لكل نصر من انتصار روحها•

هيّا يا رفاق ، لقد انتهت لعبة أوروبا تماما ، وعلينا أن نجد شيئا آخر• اننا نستطيع اليوم ان نفعل كل شيء، شريطة أن لا نقلد أوروبا تقليدا أعمى وأخرق ، شريطة أن لا تحاصرنا الرغبة في اللحاق بأوروبا •

لقد بلغت أوروبا من فرط السرعة المجنونة الطائشة في سيرها أن

زمامها قد أفلت اليوم من كل قيادة ومن كل عقل ، وان دوارا رهيبا يعصف برأسها ويودي بها في هوة يحسن الابتعاد عنها بأقصى سرعة ممكنة ·

صحيح أننا في حاجة الى نموذج ، الى مثال ، الى قدوة · وان كثيرا منا يفتنه النموذج الأوروبي أكثر من أي نموذج آخر · ولكننا رأينا في الصفحات المتقدمة أنواع الاخفاق التي تقودنا اليها هذه المحاكاة · يجب أن لا تغرينا بعد الآن ولا ان تفقدنا توازننا الانجازات الأوروبية والتكنيك الأوروبي والأسلوب الاوروبي ·

اني حين أبحث عن الانسان في التكنيك الأوروبي والاسلوب الأوروبي، لا أرى الا سلسلة من الانكارات للانسان ، الا مواكب من جرائم قتل الانسان·

ان المصير الانساني ، ومشاريع الانسان ، والتعاون بين البشر في أعمال تغني كيان الانسان ، هذه كلها مشكـــلات جديدة تتطلب تجديدات مبتكرة حقاً ·

فلنقرر أن لا نقلد اوروبا ولنوجه عضلاتنا وأدمغتنا في اتجاه جديد · لنحاول أن نخلق الانسان الكلي الذي عجزت اوروبا عن تحقيق الانتصار له·

منذ قرنين قررت مستعمرة أوروبية ان تلحق بأوروبا ، وقد بلغت من النجاح في ذلك ان الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت كائنا عجيبا مشوها تضخمت فيه تضخما رهيبا عيوب أوروبا وأمراضها ولا انسانيتها ·

أيها الرفاق ، أليس علينا أن نفعل شيئا آخر غير خلق أوروبا ثالثة ؟ لقد أراد الغرب ان يكون مغامرة للفكر ، وباسم هذا الفكر، فكر اوروبا طبعا، انما سوغت أوروبا جرائمها ، وجعلت استعبادها لأربعة أخماس الانسانية شرعيا ·

لقد قام الفكر الأوروبي على قواعد عجيبة ، وجرى التفكير الاوروبي كله في أمكنة ما تنفك تخلو من الانسان ، وما تنفك تزداد وعورة ، حتى ألفنا أن يختفي منه الانسان شيئا بعد شيء ·

حوار مع الذات لا ينقطع ، ونرجسية ما تفتأ تزداد دعارة ، كان ذلك مهادا لما يشبه الهذيان ، لهذيان يصبح فيه عمل الدماغ عذابا ، لأن الوقائع ليست فيه وقائع الانسان الحي الذي يعمل ويصنع نفسه ، بل ألفـــاظ ومزاوجات شتى بين ألفاظ ، وتوترات ناشئة عن الدلالات التي تتضمنهـــا الألفاظ · على أنه قد وجد أوروبيون يهيبون بالعاملين الأوروبيين ان يحطموا هذه النرجسية وان يكفوا عن تجريد الوقائع هذا التجريد ·

ولكن العاملين الأوروبيين لم يستجيبوا للنداء بوجه عام ، ذلـــك ان العاملين قد حسبوا انهم هم أيضا مرتبطون بهذه المغامرة العظيمة التي يقوم بها الفكر الأوروبي ·

ان جميع العناصر اللازمة لحل كبريات مشاكل الانسانية قد وجدت في تفكير أوروبا في لحظات مختلفة · ولكن عمل البشر الأوروبيين لم يحقـــق الرسالة المنطوية به ، وهي ان يستند استنادا قويا الى هذه العناصر ، ان يغير ترتيبها ، أن يغير كيانها ، ان يبدلها ، ان ينقل اخيرا مشكلة الانسان الى مستوى أعلى كثيرا ·

ونحن نشهد اليوم تجمد الدم في شرايين اوروبا • فلنهرب ايها الرفاق من هذه الحركةالساكنة التي استحالفيها الديالكتيك شيئا فشيئا اليمنطق توازن • ولنطرح مشكلة الانسان من جديد • لنطرح مسألة الواقع الدماغي، مسألة الكتلة الدماغية للانسانية كلها ، هذه الكتلة التي يجب علينا أن نضاعف ارتباطاتها، وان ننوع شبكاتها، وان نعيد اليتوأصلها طابع الانسان•

هيا يا رفاق ! ان الأعمال التي يقع علي عاتقنا ان نقوم بها اكثر من ان نستطيع تضييع وقتنا في الهيات تتسلى بها المؤخرة • لقد صنعت اوروبا ما كان عليها ان تصنعه ، بل لقد أحسنت ، على وجه الاجمال ، صنع ما كان عليها ان تصنعه • فحسبنا اتهاما لها ، ولكن علينا ان نقول لها بقوة انه ما ينبغي لها بعد الآن ان تستمر في احداث هذا الضجيج كله • لقد أصبحنا اليوم لا نخشاها ، وعلينا اذن ان ننقطع عن حسدها •

ان العالم الثالث يقف الآن أمام اوروبا كتلة عظيمة تريد ان تحاول حل المشكلات التي لم تستطع اوروبا ان تأتي لها بحلول •

ولكن يجب علينا ان لا نتحدث عن وفرة الانتاج ، أن لا نتحدث عن الجهد العنيف ، أن لا نتحدث عن السرعة الكبيرة • وليس معنى هذا « أن نعود الى الطبيعة » ، وانما معناه أن لا نشدّ البشر الى اتجاهات تشوههم أن لا نفرض علي الدماغ ايقاعا سرعان ما يفسده ويفقده سلامته • يجب علينا أن لا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الانسان وننتزعه من ذاته ، من صميمه، وأن نحطمه ، أن نقتله •

لا ، نحن لا نريد اللحاق بأحد ، ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت ليلا ونهارا ، في صحبة الانسان ، في صحبة جميع البشر • وعلينا ان نجعل القافلة متراصة غير متباعدة ، والا لم يستطع كل صف من الصفوف أن يرى الصف الذي تقدمه ، ولم يستطع البشر ان يعرف بعضهم بعضا ، وأصبحوا لا يلتقون الا لماما ولا يتحدث بعضهم الى بعض كثيرا •

ان علي العالم الثالث ان يستأنف تاريخا للانسان يحسب حساب النظرات التي جاءت بها اوروبا وكانت في بعضالأحيان رائعة، ولكنه يحسب أيضا حساب الجرائم التي قامت بها اوروبا في الوقت نفسه ، وأبشع هذه الجرائم انها قد شتتت وظائف الانسان تشتيتا مرضيا ، وفتتت وحدته ، كما أوجدت في المجتمع تحطما وتكسرا وتوترات دامية تغذيها طبقات ، وكما أوجدت علي مستوى الانسانية احقادا عرقية واستعبادا واستغلالا بل وقتلا هو ذلك النبذ لمليار ونصف مليار من البشر •

فيا أيها الرفاق ، يجب علينا أن لا ندفع جزية لأوروبا بخلق دول ونظم ومجتمعات تستوحي أوروبا •

ان الانسانية تنتظر منا شيئا آخر غير هذا التقليد الكاريكاتوري ، الفاجر على وجه الاجمال •

اذا أردنا أن نحيل افريقيا الى أوروبا جديدة ، وأن نحيل أمريكا الى أوروبا جديدة كان علينا أننعهد بمصائر بلادنا الى أوروبيين، لأنهمسيحسنون التصرف اكثر من أعظمنا موهبة •

أما اذا أردنا ان تتقدم الانسانية درجة ، اذا أردنا ان نحمل الانسانية الى مستوى مختلف عن المستوى الذي بلغته أوروبا ، فعندئذ يجب علينا أن نبتكر ، أن نكتشف ٠

اذا أردنا ان نستجيب لآمال شعوبنا علينا أن نبحث في غير أوروبا ٠

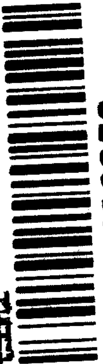
بل اذا نحن أردنا أن نستجيب لما يتوقعه منا الأوروبيون فيجب ان لا نرد اليهم بضاعتهم ، أن لا نرسل اليهم صورة ، ولو مثالية ، عن مجتمعهم وعن تفكيرهم بعد ان اصبحوا يشعرون نحوهما باشمئزاز شديد ٠

فمن أجل أوروبا ، ومن أجل أنفسنا ، ومن أجل الانسانية ، يجب علينا يا رفاق ، أن نلبس جلدا جديدا ، أن ننشيء فكرا جديدا ، أن نحاول خلق انسان جديد ٠

الفهرست

هـذا الكتاب

الدكتور فرانز فانون الذي كان علماً من اعلام الفكر السياسي ، وبطلا من ابطال النضال في معركة التحرر من الاستعمار ، يحدثنا في هذا الكتاب الذي كتبه قبل ان تختاره المنيه وهو في ريعان الشباب ، عن دور العنف في معركة التحرر ، مستشهداً بكفاح التحرير الوطني الجزائري خاصة ، هذا الكفاح الذي خاضه ببسالة ووقف عليه حياته ، كما يحدثنا عن دور التنظيم الشعبي والنوعية السياسية للجماهير المكافحة في حماية الاستقلال بعد انتزاعه ، وفي بناء المجتمع الثوري التقدمي الذي لا يمكن الا ان يكون اشتراكيا ..



الثمن : ١٠ ل.ل
او ما يعادلها